مكتبة 188

تشاك پالانيك

أغنِيَةُ المَهَد

ترجمة هِشَام فَهْمي

روايَة

التنوير

مؤلف "نادي القتال" و"الناجي الأخير"

تشاك بالانيك

أغنيَة المَهد

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الكتاب: أغنيَة المَهد

تأليف: تشاك پالانيك

ترجمة: هشام فهمي

عدد الصفحات: 352 صفحة

الطبعة الأولى: 2017

الترقيم الدولي: 978-977-6483-11-8

رقم الإيداع: 2014/23731

هذه ترجمة مرخصة لكتاب

Lullaby by Chuck Palahniuk.

Copyright © 2002 by Chuck Palahniuk

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تشاك پالانيك

أغنيَة المَهد

للمزيد والجديد من الكتب والروايات

زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

ترجمة: هشام فهمي

التنوير

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

مقدِّمة

القصَّة وراء القصَّة

تركَ رجل المعمل الجنائي الصورة متواريةً تحت ورقةٍ بيضاء وهو يقول: «سأسحبُ الورقة ببطءٍ شديد. قُل لي أن أتوقَّف عندما ترى ما يكفي».

في عام 1999 كان أبي واقفًا على قمَّة سُلَّمٍ خارجي حين أطلقَ عليه أحدهم النار. اخترقَت الطَّلقة بطنه، ومزَّقت حجابه الحاجز في طريقها إلى أعلى داخِل قفصه الصَّدري، حيث تسبَّبت في انهيار الرِّئتين. كلُّ هذا كان ضِمن الأدلَّة التي تمَّ عرضها في المحكمة وتوصَّل إليها المحقِّقون، بناءً على تقرير الطبيب الشَّرعي عن الواقعة. بَعد إصابته بالطَّلقة، جرَّ أبي نفسه -أو جرَّه أحدهم- إلى داخِل الشقَّة الواقعة عند قمَّة السُّلَّم، واستلقى على الأرض إلى جوار المرأة، التي كان قد اصطحبَها للتَّوِّ إلى معرضٍ لمُنتَجات المَزارع. قالت الشُّرطة إنه مات خلال دقائق قليلة، لأنه لم يُقتَل بطلقةٍ في مؤخِّرة العُنق -ما يُطلِق عليه رجال الشُّرطة اسم أسلوب الإعدام- كما حدث مع رفيقته.

في ديسمبر من سنة 2000 وجدَت هيئة مُحَلَّفين في موسكو، آيداهو المدعو دايل شاكلفورد مذنبًا بكلتا جريمتي القتل، وكجزءٍ من قانون حقوق الضحيَّة، طلبت مني المحكمة أن أدلي بتصريح عن المعاناة التي سبَّبتها لي الجريمة.

هكذا، وكجزءٍ من التصريح، كان عليَّ أن أقرِّر إن كنتُ أؤيِّدُ عقوبة الإعدام أم أرفُضها.

هذه هي القصَّة التي وراء القصَّة في هذه الرواية، الشهور التي قضيتها في الكلام مع الناس والقراءة والكتابة، في محاولةٍ لتحديد موقِفي من عقوبة الإعدام.

طِبقًا للادِّعاء، عاد شاكلفورد إلى مسرح الجريمة عدَّة مرَّات في محاولةٍ لإضرام حريقٍ كبير يكفي لإخفاء الأدلَّة، ولم تبدأ البناية في الاشتعال فعليًّا إلَّا عندما كسر نافذةً ليعمل الهواء على تأجيج النيران، ثم عندما هوت الشقَّة التي في الطابِق الثاني فوق الطابِق الأول، سقطت حشيَّة فِراش فوق جُثَّة أبي لتقيها من النار، فلم يحترق غير ساقيه.

الصورة الموضوعة تحت الورقة البيضاء كانت لما تبقَّى تحت تلك الحشيَّة...

أثبتَ عدم وجود سُخام أو دُخان في حَلْقَيّ الضحيَّتين أنهما لم تحترقا وهما على قيد الحياة. ثمَّة اختبار أكثر حسمًا يُجرَى لمعرفة إن كانت هناك زيادة في نسبة أول أوكسيد الكربون في الدَّم، لكني لم أسأل عنه، فمن الأفضل أن تنسحب وأنت لا تزال في المقدِّمة.

كان رجل المعمل الجنائي يعرض عليَّ الأدلَّة بعد انتهاء المحاكَمة،

وكنتُ قد أدليتُ بتصريحي في المحكمة وتمَّ الحصول على شهادتي، والآن كان كلانا يَنظُر إلى الورقة البيضاء ونحن جالسَيْن في غُرفة مكتب خلفيَّة بلا نوافذ، والغُرفة ملأى بالرُّفوف المكدَّسة بالدفاتر والملفَّات المتخَمة بالأوراق. قال رجل المعمل الجنائي إن عددًا صغيرًا جدًّا من عائلات الضحايا يرغب في رؤية أكثر من نِصف بوصةٍ من صُور عزيزٍ لهم فقدوه في حريق، ثم بدأ يسحب الورقة جانبًا بمنتهى البطء، ببطءِ الشمس وهي ترتفع أو تغيب في الأفق، وقال:

- «قُل لي متى أتوقَّف، وسأتوقَّف».

ومددتُ يدي إلى الورقة قائلًا:

- «أرِني. أنا متأكِّد من أنني رأيتُ ما هو أسوأ».

ورفعَ رجل المعمل الجنائي الورقة، وكانت أول ردَّة فعلٍ لديَّ هي التفكير في أن أبي كان ليكره أنهم بدَّدوا لوحًا ممتازًا من الخشب الحُبَيبي، عندما قطَّعوه بشكلٍ مائلٍ غير منتظم ليحملوا جُثَّته المحترقة عليه. كان وجه الجُثَّة إلى أسفل، والساقان محترقتين تمامًا حتى لم تتبقَّ منهما إلَّا أجذال. لم يَعُد هناك جِلد، والعضلات محترقة عن آخِرها، وقد تمزَّقت ولاح اللون الأحمر من تحتها. ردَّة فعلي الثانية كانت الخاطِر الذي راودَني عن أن الصورة تُذكِّرني إلى حدٍّ كبير بدجاجةٍ مشويَّة تفحَّمت!

قبل عامٍ من هذه الأحداث توفِّي زوج أختي في سِنٍّ صغيرة بأزمةٍ قلبيَّة مفاجِئة وهو يعمل في حديقة بيتهما، وفي دار الجنازات دخلَت أختي وحدها تُلقي نظرةً على الجُثَّة، ثم أخرجَت رأسها من الباب بعد

لحظاتٍ قليلة، قائلةً إنهم ارتكبوا خطأً، وإن هذا ليس زوجها. انضمَّت أمي إليها في الداخِل، وأخذَت الاثنتان تدوران حول التابوت المفتوح بنظراتٍ متمعِّنة في محاولةٍ للتقرير. في حياته كان چيرارد رجلًا طريفًا متأمِّرًا مفعمًا بالحيويَّة، أما هذا الشيء فمن السُّخف أن تبكي عليه.

لأختصر عليك القِصَّة... لقد عملتُ في عددٍ من المستشفيات، وعملتُ مراسلًا صحافيًّا لأخبار الجريمة، وأعرفُ أن الجُثَّة ليست هي نفسها الشخص الحقيقي؛ وإذ تطلَّعتُ إلى تلك الكُتلة المتفحِّمة التي كانت أبي، وجدتُ أن دراما الموقِف كلها تبخَّرت.

ومع ذلك، هل كنتُ أرغبُ في أن يموت الرجل الذي فعل هذا؟

اتَّضح في المحكمة أن شاكلفورد لديه تاريخ طويل جدًّا من الاعتداء البدني على النساء والأطفال، وقد أمضى معظم حياته في مستشفيات الأمراض العقليَّة والسجون. المرأة التي أطلقَ النار على مؤخِّرة عُنقها هي زوجته السابقة، التي كانت قد التحقَت بهيئة السجون لتُعَلِّم السجناء مهارات العمل القانوني، وعلَّمته أن يكون مساعد محامٍ، فاستغلَّ شاكلفورد تلك المهارات التي تعلَّمها من ضحيَّته ليستأنف حُكم الإعدام الذي صدر ضده.

قال شاكلفورد للمحكمة إنه ومجموعة من المؤمنين بسيادة الجنس الأبيض صنَّعوا عددًا كبيرًا من قنابل الجمرة الخبيثة ودفنوها حول منطقة سپوكان، واشنطن، فإذا أعدموه، فسيأتي يوم تنفجر فيه إحدى القنابل المدفونة ويموت الآلاف.

وقال للشُّرطة إنني أتحرَّشُ به وأرسلُ إليه أشياء في البريد... وكان هذا في الوقت الذي لم أكن أعرف فيه اسمه أصلًا.

وأطلق فريق الادِّعاء على كذبته المبالَغ فيها اسم «كذبة شاكل-فرويديَّة».

ومع ذلك، هل كنتُ أرغبُ في أن يموت هذا الرجل؟

كان صديق لي قد أخبرَني عن نظريَّة كارل ماركس، التي تقول إنه كي يرتكب المرء جريمة، فعليه أن يجعل من الضحيَّة عدوًّا له، وهكذا يُبرِّر الجريمة بَعد الجريمة بأن يجعل المزيد من الناس أعداء له، إلى أن يصير وحيدًا تمامًا، معزولًا عن العالم الذي قرَّر أنه يقف ضدَّه. يقول ماركس إن السبيل الوحيد لإعادة هذا المجرم إلى الإنسانيَّة من جديد، أن يُقبَض عليه ويُعاقَب، وهكذا يكون في عقابه تحرير له. إنها رأفة.

وأخبرَني صديق آخَر (يعتنق البوذيَّة) أن كلَّ حياةٍ تتطلَّب موت الكثير من الأشياء الأخرى، من حيواناتٍ ونباتاتٍ وأناسٍ آخَرين حتى. هذه هي الحياة... الحياة هي الموت، وليس بوسعنا إلَّا أن نأمل في أن نستغلَّ الحياة التي نعيشها على حساب آخَرين كُثْرٍ بأفضل شكلٍ ممكن.

قال صديقي إنه لا ينبغي السماح لشخصٍ شرِّير بأن يستمرَّ في الاستيلاء على حيوات الكائنات الحيَّة الأخرى.

كلُّ هذا كان في بالي حينما انتهيتُ من وضع اللمسات الأخيرة على «أغنيَّة المَهد»، وأرسلتها إلى نيويورك يوم 10 سبتمبر 2001.

ما بدأ ككتابٍ طريف لا يخلو من كآبةٍ عن السِّحر، استحالَ إلى قصَّةٍ عن الصِّراع الدائم على السُّلطة الذي نُطلِق عليه اسم الحياة؛ الصِّراع بين الأجيال، بين البَشر والحيوانات، بين الرجال والنساء، بين الفقراء والأغنياء، بين الأفراد والمجموعات، بين الثقافات.

وعلى مستوى أقل أهميَّة، الكتاب عن صراع الحَيِّ الذي أسكنه مع

امرأةٍ تُصِرُّ على أن تفتح كلَّ نافذةٍ في منزلها وتَغمُر الحَيَّ كله بموسيقاها الصاخبة كلَّ يوم، سواء أكانت موسيقى القِرَب أو الأوپرا الصينيَّة أو أيَّ شيءٍ آخَر. إنه التلوُّث الضوضائي. كان من الممكن أن أقتلها فعلًا بعد مرور أيامٍ وأسابيع على هذه الحال، فقد صار من المستحيل أن أكتب في المنزل، وهكذا بدأتُ أسافر لأكتب على الطريق.

وبعد مرور شهرٍ أصدرَت ولاية آيداهو حُكم الإعدام على دايل شاكلفورد.

وعندما كنتُ في جولةٍ للترويج لأحد كُتبي، حزمَت جارتي إياها جهاز الستريو الضخم والمليون اسطوانة التي تملكها واختفَت.

وكتبتُ رسالةً للمحكمة طالبًا فيها أن أشهد تنفيذ حُكم الإعدام على شاكلفورد.

وهكذا -بنِعمة الله وحدها- أمضي.

تَمهيد

في البداية يتظاهَر المالِك الجديد بأنه لم يُلقِ نظرةً على أرضيَّة غُرفة المعيشة، بأنه لم يفحَصها ويتمعَّن فيها حقًّا عندما طافَ بالمنزل للمرَّة الأولى في صُحبة مفتِّش العقارات. لقد أخذَ قياسات الغُرف، وأشارَ لعُمَّال النَّقل أين يضعون الأريكة والپيانو، وأتى بجميع مُمتلكاته، لكنه لم يتوقَّف كي يُلقي نظرةً على أرضيَّة غُرفة المعيشة. هذا هو ما يتظاهَر به.

ثم يأتي الصباح الأول له في المنزل الجديد، وينزل إلى الطابق السُّفلي، ليجد الكلمة المحفورة في الأرضيَّة المصنوعة من السَّنديان الأبيض تقول له: «ارحل!».

يقول بعض المُلَّاك الجُدد لأنفسهم إن صديقًا فعلَ هذا على سبيل الدُّعابة، ويؤكِّد آخَرون أن عُمَّال النَّقل هُم مَن فعلوها، لأنهم لم يمنحوهم إكراميَّة.

ثم بعد ليلتين يتصاعَد بكاء طفلٍ رضيع يُسمَع عبر جِدار غُرفة النوم الرئيسة، وتلك هي المرحلة التي يتَّصلون فيها عادةً.

وهذا المالِك الجديد على الهاتف هو آخِر ما تحتاجه بطلتنا، هيلين هوڤر بويل، هذا الصباح.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كلُّ هذه الثَّرثرة... كلُّ هذه الشَّكوى...

ما تحتاجه الآن هو قدحٌ آخَر من القهوة، وكلمة مرادِفة لاسم نوعٍ من الدواجن تتكوَّن من خمسة أحرُف، وأن تسمع ما يُقال على جهاز الماسح الرَّاداري[1]. تُفَرقِع هيلين هوڤر بويل بأصابعها إلى أن تُطِلَّ سكرتيرتها برأسها من المكتب الخارجي، فتضمُّ بطلتنا كلتا يديها حول سمَّاعة الهاتف، وتشير بها إلى الجهاز قائلةً:

- «هذا كود 9-11».

فتهزُّ مونا، سكرتيرتها، كتفيها بلا مبالاةٍ وتقول:

- «وماذا في هذا؟».

- «فلتبحثي عنه إذن في كتيِّب أكواد الشُّرطة».

فتقول مونا:

- «اهدئي. إنه مجرَّد لص».

جرائم القتل، والانتحار، والقتلة المتسلسلون، والموت بجرعةٍ مفرطة من المخدِّرات... لا يمكنك الانتظار حتى تحتل أخبار تلك الحوادث الصَّفحات الأولى من الجرائد، فلا مجال للسَّماح لسمسار آخَر بأن يسبقك إلى صانع المال التالي.

تحتاج هيلين أن يخرس المالِك الجديد للمنزل الكائن في 235 كرستوود تراس قليلًا.

طبعًا كانت الرسالة قد ظهرَت في أرضيَّة غُرفة المعيشة، لكن الغريب

---

(1) جهاز يعمل على التقاط التردُّدات المختلفة، وهو بمثابة راديو خاص بالشُّرطة.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

هذه المرَّة أن الطِّفل لا يبدأ في البكاء عادةً قبل الليلة الثالثة. أولًا تظهر الرسالة الشبحيَّة، ثم يظلُّ الطِّفل يبكي طول الليل. وإذا احتمل المُلَّاك الجُدد فترةً أطول، فسوف يُعاوِدون الاتِّصال بَعد أسبوعٍ آخَر بشأن الوجه الذي يظهر معكوسًا في المياه بينما تملأ حوض الاستحمام، الوجه المتغضِّن الضَّاوي والمحجرين المظلمين حيث كانت العينان.

ثم يأتي الأسبوع الثالث بالظِّلال التي تظلُّ تدور وتدور على جدران غُرفة الطعام عندما يجلس الجميع إلى المائدة. قد يكون هناك المزيد من الأحداث بعد ذلك، لكن لم يسبق أن احتملَ أحدهم البقاء أسبوعًا رابعًا.

تقول هيلين هوفر بويل للمالِك الجديد:

- «ما لم تكن مستعدًّا للذَّهاب إلى المحكمة وإثبات أن المنزل غير صالحٍ للمعيشة، ما لم تكن قادرًا على أن تُثبِت بما لا يدع مجالًا للشَّكِّ أن المُلَّاك السابقين كانوا على علمٍ بما يَحدُث، فدعني أقول لك إن هذا المنزل سيُصبِح بلا قيمة إذا خسرت قضيَّة كهذه، بَعد كلِّ الدعاية السيِّئة التي ستُنشَر عنه».

ليس منزلًا سيِّئًا ذلك الكائن في 235 كرستوود تراس. إنه مبني على الطِّراز التيودوري الإنجليزي، سطح حديث التركيب، أربع غُرف نوم، ثلاثة حمَّامات ونِصف، وحوض سباحة. لا تحتاج بطلتنا إلى إلقاء مجرَّد نظرةٍ على نشرة البيانات الخاصَّة بالمنزل، فقد باعته ستَّ مرَّاتٍ بالفعل خلال العامين المنصرِمين.

هناك منزل من طابقٍ واحد في إتون كورت، مبني على طراز نيو إنجلند، فيه ستُّ غُرف نوم، وأربعة حمَّامات، ومدخل مبطَّن بألواح

الصنوبر، ودماء تجري على جدران المطبخ. هذا المنزل باعته ثمان مرَّاتٍ في السنوات الأربع الماضية.

تقول للمالِك الجديد:

- «يجب أن أضعك على الانتظار لحظةً».

وتضغط الزِّرَّ الأحمر على الهاتف.

يغلب على بذلة هيلين وحذائها البياض، لكنه ليس بياض الثَّلج، بل بياض رحلة تزلُّجٍ على الجليد في بانف، تشمل سيَّارة فارهةً وسائقًا خاصًّا، مع طقمٍ من الأمتعة المتماثِلة يتكوَّن من أربع عشرة قِطعة، وجناحٍ في فندق ليك لويز.

تُخاطِب بطلتنا مدخل المكتب قائلةً:

- «مونا... يا شعاع القمر!».

وبصوتٍ أعلى تضيف:

- «يا فتاتي الرُّوحانيَّة!».

وتَنقُر بقلمها على صفحة الجريدة المطويَّة على مكتبها وتقول:

- «أريدُ كلمةً من ثلاثة أحرُف مرادِفة لاسم نوعٍ من القوارِض».

يُصدِر جهاز الشُّرطة أصواتًا كالغرغرة، يُصدِر أرقامًا وكلمات، ولا ينفك يُردِّد كلمة «حوِّل» بَعد كلِّ عبارة، بلا انقطاع يُردِّد «حوِّل» كأنه كلب ينبح.

وتصيح هيلين بويل:

- «هذه القهوة لن تَصلُح».

خلال ساعةٍ عليها أن تعرض على عميلٍ آخَر منزلًا من طراز كوين آن،

يتكوَّن من خمس غُرف نوم وشقَّة خاصَّة لإقامة حَماة الزوج أو الزوجة، ويضمُّ مدفأتين تعملان بالغاز، بالإضافة إلى وجه رجلٍ انتحرَ بابتلاع كميَّة كبيرة من حبوب خَفض النشاط العصبي، يظهر في مرآة الحمَّام في ساعةٍ متأخِّرة من الليل. بعد ذلك يأتي دور البيت الريفي متعدِّد الطوابق المزوَّد بنظام التدفئة المركزي، ومنطقة الجلوس الواطئة، والأصداء الشبحيَّة للطلقات الناريَّة التي أردَت شخصين هناك منذ أكثر من عقدٍ من الزمن. كلُّ هذا مدوَّن في دفتر التنظيم اليومي السَّميك المجلَّد بما يبدو أنه جِلد أحمر. إن لديها فيه تسجيلًا لكلِّ شيء.

تَأخُذ رشفةً أخرى من القهوة، وتقول:

- «قلتِ اسم هذه النكهة ماذا؟ سويس آرمي موكا؟ من المفترَض أن يكون مذاق القهوة كالقهوة!».

تَدخُل مونا من الباب وقد عقدت ذراعيها على صدرها قائلةً:

- «ماذا؟».

فتقول هيلين:

- «أريدك أن تَمُرِّي على...»، وتُنَقِّب بين مجموعةٍ من النَّشرات الموضوعة أمامها على المكتب، ثم تُواصِل: «... تَمُرِّي على العقار الكائن في 4673 ويلمونت پلايس. إنه منزل من الطِّراز الكولونيالي الهولندي، يضمُّ أربع غُرف نوم وحمَّامين وشُرفةً مكشوفةً للشَّمس، ووقعَت فيه جريمة قتلٍ شنيعة».

ويُرَدِّد جهاز الشُّرطة: «حوِّل».

تخطُّ هيلين العنوان على ورقة، ثم تُناوِلها لمونا قائلةً:

- «افعلي المعتاد، لكن لا تُمارِسي أيًا من طقوسكِ. لا تُحرِقي أوراق المريميَّة أو تَطرُدي أيَّ أرواحٍ تسكن المكان من فضلك».

وتلتقط مونا الورقة منها وهي تُغَمغِم:

- «أرصدُ الذبذبات فقط إذن؟».

فتشقُّ هيلين الهواء بحركةٍ سريعةٍ بيدها، وتقول:

- «لا أريدُ أن يجد أحدٌ نفسه متَّجهًا نحو الضوء في نهاية النفق. أريدهم أن يبقوا ها هنا على كوكبنا، شكرًا لك».

ثم تَنظُر إلى جريدتها وتضيف:

- «إن لديهم الأبديَّة كلها ليظلوا موتى، أما الآن فيُمكنهم البقاء خمسين عامًا أخرى في ذلك المنزل وإحداث القليل من الجلبة».

وتَرمُق هيلين هوڤر بويل زرَّ الانتظار الذي يضيء وينطفئ على الهاتف، وتسألها:

- «ماذا وجدتِ في المنزل الإسپاني ذي غُرف النوم السِّت بالأمس؟».

فترفع مونا عينيها إلى السقف، ويَبرُز فكُّها السُّفلي إلى الأمام لتُطلِق منه زفرةً حارَّة تُحرِّك خُصلة الشَّعر النافرة على جبهتها، وتقول:

- «في المكان طاقة لا شَكَّ فيها، حضور خفيٌّ وإنما ملموس، لكن تصميم الأرضيَّات رائع».

ثمَّة خيط حريري أسود يلتفُّ حول عنقها، ويختفي داخل رُكن فمها.

وتقول بطلتنا:

- «لا أبالي بتصميم الأرضيَّات».

انسَ منازل الأحلام التي لا تُباع إلَّا مرَّة واحدةً كلَّ خمسين عامًا، انسَ تلك البيوت السعيدة، وتبًّا لكلِّ حضورٍ شبحي لا يتعدَّى بُقعةً باردةً في رُكنٍ ما من المنزل أو ضبابًا غريبًا أو قِطًّا متحفِّزًا... هذا كلام فارِغ. إنها تريد دماءً تتدفَّق من الجدران، أيادٍ خفيَّة باردة كالثَّلج تسحَب الأطفال من فِراشهم ليلًا، عيونًا حمراء تَطُقُّ شررًا تَرمُقك من ظلام بئر السُّلَّم الذي يقود إلى القبو. تريد هذا، وتريد أن يكون للمنزل مظهرًا خارجيًّا لا بأس به.

المنزل ذو الطابق الواحد الكائن في 521 إلم ستريت فيه أربع غُرف نوم، وأشغال معدنيَّة أصليَّة، وصرخات تأتي من العلية. والمنزل المبني على الطراز النورماندي الفرنسي الكائن في 7645 وستون هايتس فيه نوافذ مقنطَرة، وحُجرة لرئيس الخدم، وأبواب من الزجاج المقوَّى بالرصاص، وجثَّة ملأتها الطعنات تظهر في البهو العلوي. والبيت ذو الطِّراز الريفي في 248 ليڤي پلايس يحتوي على خمس غُرف نوم، وأربعة حمَّامات ونِصف، وشُرفة من القرميد، وضحيَّة ماتت مسمومة بمُنظِّف البالوعات، يَسعُل شبحها دمًا على جدران الحمَّام الرئيس.

إنها المنازل المنكوبة كما يُطلِق عليها السماسرة، تلك المنازل التي لم تُبَع قَط، لأن لا أحد يرغب في عرضها للبيع، فلا يوجد سمسار يريد أن يُعَلِّق لافتةً تقول إن الدعوة مفتوحة للجميع لمشاهَدة المنزل، أو يُخاطِر بأن يقضي أيَّ مدَّةٍ من الوقت هناك بمفرده. أو إنها المنازل التي تُباع لأحدهم ثم تُباع مرَّةً أخرى كلَّ ستة شهور، لأن لا أحد يطيق المعيشة فيها. بعد عددٍ مناسب من تلك المنازل -عشرين أو ثلاثين صفقة مثلًا، تملك حقها الحصري- تستطيع هيلين أن تُغلِق الماسح

الرَّداري، وسيُمكنها عندئذٍ أن تتوقَّف عن البحث في صفحات الوفيَّات في الجرائد ومطالَعة أخبار جرائم القتل والانتحار، سيُمكنها أن تَكُفَّ عن إرسال مونا للبحث عن كلِّ دليلٍ محتمَل على وجود نشاطٍ خارق للطبيعة في هذا المنزل أو ذاك، وسيُمكنها أن تسترخي أخيرًا وتبحث على مهلٍ عن مرادفٍ من أربعة أحرُف لكلمة «فَرس».

تقول هيلين:

- «وأريدك أيضًا أن تُحضِري ملابسي من المغسلة، وهاتِ قهوةً محترمة».

ثم تشير بطرف قلمها إلى مونا وتضيف:

- «واحترامًا لعمل المحترفين، اتركي أدواتك الرستفاريَّة[1] الصغيرة تلك في بيتك».

تسحب مونا خيط الحرير من فمها حتى تَخرُج منه بلَّورة من الكوارتز لامعة ومبتلَّة، فتَنفُخ فيها وتقول:

- «إنها من البلَّور. أعطاني إياها أويستر صاحبي».

- «تُواعِدين شابًّا اسمه أويستر؟».

تَترُك مونا البلَّورة لتَسقُط وتتدلَّى على صدرها فتُبلِّل بلوزتها البرتقاليَّة، وتجيب:

---

(1) الرستفاريَّة، هي الديانة التي تقبل الإمبراطور هيلا سيلاسي الأول، الإمبراطور السابق لإثيوبيا، كتجسيدٍ للرب يُطلِقون عليه اسم جاه، كما يراه أتابع تلك الديانة جزءًا من الثالوث المقدَّس بوصفه المسيح المذكور في الانجيل، وقد نشأت الرستفاريَّة في جامايكا بين الطبقات العاملة والمزارعين الزنوج في أوائل الثلاثينات من القرن الماضي.

- «يقول إنها لحمايتي».

- «قبل أن تذهبي، صليني بإميلي أو بيل بورروز على الهاتف».

ثم تضغط هيلين زرَّ الانتظار وتعتذر للمتكلِّم. تقول إن هناك خيارين واضحين الآن: إمَّا أن يَترُك المنزل ويُوَقِّع مخالَصة، فيصير المنزل مشكلة البنك.

- «... أو تمنحني الحقَّ الحصري الوحيد لبيع المنزل. ونُطلِق على هذا اسم البيع من الباطِن».

ولربما يجيبها المالِك الجديد بالرَّفض هذه المرَّة، لكن بعد أن يظهر الوجه الشائِه بين ساقيه في مياه حوض الاستحمام، بعد أن تبدأ الظِّلال في السريان على الجدران، عندها يوافق الجميع بلا تردُّد.

يقول المالِك الجديد على الهاتف:

- «ولن تُخبِري أيًّا من المشترين بالمشكلة الموجودة؟».

- «لا تُكمِل إفراغ حاجياتك حتى. سنقول إنك تَحزِمها قبل انتقالك لمنزلٍ آخَر. وإذا سألك أحدهم، فقُل له إنك نُقِلت للعمل في مدينةٍ أخرى، قل له إنك أحببت هذا المنزل كثيرًا. أيُّ شيءٍ آخَر سيظلُّ سرَّنا الصغير».

من المكتب الخارجي يأتي صوت مونا:

- «بيل بورروز على الخطِّ الثاني».

ويُرَدِّد الماسح الرَّداري: «حوِّل».

وتضغط بطلتنا زرًّا آخَر قائلةً:

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

- «بيل!»

وتُحَرِّك شفتيها بكلمة «القهوة» لمونا، وتُلَوِّح بيدها صوب النافذة مضيفةً: «اذهبي».

ويُرَدِّد الماسح الرَّداري: «حوِّل... حوِّل...».

كانت هذه هيلين هوڤر بويل، بطلتنا. هي الآن ميتة لكن غير ميتة، وكان هذا مجرَّد يومٍ آخَر في حياتها، الحياة التي كانت تُمارِسها قبل أن أظهر فيها. قد تكون هذه قصَّة حُبٍّ أو لا تكون، فهذا يعتمد على مقدار تصديقي لنفسي.

عن هيلين هوڤر بويل أحكي، عن الطريقة التي تَسكُنني بها، تمامًا كما تسكن أغنيَّة ما عقلك ولا تُغادِر، عن الحياة التي تتخيَّلها كما يجب أن تكون، عن الأشياء وكيف تستحوذ على اهتمامك، عن ماضيك الذي يدوم معك في كلِّ يومٍ من مستقبلك.

هذا، وذاك، وكلُّ شيءٍ آخَر هو هيلين هوڤر بويل...

كلنا نَسكُن الأشياء، وكلنا الأشياء تَسكُننا...

وفي ذلك اليوم -آخِر يومٍ تقليدي في الحياة التي عرفَتها واعتادَتها- تقول بطلتنا على الهاتف:

- «بيل بورروز؟ قُل لإميلي أن تنضمَّ إلينا على السمَّاعة الأخرى، لأني وجدتُ لكما بيتكما المثالي الجديد».

وتَكتُب كلمة «حصان» على صفحة الجريدة المطويَّة، وتُكمِل:

- «لديَّ أخبار مؤكَّدة بأن المُلَّاك الحاليِّين متحمِّسون للغاية للبيع».

الفصل الأول

مشكلة كلِّ قصَّة أنك تحكيها بعد وقوع الحدث.

حتى المباريات التي تسمعها على الراديو موصوفةً بالتفصيل، حتى الأهداف التي تَدخُل المرمى والأهداف الضائعة، حتى هذا يتأخَّر بضع دقائق قبل أن يَبلُغك. بل وحتى البث التليفزيوني المباشِر يتأخَّر بضع ثوانٍ إلى أن تسمع ما قيل وترى ما حدث.

حتى سرعتَي الصوت والضوء لهما حدود...

المشكلة الأخرى هي الراوي، مَن يُبلِغك بمَن وماذا وأين ومتى ولماذا، التحيزُّ الإعلامي، وكيف يعيد ناقِل الحقائق تشكيلها وصياغتها، ما اصطلحَ الصحافيُّون على تسميته «حارس البوَّابة»، وكيف أن طريقة التقديم هي كلُّ شيء.

القصَّة التي وراء القصَّة...

أحكي هذه الأحداث من مقهى تلوَ مقهى، فلا تتكرَّر أبدًا المدينة أو البلدة أو كافيتيريا موقف الشاحنات النائي التي أكتبُ فيها هذا الكتاب فصلًا فصلًا. العامل المشترَك الوحيد بين هذه الأماكن هو المعجزات.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

إنك تقرأ عن هذه الأشياء في صُحف التابلويد الصفراء، عن حالات الشِّفاء والمشاهَدات الإعجازيَّة التي لا تجد طريقها إلى الصُّحف الكبرى أبدًا.

معجزة هذا الأسبوع هي العذراء المقدَّسة في ولبورن، نيو مكسيكو، التي جاءت محلِّقةً فوق شارع ماين ستريت منذ أسبوع، جاءت وجدائل شَعرها الحمراء والسوداء تَخفِق وراءها، وقد اتَّسخت قدماها الحافيتان، وارتدت تنورةً هنديَّة من القطن طُبِعَت عليها درجتان من اللون البُنِّي، مع بلوزة ذات حمَّالة واحدة تُطَوِّق العُنق. كلُّ هذا مذكور في عدد هذا الأسبوع من جريدة World Miracle Report التي ستجدها عند كلِّ كاشير في كلِّ سوبر ماركت في الولايات المتحدة.

وها أنذا جئتُ متأخِّرًا أسبوعًا كاملًا. دائمًا يسبقني الحدث بخطوة، ودائمًا أصلُ بعد وقوعه.

كانت أظفار العذراء المحلِّقة مطليَّة باللون الوردي اللامع مع تحديد الأطراف بالأبيض، ما قال بعض الشهود عنه إنه مانيكير فرنسي. استخدمَت العذراء المحلِّقة عبوَّة من مبيد الحشرات لتكتُب بها في سماء نيو مكسيكو الزرقاء: «**توقَّفوا عن إنجاب الأطفالات**»... (صورة طِبق الأصل من المصدر).

ثم إنها تركت عبوَّة المبيد الحشري تَسقُط على الأرض، وجدير بالذِّكر أن العبوَّة في طريقها الآن إلى الڤاتيكان ليتمَّ فحصها.

الآن يُمكنك شراء بطاقاتٍ بريديَّة عن هذه الحادثة، بل وأفلام ڤيديو كذلك.

كلُّ شيءٍ تشتريه تقريبًا يأتي بعد وقوع الحدث، سواء أكان مُصطادًا أو ميتًا أو مطبوخًا. مكتبة الرمحي أحمد

في الفيديوهات التذكاريَّة، ترى العذراء ترجُّ عبوَّة المبيد الحشري وهي طافية في الهواء فوق أحد طرفي شارع ماين ستريت، تُلَوِّح بيدها للحشود، وتلمح دغلًا من الشَّعر البُنِّي تحت إبطها، وقبل لحظةٍ من بدءها الكتابة، تَهُبُّ الريح وترفع تنورتها، فترى أن العذراء المحلَّقة لا ترتدي ثيابًا داخليَّة، وأن لا شَعر هنالك بين ساقيها.

هذا هو المكان الذي أكتبُ منه القصَّة اليوم، هنا في مطعمٍ على جانب الطريق في ولبورن، نيو مكسيكو. أتكلَّمُ مع الشهود، ومعي حضرة الرقيب، الشُّرطي الأيرلندي العجوز الذي يُشبِه درنة البطاطس المخبوزة. على الطاولة بيننا تُظهِر الجريدة المحليَّة المطويَّة إعلانًا في ثلاثة أعمدة يقول عنوانه: «**الرجاء الانتباه... لمُرتادي متاجر أُول پلَش إنتريورز للأثاث المنزلي**»، ويقول متنه: «إذا وجدتم العناكب تفقس بيضها في أثاثكم المنجَّد الجديد، فقد تكونون مؤهَّلين للمشاركة في دعوى جماعيَّة»، ثم رقم هاتف يُمكنك الاتصال به، لكنه بلا فائدة.

لدى حضرة الرقيب ذلك النوع الرخو من جِلد العنق الذي يظلُّ كما هو إذا جذبته، فيضطرُّ للبحث عن مرآةٍ كي يُسَوِّيه في مكانه مرَّةً أخرى.

لا يزال الناس مستمرِّين في الإقبال على البلدة خارج المطعم. تراهم يركعون على رُكَبهم ويبتهلون من أجل زيارة أخرى من العذراء. يضمُّ حضرة الرقيب يديه الضخمتين معًا ويتظاهر بأنه يُصَلِّي، وقد ثبَّت عينيه على النافذة ليرى ما في الخارج. جراب مسدَّسه مفتوح والمسدَّس محشوٌ وجاهزٌ للإطلاق.

بعد فروغها من الكتابة في السماء، أرسلت العذراء المحلِّقة قُبلةً في الهواء للجموع، ورفعت وسطاها وسبَّابتها بعلامة السلام، ثم حامت فوق الأشجار مباشرةً وقد ضمَّت تنورتها بقبضتها، وهزَّت جدائلها الحمراء والسوداء ولوَّحت بيدها مرَّة أخيرة و... آمين! اختفَت... وراء الجبال، وراء الأفق... اختفَت.

على أنك لا تستطيع الثقة بكلِّ شيءٍ تقرأه في الصُّحف.

هذا الظهور للعذراء الطائرة لم يكن معجزةً، بل سحرًا.

وهؤلاء ليسوا قدِّيسين، فما هي إلَّا تعاويذ.

وحضرة الرقيب وأنا لسنا هنا لنشهد أيَّ معجزات، وإنما نُطارِد السَّحرة.

لكن الغاية من هذه القصَّة ليست حكي ما يجري هنا والآن، ليست أنا أو حضرة الرقيب أو العذراء المحلِّقة.

إنها هيلين هوڤر بويل، وما أكتبه هو قصَّة لقائنا، وكيف وصلنا إلى هذه النقطة.

الفصل الثاني

سؤال واحد فقط يُلقونه عليك قبل أن تتخرَّج في كلِّية الصحافة مباشرةً...

يقولون لك أن تتخيَّل أنك مُراسِل، أنك تعمل في جريدة يوميَّة كُبرى، ثم يُرسِلك مُحرِّرك عشيَّة الكريسماس لتُحَقِّق في حالة وفاة.

رجال الشُّرطة والمُسعِفون هناك، والجيران محتشدون في ردهة الشقَّة الفقيرة وقد لبسوا ثياب النوم، وفي الداخل زوجان شابَّان ينتحبان ألمًا إلى جوار شجرة الكريسماس، التي اختنق رضيعهما حتى الموت بواحدةٍ من الحُلِيِّ المستخدَمة في تزيينها. تَحصُل على المعلومات التي تريدها -اسم الرَّضيع وعُمره وما إلى ذلك- وتعود إلى الجريدة نحو منتصَف الليل، وتَكتُب الموضوع بسرعةٍ كي يلحق بالمطبعة.

تُسَلِّم الموضوع للمُحرِّر، الذي يَرفُضه لأنك لم تَذكُر لون الحلية، هل كانت حمراء أم خضراء؟

لكنك لم تطَّلع عليها، ولم يَخطُر لك أن تسأل.

المطبعة تَصرُخ مطالِبةً بالصفحة الأولى، فتجد أن لديك خيارين:

إما أن تتَّصل بوالدي الرَّضيع وتسأل عن اللون.

أو تَرفُض الاتِّصال وتفقد عملك.

تلك هي السُّلطة الرابعة، الصحافة، وحيث التحقتُ بالكلِّيَّة كان هذا السؤال الأوحد يُمَثِّل كامل الامتحان النهائي لمادَّة عِلم الأخلاق. إنه سؤال من نوعيَّة «إما/ أو» إياها. كانت إجابتي أن أتَّصل بالمُسعِفين، فأشياء كهذه يجب أن تُدرَج في ملفِّ التحقيق، وعليه فلا بُدَّ أن الحلية تمَّ تصويرها وتغليفها كي توضع مع الأدلَّة. من المستحيل أن أتَّصل بالأبوين المفجوعَين بعد منتصَف الليل عشيَّة الكريسماس.

في امتحان عِلم الأخلاق حصلتُ على تقدير مقبول.

بدلًا من الأخلاق، تعلَّمتُ أن أقول للناس ما يرغبون في سماعه فحسب، تعلَّمتُ أن أدوِّن جميع التفاصيل، وتعلَّمتُ أن المُحرِّرين أوغاد حقيقيُّون.

أتساءلُ منذ ذلك الحين عن الهدف من ذلك الامتحان حقًّا. إنني الآن مُراسِل في صحيفةٍ يوميَّة كبرى، ولستُ مضطرًّا لأن أتخيَّل أيَّ شيء.

الرَّضيع الحقيقي الأول كان ذات نهارِ يوم اثنين في سبتمبر. لم تكن هناك حلية تُزَيِّن شجرة كريسماس، ولم يكن هناك جيران محتشدون داخل المقطورة التي تُشَكِّل ذلك المنزل في الضواحي. جلس واحد من المُسعِفين مع الأبوين في المطبخ الصغير وألقى عليهم الأسئلة المعتادة، بينما اصطحبَني المُسعِف الثاني إلى غُرفة الرَّضيع الصغيرة وأراني ما يجدونه عادةً في المَهد.

تتضمَّن الأسئلة التقليديَّة التي يُلقيها المُسعِفون: مَن عثرَ على الرَّضيع ميتًا؟ متى عُثِرَ على الرَّضيع؟ هل تم تحريك الرَّضيع من مكانه؟ متى

كانت آخِر مرَّةٍ شوهِد فيها الرَّضيع حيًّا؟ هل كانت الرِّضاعة طبيعيَّة أم من زجاجة؟

تبدو الأسئلة عشوائيَّة، لكن جُلَّ ما يستطيع الأطباء فِعله هو جمع الإحصاءات والأمل في أن يُفصِح نمطٌ ما عن نفسه ذات يوم.

كانت غُرفة الرَّضيع الصغيرة مطليَّة بالأصفر والأزرق، فيها ستائر ذات تشكيلاتٍ زهريَّة عند النافذة، وخزانة أدراج بيضاء مصنوعة من الخيزران المجدول إلى جوار المَهد، بالإضافة إلى كرسي هزَّاز مطلي بالأبيض، وحلقة دوَّارة ذات فراشاتٍ بلاستيكيَّة زرقاء مُعلَّقة أعلى المَهد. فوق الخزانة كان كتاب مفتوح على الصفحة 27، وعلى الأرض سجَّادة زرقاء مزركَشة، بينما عُلِّقَت على الجِدار لوحة مطرَّزة بالإبرة محاطة بإطار، تقول: «أبناء يوم الخميس أمامهم طريق طويل»، وكانت رائحة بودرة الأطفال تملأ الغُرفة.

ولعلِّي لم أتعلَّم عِلم الأخلاق، لكني تعلَّمتُ أن أظلَّ منتبهًا، فلا توجد تفصيلة أقل أهميَّة من أن تستدعي انتباهي.

الكتاب المفتوح كان اسمه «قصائد وأغانٍ من حول العالم»، وكان مستعارًا من مكتبة المقاطَعة.

كانت نيَّة مُحرِّري أن أُجري تحقيقًا من خمسة أجزاء عن متلازمة موت الرُّضَّع المفاجئ. في كلِّ عامٍ يموت سبعة آلاف رضيع دون سببٍ واضح، حيث يَخلُد اثنان من كلِّ ألف رضيعٍ إلى النوم ولا يستيقظان أبدًا. الموت في المَهد هو الاسم الذي أطلقَه مُحرِّري دنكان على هذه الظاهرة.

التفاصيل الخاصَّة بدنكان أن وجهه مليء بندوب حَبِّ الشباب، وفروة رأسه تكتسب اللون البُنِّي كلَّ أسبوعين عندما يصبغ جذور شَعره الشائبة، وأن password هي كلمة السِّر الخاصَّة بحاسبه الآلي.

كلُّ ما نعرفه فعلًا عن موت الرُّضَّع المفاجئ أنه بلا نمطٍ معيَّن، حيث يموت معظمهم وحيدًا في الفترة بين منتصَف الليل والصباح، لكن من الممكن أن يموت الرَّضيع وهو نائم إلى جوار أبويه، أو وهو جالس في سيَّارتهما أو عربته الصغيرة، أو حتى وهو بين ذراعي أمِّه.

قال المُحرِّر إن أناسًا كثيرين لديهم أطفال حديثو الولادة. إنه التحقيق الذي يخشى كلُّ الآباء والأجداد قراءته، ويخشون ألَّا يقرأوه في الآن نفسه. ليست هناك معلومات جديدة حقًّا، لكن الفِكرة كانت أن نعرض لمحةً عن خمس عائلاتٍ فقد كلٌّ منها طِفلًا رضيعًا، ونعرض كيف يتعامل الناس مع موقفٍ كهذا، وكيف يُواصِلون حياتهم بَعده. يُمكننا أن نَنثُر هنا وهناك الحقائق الثابتة عن الموت في المَهد، ويُمكننا أن نُبرِز ما يتمتَّع به كلٌّ من هؤلاء الناس من قوَّة وحُنُوٍّ يكتشفهما في نفسه. إنها وجهة النظر التي نعرض الموضوع منها. نُطلِق على هذا اسم الأخبار الناعمة، لأنها غير مرتبطةٍ بحدثٍ بعينه، وسنعرض الموضوع في صدارة قِسم التحقيقات الاجتماعيَّة.

بالنِّسبة للجانب الفنِّي، يُمكننا أن نَعرِض صُورًا لأطفالٍ مبتسمين في كامل صحَّتهم، هُم موتى الآن.

يُمكننا أن نعرض أن من الوارد أن يَحدُث هذا لأيٍّ أحد.

كان هذا هو اقتراح دنكان المُحرِّر. إنه ذلك النوع من التحقيقات

التي تُجرَى سعيًا وراء الجوائز. كنا في فترة أواخر الصيف التي تتباطأ فيها الأخبار، وكان هذا هو وقت الذُّروة من العام الذي تَكثُر فيه حالات الولادة.

وكانت فِكرة دنكان المُحرِّر أن أبقى على مقربةٍ من المُسعِفين.

موضوع الكريسماس، الأبوان الباكيان، الحلية... إنني أعمل منذ فترةٍ طويلة للغاية حتى نسيت كلَّ هذا الهراء.

يُلقون عليك سؤال عِلم الأخلاق الافتراضي في نهاية دراستك الصحافة، لأن في تلك المرحلة يكون أوان فِعل أيِّ شيءٍ آخَر قد فات تمامًا، كما أن عليك ديون كثيرة يجب تسديدها بالفعل. لكن الآن، بعد مرور سنواتٍ وسنواتٍ من مُمارَسة هذه المهنة، أعتقدُ أن السؤال الحقيقي الذي يسألونك إياه هو: أترغب أن يكون هذا عملك ومصدر رِزقك حقًّا؟

الفصل الثالث

يتسرَّب هدير الكلام المكتوم عبر الجدران، تتبعه جوقة من الضحك، ثم المزيد من الكلام. معظم أصوات الضاحكين التي تسمعها في مسلسلات التليفزيون الآن تم تسجيلها في بداية الخمسينات، ما يعني أن معظم من تسمعهم يضحكون اليوم فارقوا الحياة منذ سنين طويلة في الحقيقة.

يأتي الصوت الصاخب لطبولٍ تَدُقُّ وتَدُقُّ وتَدُقُّ من السَّقف. يتبدَّل الإيقاع، ولربما تحتشد الدقَّات معًا فتتسارَع، أو تتباعَد فتتباطَأ، لكن صوت الطبول لا يتوقَّف أبدًا، ومن الأرضيَّة يتصاعَد صوت أحدهم نابِحًا بكلمات أغنيَّةٍ ما.

هؤلاء المحتاجون إلى أن يظلَّ التليفزيون أو الستريو أو الراديو يعمل طول الوقت بلا توقُّف، هؤلاء الخائفون من الصمت، هؤلاء جيراني.

هؤلاء المُدمِنون للأصوات... هؤلاء المرعوبون من الهدوء...

تأتيني ضحكات الموتى عبر كلِّ جدار.

هذا ما يعدُّونه دِفء البيوت في أيامنا هذه.

حصار الضوضاء...

توقَّفتُ بعد خروجي من العمل في مكانٍ واحد، حيث رفعَ الرجل الواقف وراء ماكينة النقود عينيه عندما دخلتُ المتجر أعرجُ، ومدَّ يده تحت الكاونتر دون أن يُبعِدهما عني، وأخرج شيئًا ملفوفًا بورقٍ بُنِّي قائلًا:

- «غلَّفتها مرَّتين. أظنها ستروقك هذه المرَّة».

ووضع العلبة -التي يبلغ حجمها نِصف حجم علبة الحذاء وتزن أقل من علبة التونة- على الكاونتر وربَّت عليها بيده، ثم إنه ضغط زرًّا، اثنين، ثلاثة، في ماكينة النقود، فقالت الشاشة إن السِّعر 149 دولارًا، وقال هو:

- «لا تقلق. لقد لصقتُ الأكياس بإحكام».

تحسُّبًا لسقوط المطر، وضع الرجل العلبة في كيسٍ بلاستيكي قائلًا:

- «أخبِرني إذا كان هناك شيء مفقود».

ثم أضاف:

- «طريقة مشيك لا توحي بأن حالة قدمك تحسَّنت».

ظلَّت محتويات العلبة تُخَشخِش طيلة طريق عودتي إلى البيت، وانزلق الورق البُنِّي تحت ذراعي وتجعَّد، ومع كلِّ خطوةٍ عرجاء خطوتها أخذ ما في الداخل يرتطم ببعضه بعضًا وهو ينزلق من طرف العلبة إلى طرفها الآخَر.

في شقَّتي يَضُجُّ السَّقف بوقع موسيقى سريعة، وتُدَمدِم الجدران بأصواتٍ مذعورة. إما أن مومياء مصريَّة ملعونة دبَّت فيها الحياة وتُحاوِل أن تَقتُل جيراني في الشقَّة المُجاوِرة، أو أنهم يُشاهِدون فيلمًا.

تحت الأرضيَّة ثمَّة من يزعق، وكلب ينبح، وباب يُصفَق، وكلمات أغنيَّةٍ تتردَّد كأنها نداء دَلَّال في مزادٍ علني.

أطفئ الأضواء في الحمَّام كي لا أرى الموجود في العلبة، بغية إلَّا أعرف الشكل النهائي الذي سوف يتَّخذه. أدسُّ منشفةً تحت عتبة الباب لتَحجُب بصيص الضوء الأخير القادم من الخارِج، ثم أضع العلبة في حِجري وأجلسُ في الظلام الدامس على المرحاض وأصغي.

هذا ما يعدُّونه حضارةً في أيامنا هذه.

من لا يجرؤون أبدًا على إلقاء فضلاتهم من نافذة السيَّارة، لا يجدون غضاضةً في الانطلاق بها وصوت الراديو يُدَوِّي. من يمتنعون تمامًا عن نفخ دخان السجائر في وجهك في مطعمٍ مزدحم، يجأرون بكلِّ بساطةٍ في هواتفهم المحمولة، يرفعون أصواتهم ويَصرُخون في أوجه بعضهم بعضًا من على مسافةٍ لا تتعدَّى مساحة الأطباق التي تفصل بينهم.

الذين لا يستخدمون مبيدات الحشرات أو مبيدات الأعشاب الضارَّة أبدًا، ليست لديهم مشكلة في غَمْر الحيِّ كله بأصوات موسيقى القِرَب السكوتلنديَّة الآتية من سمَّاعات الستريو، والأوپرا الصينية، وأغاني الكَنتري والوستِرن.

في الخارج لا بأس بنغماتٍ يُرَدِّدها عصفور، أما پاتسي كلاين فلا.

في الخارج يكفي ضجيج المرور، أما إضافة كونشرتو پيانو شوپان فلا تزيد الأمور إلَّا سوءًا.

ترفع صوت الموسيقى عندك ليطغى على الضوضاء، فيرفع آخَرون صوت الموسيقى عندهم ليطغى على موسيقاك. يشتري الجميع جهاز

ستريو أكبر. إنه سباق التسلُّح الخاص بعالَم الأصوات، السباق الذي لا يُمكنك الفوز فيه بطبقة الصوت السوپرانو.

هي ليست مسألة جودة، بل صخب.

وكلُّ هذا لا علاقة له بالموسيقى، بل بمن سيفوز.

تُقاوِم منافسيك بجهارة الصوت، تَرُجُّ النوافذ رجًّا، تخفض الألحان وتَصرُخ بالكلمات، تضيف إليها عبارات بذيئة وترفع صوتك أكثر فأكثر مع كلِّ سبَّة.

تُسيطر، فما هي إلَّا مسألة سيطرة.

جالسًا في الحمَّام المظلم على المرحاض، أفتحُ الشريط اللاصق بأظفاري من طرف الغلاف، والذي في الداخل عبارة عن علبة مربَّعة من الورق المقوَّى، ملساء ناعمة باستثناء الحواف الخشنة، وقد فقد كلُّ ركنٍ حدَّته واهترأ. ترفع غطاء العلبة وتتحسَّس محتوياتها فتجدها أشكالًا صلبة حادَّة معقَّدة، زوايا دقيقة ومنحنيات وأركان ورؤوس مدبَّبة. أضعُ كلَّ هذه الأشياء في رُكنٍ على أرضيَّة الحمَّام في الظلام، وأضعُ علبة الورق المقوَّى داخل الأكياس الورقيَّة، وأضيفُ إليها فرخين من الورق الزَّلِق كانا موضوعين بين الأشكال المتشابِكة، ثم أعتصرُ الأكياس والعلبة وألفُّها وألويها حتى تتحوَّل إلى كرة.

كلُّ هذا أفعله في الظلام، متحسِّسًا الورق الأملس، شاعرًا بطبقات الأشكال الصُّلبة المتشعِّبة.

تهتزُّ الأرض تحت حذائي، بل ومقعد المرحاض ذاته، من الموسيقى القادمة من الشقَّة المجاورة.

تجد في نفسك رغبةً في أن تقول لكلِّ عائلةٍ عانت من الموت في المَهد أن تجد لنفسها هوايةً ما. ستندهش من السرعة التي يُمكنك بها إغلاق الباب على الماضي، فمهما ساءت الأمور لا يزال بإمكانك أن تبتعد، أن تتعلَّم التطريز، أن تصنع مصباحًا من الزجاج المصبوغ.

أحملُ الأشكال إلى المطبخ، وفي الضوء أرى أن لها ألوانًا زرقاء وبيضاء ورماديَّة. إنها قِطع دقيقة من البلاستيك الصُّلب القابل للكَسر، ألواح ومصاريع وزوايا شديدة الصِّغر، سلالم وأعمدة وإطارات نوافذ. لا تعرف إن كان منزلًا أم مستشفى. ثمَّة جدران صغيرة من القرميد وأبواب، وعندما تفردها على طاولة المطبخ لا يُمكنك أن تُمَيِّز كونها أجزاء من مدرسةٍ أو كنيسة. دون رؤية الصورة على العلبة، ودون الاطِّلاع على كتيِّب التعليمات، فمن الممكن أن تنتمي هذه المزاريب والنوافذ المائلة المُنَمْنَمَة إلى محطَّة قطار أو مصحَّةٍ للأمراض العقليَّة، أو إلى مصنعٍ أو سجن.

مهما جمَّعت هذه الأشكال معًا، فلا يُمكنك أن تثق أبدًا بدِقَّة النتيجة.

ترتعش القِطع الصغيرة، القباب والمداخن، مع كلِّ نبضةٍ صاخبة تأتي من الطابق السُّفلي.

هؤلاء المدمنون للموسيقى... هؤلاء المرعوبون من السُّكون...

لا أحد يريد الاعتراف بأننا نُدمِن الموسيقى، مستحيل تمامًا. لا أحد منا يُدمِن الموسيقى أو التليفزيون أو الراديو، لكننا -فقط- نرغب في المزيد من هذه الأشياء، قنوات أكثر، شاشة أكبر، صوت أعلى. لا يُمكننا أن نطيق الحياة دون كلِّ هذا، لكن لا، نحن لا نُدمِنه على الإطلاق.

يُمكننا إسكات الأصوات متى شِئنا.

أُثبِّتُ إطار نافذةٍ في جدارٍ من القرميد، وألصقه بواسطة فرشاةٍ صغيرة تُستَخدَم لطلاء الأظفار. حجم النافذة لا يتجاوز حجم أظفور إصبعك الصغير، ورائحة الصمغ تُذَكِّرني بسبراي الشَّعر، ومذاق الرائحة على لساني هو مذاق البرتقال والجازولين.

نقْش قِطع القرميد على الجِدار برقَّة بصمة الإصبع.

أضعُ نافذةً أخرى في مكانها، وأضيفُ المزيد من الصمغ بالفرشاة.

يأتي الصوت مرتجفًا عبر جدران الشقَّة، عبر طاولة المطبخ، عبر إطار النافذة الدقيقة، فأشعرُ بذبذباته على أطراف أصابعي.

هؤلاء المُدمِنون للتشويش... هؤلاء المرعوبون من التركيز...

لقد أساء چورچ أورويل العجوز التأويل.

الأخ الأكبر[1] لا يُراقِبنا. إنه يَرقُص ويُغَنِّي. إنه يُخرِج الأرانب من قُبَّعته.

الأخ الأكبر مشغول بجذب انتباهك في كلِّ لحظةٍ تبقى مستيقظًا، يعمل على أن تكون ملهيًّا على الدوام، يتأكَّد من انهماكك التام.

إن هدفه أن يَذبُل خيالك إلى أن يصير كزائدتك الدوديَّة. إنه يسعى إلى شَغلك طيلة الوقت.

---

(1) في رواية «1984» لچورچ أورويل، الأخ الأكبر هو الزعيم الغامض لدولة شموليَّة يملك فيها الحزب الحاكم سُلطة مُطلَقة على حياة المواطنين بزعم أن هذا في صالحهم، وهو ما يتم تذكيرهم به باستمرار بعبارة «الأخ الأكبر يُراقِبك». دخل مصطلح الأخ الأكبر القاموس منذ نشر الرواية باعتباره مُرادِفًا لاستغلال الحكومات لسُلطاتها وتعدِّيها على حُرِّيَّات الشعوب.

فإذا ظلَّ اهتمامك منصرفًا إلى ما يرغبه الأخ الأكبر، فإن هذا أسوأ من أن يُراقِبك. عندما يستغرقك العالم تمامًا، فلا أحد سيقلق مما يعتمل في عقلك. مع ضمور الخيال لدى الجميع، فلن يُمَثِّل أحدنا تهديدًا للعالَم.

أفتحُ بإصبعي زِرًّا من أزرار قميصي الأبيض، وأدسُّ ربطة عُنقي في الداخِل. أُثبِّتُ عُقدة ربطة العُنق بذقني، وأستخدمُ مِلقطًا صغيرًا لتثبيت لوحِ دقيق من الزجاج في كلِّ نافذة، ثم أستخدمُ الموسى لقصِّ ستائر أصغر حجمًا من طوابع البريد: ستائر زرقاء للطابق العُلوي، وصفراء للطابق السُّفلي، ثم أضيفُ إليها الصمغ تاركًا بعضها مفتوحًا وأغلقُ البعض الآخَر.

ثمَّة أشياء أسوأ من العثور على زوجتك وطفلتك ميتتيْن.

من الممكن أن تُشاهِد العالَم يَقتُلهما. من الممكن أن تُشاهِد زوجتك والعُمر يتقدَّم بها والملل يلتهمها. من الممكن أن تُشاهِد أطفالك يكتشفون كلَّ شيءٍ حاولت حمايتهم منه في هذه الدنيا؛ المخدِّرات، والطلاق، والذُّل، والأمراض. كلُّ هذه الكُتب الظريفة النظيفة والتليفزيون والراديو، كلها عوامل لصرف انتباهك عن الحياة.

تلك العائلات التي فقدت أطفالها، إنك تريد أن تقول لها أن هَلُمُّوا، لوموا أنفسكم.

ثمَّة أشياء يُمكنك أن تفعلها بمن تحبُّهم أسوأ من قتلهم. الطريقة المعتادة هي أن تُشاهِد العالَم وهو يفعلها. اقرأ الصُّحف فقط وستعرف.

الموسيقى والضحكات تلتهم أفكارك وخواطرك، الضوضاء تمحوها، الأصوات كلها تُلهيك، يوجعك رأسك من رائحة الصمغ.

لم يَعُد هناك من يملك عقله. لا تستطيع التركيز، لا تقوى على

التفكير، فدائمًا هناك ضوضاء تتسرَّب إليك؛ مطربون يَصرُخون، أموات يضحكون، مُمثِّلون يبكون... كلُّ هذه الجرعات الصغيرة من المشاعر.

هناك دائمًا من يرشُّ الهواء بمزاجه.

هناك دائمًا من يبثُّ ستريو سيَّارته حزنه أو فرحته أو غضبته على الحيِّ كله.

كنتُ أجمِّع ذات مرَّةٍ قصرًا من الطِّراز الكولونيالي الهولندي، وكنتُ قد ركَّبت ستًّا وخمسين نافذةٍ بالمقلوب، فاضطررتُ للتخلُّص منه بأكمله. وفي مرَّةٍ أخرى قمتُ بتجميع قلعة تيودوريَّة، وألصقتُ مزاريب المياه على الطرف الخطأ من الجزء الأعلى من مثلَّث الزوايا، فأذبتُ التكوين كله عندما حاولتُ إصلاحه بواسطة محلولٍ كيميائي.

ليس هناك شيء جديد في هذا.

يقول خبراء الحضارة الإغريقيَّة القديمة إن الناس في تلك العصور لم يعتبروا أن أفكارهم تأتي منهم، بل عندما كانت فِكرة ما تَخطُر لواحدٍ من الإغريق، فإنه كان يتصوَّرها أمرًا يأتيه من أحد أرباب أو ربَّات الأوليمپ. يقول أپولو لهذا الإغريقي أو ذاك أن يكون شُجاعًا، وتقول له أثينا أن يقع في الحب.

والآن يسمع الناس إعلانًا عن شرائح البطاطس بالكِريمة الحامضة، فيهرعون لشرائها، مع الفارق أنهم يُطلِقون على هذا اسم الإرادة الحُرَّة الآن.

على الأقل كان الإغريق القدامى صادقين مع أنفسهم.

الحقيقة أنه حتى إذا قرأت أغنية مَهدٍ على زوجتك وطفلتك ذات ليلة، ثم تستيقظ في الصباح التالي ولا تستيقظان، حتى عندما تستلقي في

الفراش محتضنًا زوجتك التي لا تزال دافئةً لكن لا تتنفَّس وقد توقَّفت ابنتك عن البكاء، حتى إذا ملأت البيت أصوات صخب المرور وبرامج الراديو والبخار الذي يرجُّ المواسير داخل الجدران—الحقيقة أن حتى ذلك اليوم يُمكنك أن تنساه طول اللحظة التي تستغرقها لعَقد ربطة عُنقك عُقدةً مثاليَّة.

هذا أعرفه، وهذه هي حياتي...

قد تنتقل إلى سكنٍ جديد، لكن ذلك لا يكفي. تبدأ في ممارسة هوايةٍ جديدة، تدفن نفسك في العمل، تُغَيِّر اسمك، تُرَقِّع الأشياء معًا، تصنع من الفوضى نظامًا. تفعل هذا في كلِّ مرَّةٍ تُشفى فيها قدمك بما يكفي وتملك مالًا كفايةً. تُرتِّب كلَّ تفصيلة.

لن ينصحك المعالِج النَّفسي بهذا، لكنها وسيلة تَصلُح.

تُلصِق الأبواب بالجدران، ثم تلصق الجدران بالقاعدة، وتُجَمِّع بالمِلقط الأجزاء الدقيقة لكلِّ مدخنة، وتَترُك الصمغ يجفُّ ريثما تقوم بتجميع أجزاء السَّطح، وتُعَلِّق المزاريب الصغيرة. كلُّ تفصيلةٍ في مكانها السليم. تُثَبِّت النوافذ المائلة، تُعَلِّق المصاريع وإطار الشُّرفة، تَنثُر البذور في الحديقة، تزرع الأشجار.

استنشِق مذاق البرتقال والجازولين ورائحة سبراي الشعر، افقد نفسك في كلِّ تفصيلة، الصق خيطًا من اللَّبلاب على جانب المدخنة. أصابعك محاطة بشبكةٍ من خيوط الصمغ الجافَّة، وأطراف الأصابع اكتست بقشرةٍ تجعلها تلتصق ببعضها بعضًا.

تقول لنفسك إن الضوضاء هي ما يُعَرِّف الصمت، فدونها لن يكون

الصمت من ذهب. الضوضاء هي الاستثناء. فَكِّر في أجواز الفضاء الخارجي، في البرد والصَّمت السَّرْمَدِيَّيْن حيث تنتظرك زوجتك وابنتك. الصَّمت -وليس الجنَّة- يكفيني كمكافأة.

تستخدم المِلقط لزرْع الزهور بطول القاعدة.

ظهرك وعُنقك مقوَّسان إلى الأمام على الطاولة، ومؤخِّرتك مشدودة وعمودك الفقري محدَّب، فتَشعُر بالصداع يزحف إلى قاعدة جمجمتك.

تُلصِق البساط الصغير الذي يقول «أهلًا» عند الباب الأمامي، تُعَلِّق المصابيح الصغيرة في الداخِل، تُثبِّت صندوق البريد في الخارِج، وزجاجات الحليب متناهية الصِّغر على الشُّرفة الأماميَّة، ثم الجريدة المطويَّة بالغة الضآلة.

الآن وقد أصبح كلُّ شيءٍ مثاليًّا مضبوطًا وفي مكانه، فلا بُدَّ أن الساعة بلغت الثالثة أو الرابعة صباحًا، لأن الهدوء سائد الآن. الأرضيَّة والسقف والجدران ثابتة. تَصمُت الثلاجة، ويُمكنك أن تسمع أزيز الشُّعيرات داخل كلِّ مصباح. يُمكنك أن تسمع تكَّات ساعتي، وتسمع صوت فراشةٍ ترتطم بنافذة المطبخ المغلقة. يُمكنك أن ترى أنفاسك، فالمكان بارد إلى هذه الدرجة فعلًا.

تضع البطَّاريات في مكانها وتضغط زرًّا، فتضيء النوافذ الصغيرة. تضع المنزل على الأرض وتُطفئ أنوار المطبخ.

قِف أمام المنزل في الظلام. من هذه المسافة يبدو مثاليًّا تمامًا، مثاليًّا وآمنًا وسعيدًا. بيت جميل من القرميد الأحمر تُلقي نوافذه الدقيقة ضوءها على حديقته وأشجارها. تتوهَّج الستائر صفراء في غرفة صغيرتك وزرقاء في غرفتك.

الحيلة التي يجب أن تُمارِسها لنسيان الصورة الكبيرة أن تَنظُر إلى كلِّ شيءٍ من أقرب زاويةٍ ممكنة.

الطريق المختَصَرة لإغلاق بابٍ ما أن تدفن نفسك في التفاصيل.

هكذا نبدو -لا شَكَّ- من منظورٍ إلهي...

كأن كلَّ شيءٍ على خير ما يُرام...

والآن اخلع فردة حذائك، وبقدمك العارية ادهس... ادهس ولا تتوقَّف... لا يهمُّ كم يُؤلمك هذا، لا يهمُّ البلاستيك والخشب والزجاج المكسور... ادهس واسحق بكلِّ ما لديك من عُنفٍ إلى أن تسمع جارك في الشقَّة التي أسفلك يدقُّ سقفه غاضبًا.

الفصل الرابع

كان تكليفي الثاني بالتحقيق في حالات الموت في المَهد يقع في مشروعٍ إسكاني على أطراف وسط البلد، وقد غادرَت الرَّضيع روحه وهو في كرسيِّه العالي في منتصف الظهيرة. كانت جليسة الأطفال تبكي في غُرفة النوم، والكرسي العالي في المطبخ، والأطباق المتَّسخة مكوَّمة في الحوض.

في صالة الأخبار المحلِّيَّة يسألني مُحرِّري دنكان عن الحوض:

- «هل كان مفردًا أم مزدوجًا؟».

من التفاصيل الأخرى الخاصَّة بدنكان أن البُصاق يتطاير من فمه عندما يتكلَّم.

أقولُ له إنه مزدوج، ومصنوع من الصُّلب غير القابل للصدأ، ذو مقبضين منفصلين للماء البارد والساخن، والصنبور من النوعيَّة الشبيهة بالمسدَّس ومزوَّد بمقبضٍ من اليورسلين. لا توجد فوَّهة تُطلِق رذاذ الماء.

فيسألني وقطرات لعابه تلمع تحت أضواء الصالة:

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- «وموديل الثلاجة؟».

فأقولُ له إنه أمانا.

- «وهل لديهم تقويم؟».

تحطُّ قطرات صغيرة من البُصاق البارد -بفِعل مكيِّف الهواء- على يدي وذراعي وجانب وجهي.

التقويم عليه رسم لطاحونةٍ من التي تعمل بالماء كالسواقي، أرسلَته إليهم شركة تأمينٍ ما، وكُتِبَ عليه موعد زيارة الرَّضيع التالية لطبيب الأطفال، بالإضافة إلى موعد امتحان تطوير التعليم العام الذي تنتظره الأم. هذه التواريخ والمواعيد مسجَّلة كلها مع اسم الطبيب في مفكِّرتي.

ويقول دنكان:

- «تبًّا! أنت بارع حقًّا!».

يجفُّ بصاقه على بشرتي وشفتيَّ.

أرضيَّة المطبخ كانت مغطَّاة بمشمَّعٍ رمادي، وسطح الطاولة له لون وردي فيه حروق سجائر سوداء عند الحافة. على الطاولة الصغيرة المجاورة للحوض كان هناك كتاب مستعار من مكتبةٍ عامَّة اسمه «قصائد وأغانٍ من حول العالم».

كان الكتاب مغلقًا، وحينما وضعته على كعبه ثم تركته يسقط مفتوحًا من تلقاء ذاته -آملًا أن يُبيِّن هذا الصفحة التي بلغَها القارئ- وجدتها الصفحة 27، فوضعتُ علامةً بالقلم الرصاص على الهامش.

يُغلِق المُحرِّر عينًا واحدة ويحني رأسه نحوي متسائلًا:

- «أيُّ نوعٍ من بقايا الطعام كان في الأطباق في الحوض؟».

سپاجتي، مطهيَّة بصلصةٍ معلَّبة من النوع الذي يحوي الكثير من الفِطر والثوم. لقد فحصتُ القمامة في الكيس الموضوع تحت الحوض.

مئتا ملليجرام من الملح لكلِّ حِصَّة، مئة وخمسون سُعرًا حراريًّا من الدهون. لا أدري ما الذي أتوقَّعُ أن أجده، لكن -كجميع الموجودين في مسرح الحادث- من المفيد أن يبحث المرء عن نمطٍ معيَّن.

يقول دنكان مناولًا إياي ورقة مصحَّحة من قسم المطاعم في عدد اليوم من الجريدة:

- «هل رأيت هذا؟».

ثمَّة إعلان يحتلُّ ثلاثة أعمدة مساحته سِت بوصات، يقول عنوانه الرئيس: «**الرجاء الانتباه... لمُرتادي مطعم تريلاين**»، ويقول متنه: «هل أصبتم بنوعٍ مقاوِم للعلاج من متلازمة التعب المزمن بعد تناوُل الطعام في هذا المطعم؟ هل جعلكم هذا الڤيروس عاجزين عن العمل وممارسة حياتكم الطبيعية؟ إذا حدث هذا، فيُرجى الاتصال بهذا الرقم للمشاركة في دعوى جماعيَّة».

ثم هناك رقم هاتف ذو مفتاحٍ غريب، لعلَّه هاتف محمول.

يقول دنكان وقد تناثرَ لعابه على الورقة:

- «أتحسب أن هناك موضوعًا شائقًا هنا؟».

في صالة الأخبار المحليَّة يبدأ جهاز الاستدعاء في الصفير. إنهم المُسعِفون.

يريدونك في كلِّيَّة الصحافة أن تكون بمثابة كاميرا. يريدونك أن

تكون محترِفًا، موضوعيًّا، مدرَّبًا، منفصلًا عن الوقائع، أن تكون دقيقًا مهذَّبًا حادَّ الملاحَظة.

يريدونك أن تؤمن دائمًا بأنك والخبر شيئان منفصلان تمامًا. القاتل ومن يُغَطِّي أخباره كيانان لا علاقة لأحدهما بالآخَر، لا يُمكن الجمع بينهما. أيًّا كان موضوع التحقيق، فهو ليس أنت.

كان الرَّضيع الثالث في بيت مزرعة على بُعد ساعتين في أقصى الولاية.

والرابع كان في شقَّة بالقرب من مركزٍ تجاري.

يقودني واحد من المُسعِفين إلى غُرفةٍ خلفيَّة قائلًا:

- «آسف لأننا اتَّصلنا بك».

اسمه چون ناش، ويرفع الملاءة عن ولدٍ صغير في فِراشه، ولدٍ صغير يبدو أكثر مثاليَّةً وسلامًا وبياضًا من أن يكون نائمًا فحسب.

يقول ناش:

- «كان في السادسة من عُمره تقريبًا».

التفاصيل الخاصَّة بناش أنه كبير الحجم، يرتدي يونيفورم أبيض وحذاءً رياضيًّا طويل العُنق، ويجمع شَعره في منتصف رأسه على طريقة شجرة النَّخيل.

يقول ناش:

- «يَجدُر بنا أن نعمل في هوليوود».

مع هذا النوع من الموت النظيف الخالي من الدِّماء ليست هناك آلام

احتضار أو موجات متعاقِبة من التقلُّص اللا إرادي في جدار المعدة، تلك التي يُطلقون عليها اسم التَّمَعُّجِيَّة، وقد تَحدُث أثناء الاحتضار فتجعل جهازك الهضمي يعمل بالعكس، ليَخرُج البراز من فمك.

يقول ناش:

- «عندما تبدأ في تقيُّؤ الخراء، يُصبِح مسرح الوفاة حقيقيًّا تمامًا».

ما يسرده عليَّ عن الموت في المَهد يتضمَّن أنه يقع غالبًا بين شهرين وأربعة شهور بعد الولادة، ويقع أكثر من تسعين في المئة من الحالات قبل الشهر السادس. يقول معظم الأبحاث إن الموت في المَهد شِبه مستحيل بعد أن يَبلُغ الرَّضيع الشهر العاشر من عُمره، وإذا كان عُمر الرَّضيع أكثر من عام، يُدوِّن الفاحص الطِّبِّي سبب الوفاة على أنه غير محدَّد. إذا وقعَت وفاة مشابِهة في العائلة نفسها مرَّة أخرى، يتم اعتبارها جريمة قتل إلى أن يَثبُت العكس.

الجدران مطليَّة بالأخضر في الشقَّة، والفِراش عليه ملاءات من الصوف الناعم، طُبِعَت عليها أشكال لكلاب السكوتش تِريَر. الرائحة الوحيدة التي تشمُّها رائحة حوض أسماك مليء بالسحالي.

عندما يضغط أحدهم وسادةً على وجه الطفل، يُطلِق الفاحص الطِّبِّي على الحالة صفة جريمة القتل الرقيقة.

الرَّضيع الميت الخامس كان في غُرفة فندق بالقُرب من المطار.

في بيتيِّ المزرعة والشقَّة كان كتاب «قصائد وأغانٍ من حول العالم» مفتوحًا على الصفحة 27، وهو نفسه الكتاب المستعار من مكتبة المقاطَعة الذي وضعتُ فيه علامةً بالقلم الرصاص. لم يكن الكتاب موجودًا في

غُرفة الفندق. إنها غُرفة مزدوجة تكوَّر فيها الرَّضيع في سريره الصغير إلى جوار السرير الذي نام فيه الأبوان. ثمَّة تليفزيون ملوَّن في خزانةٍ كبيرة، 36 بوصة، طراز زينيت، يعرض ستًّا وخمسين قناة كابل وأربع قنواتٍ محليَّة. السجَّادة بُنيَّة والستائر بُنيَّة ذات تشكيلاتٍ زهريَّة زرقاء. على أرضيَّة الحمام هناك منشفة مبتلَّة عليها بُقع من الدَّم وجِل الحلاقة الأخضر. السيفون غير مشدود.

ملاءات الفراش لونها أزرق داكن وتحمل رائحة دخان السجائر.

ولا أثر للكتاب...

أسألُ إن كان الأبوان قد نقلا شيئًا من المكان، فيُجيبني الضابط الموجود بالنَّفي، لكن بعد قليلٍ يأتي موظَّف من مكتب الخدمات الاجتماعيَّة ليجمع بعض الملابس، ويقول:

- «أوه، وهناك بعض الكُتب التي فات موعد إرجاعها إلى المكتبة».

الفصل الخامس

يُفتَح الباب الأمامي، وفي الداخل ثمَّة امرأة تضع هاتفها المحمول على أُذنها، تبتسم لي وتُخاطِب شخصًا آخَر على الهاتف:

- «مونا، هلَّا أسرعتِ؟ لقد وصل المستر ستريتور».

وتُريني ظَهر يدها الحُرَّة ذات الساعة الصغيرة اللامعة حول معصمها، وتضيف:

- «جاء مبكِّرًا بضع دقائق».

يدها الأخرى وأظفارها الورديَّة الطويلة المحدَّدة بالأبيض عند الأطراف وهاتفها المحمول الأسود... تكاد هذه التفاصيل تغيب في سحابة شَعرها الوردي البرَّاقة.

تقول مبتسمةً:

- «استرخي يا مونا».

وتتفحَّصني عيناها من رأسي حتى قدميَّ قائلةً:

- «معطفًا رياضيًّا بُنيًّا وسروالًا بُنيًّا واسعًا وقميصًا أبيض».

ثم تعقد حاجبيها وتستطرد باستغراب:

- «وربطة عُنق زرقاء».

تقول ذات الشعر الوردي على الهاتف:

- «في منتصَف العُمر، خمسة أقدام وست بوصات تقريبًا، نحو مئة وسبعون رطلًا، قوقازي، شَعر بُنِّي وعينان خضراوان».

وتغمز لي مضيفةً:

- «شَعره منفوش بعض الشيء ولم يحلق ذقنه اليوم، لكنه يبدو مسالمًا بما فيه الكفاية».

وتميل إلى الأمام محرِّكةً شفتيها بكلمة «سكرتيرتي».

وعلى الهاتف تتساءل:

- «ماذا؟».

وتتنحَّى جانبًا مشيرةً إليَّ بالدخول بيدها الحُرَّة، وتدور عيناها حتى تلتقيان بعينيَّ، وتقول:

- «شكرًا على اهتمامك يا مونا، لكني لا أحسب أن مستر ستريتور هنا ليغتصبني».

نحن الآن في حي ووكر ريدچ درايف، في منزل جارتولر المشيَّد على الطراز الچورچي، ويضم ثمان غُرف نوم وسبعة حمَّامات وأربع مدافئ وغُرفة للإفطار وغُرفة طعام رسميَّة التصميم، بالإضافة إلى قاعة حفلات في الطابق الرابع مساحتها 1500 قدم مربَّع. يضمُّ المنزل أيضًا مرآبًا منفصلًا يتَّسع لستِّ سيَّارات وشقَّة للضيوف، مع حوض سباحة ونظامٍ للإنذار ضد الحرائق واللصوص.

ووكر ريدج درايف من تلك الأحياء التي يجمعون فيها القمامة خمس مرَّاتٍ في الأسبوع، وحيث تقطن نوعيَّة الناس الذين يُقَدِّرون تهديدات التقاضي حقَّ قدرها، وعندما تمرُّ بهم لتُقدِّم نفسك تجدهم يبتسمون ويهزُّون رؤوسهم بتفهُّم.

ومنزل جارتولر هذا جميل حقًّا.

لن يَطلُب منك الجيران أن تتفضَّل بالدخول، بل سيقفون فقط وراء الباب الأمامي نصف المفتوح، ويقولون لك مبتسمين إنهم لا يعرفون شيئًا حقًّا عن تاريخ منزل جارتولر، إنه منزل وهذا كلُّ شيء، فإذا ألقيت المزيد من الأسئلة، سيَنظُرون وراء كتفك إلى الشارع الخالي ويقولون إنهم لا يستطيعون مساعدتك فعلًا، وإنك يجب أن تتَّصل بمكتب السمسار للحصول على المعلومات التي تَطلُبها.

تقول اللافتة الموضوعة على 3465 ووكر ريدج درايف: «**بويل للعقارات. يُعايَن المنزل بعد تحديد موعد فقط**».

في منزلٍ آخَر فتحت الباب امرأة ترتدي ثياب الخدم، ومعها فتاة صغيرة في الخامسة أو السادسة، ظلَّت تَرمُقني من وراء تنورة الخادمة السوداء، التي هزَّت رأسها نفيًا وقالت إنها لا تعرف أيَّ شيء.

- «يجب أن تتَّصل بمكتب السمسار، هيلين بويل. الاسم مكتوب على اللافتة».

وقالت الفتاة الصغيرة:

- «إنها ساحرة».

وأغلقَت الخادمة الباب.

والآن، داخل منزل جارتولر، تمشي هيلين هوڤر بويل بين الحُجرات البيضاء الخاوية، فيتردَّد صدى خطوات قدميها وهي تتكلَّم على الهاتف. شَعرها سحابة ورديَّة، بذلتها ورديَّة على مقاسها بالضبط، ساقاها في زوجٍ من الجوارب البيضاء الطويلة، قدماها في حذاءٍ وردي متوسِّط الكعبين، ذراعاها تلمعان وتُصدِران صلصلةً من فرط ما ترتدي فيهما من أساور وسلاسل ذهبيَّة ووردِيَّة وحظَّاظات وعملات معدنيَّة.

حُلي تكفي لتزيين شجرة كريسماس كبيرة، ولآلئ كبيرة بما يكفي لأن يختنق بها حصان.

تقول على الهاتف:

- «هل اتَّصلتِ بساكني منزل إكستر؟ كان من المفترَض أن يهربوا صارخين من المكان منذ أسبوعين كاملين».

وتَعبُر بابًا مزدوجًا طويلًا إلى الغرفة التالية، ثم التالية، قائلةً:

- «آها. ماذا تعنين بأنهم لا يقطنون هناك؟».

تُطِلُّ نوافذ مقنطَرة طويلة على شُرفة حجريَّة تتبدَّى من ورائها حديقة خطَّطتها آثار جزَّازة العشب، ومن وراء هذا ترى حوض السباحة.

على الهاتف تقول، وقد جعلَت الغُرف الخاوية من أيِّ أثاثٍ أو سجَّاد صوتها عاليًا حادًّا:

- «لا أحد يدفع مليوني دولار لشراء منزلٍ ثم لا يقطن فيه».

تتدلَّى حقيبة صغيرة من اللونين الأبيض والوردي من سلسلةٍ ذهبيَّة ملفوفة حول كتفها.

طولها خمسة أقدام وسِت بوصات تقريبًا، وزنها نحو مئة وثمانية

عشر رطلًا، لكن من الصعب تخمين سِنِّها الحقيقيَّة. إنها شديدة النحافة على نحوٍ يجعلها إما ثريَّة أو تحتضر، وبذلتها مصنوعة من نوعٍ ما من قماش الأرائك وتُحَدِّدها جديلة بيضاء عند الحواف. إنها ورديَّة اللون، لكنه ليس اللون الوردي الذي تراه في الجمبري، بل في ڀاتيه الجمبري المقدَّم على قطعةٍ من البسكويت المصنوع من الماء والدقيق، مع عودٍ من البقدونس وقطعةٍ من الكاڤيار على الوجه. السترة مشدودة على خصرها النحيل ومحشوَّة ببطانةٍ مربَّعة عند الكتفين، والتنورة قصيرة ضيِّقة، والأزرار ذهبيَّة ضخمة.

إنها ترتدي ثياب دُمية.

- «كلا، مستر ستريتور هنا».

وترفع حاجبيها المحدَّدين وتَرمُقني مضيفةً:

- «هل أضيِّعُ وقته؟ لا آملُ هذا».

وتقول للهاتف مبتسمةً:

- «عظيم. إنه يهزُّ رأسه نفيًا».

أتساءلُ في قرارة نفسي عن الذي رأته فيَّ وجعلها تقول إنني في منتصَف العُمر.

أقولُ إنني لستُ أسعى إلى شراء منزل.

تضع ظُفرين ورديَّين على الهاتف المحمول، وتميل إلى الأمام هامسةً:

- «دقيقة واحدة فقط».

أقولُ إنني حصلتُ على اسمها من سجلّات مكتب الطبيب الشرعي. الحقيقة أني اطّلعتُ على ملفّات جميع حالات الموت في المَهد طيلة الخمسة وعشرين عامًا الماضية.

تُصغي إلى ما تقوله سكرتيرتها على الهاتف، ودون أن تَنظُر إليَّ تمدُّ أظفار يدها الحُرَّة الورديَّة وتضعها على طيَّة صدر معطفي، وتَترُكها هناك دافعةً إياي إلى الخلف بعض الشيء، وتقول للهاتف:

- «ما المشكلة إذن؟ لماذا لا يَقطُنون هناك؟».

أخمِّنُ من شكل يدها على هذه المقربة أنها بالتأكيد في أواخر الثلاثينات أو أوائل الأربعينات من العُمر، ومع ذلك لا يزال مظهر المحنَّطين -الذين يعدُّونه جمالًا بعد سِنٍّ معيَّنة وفي وجود دَخلٍ معيَّن- يجعلها تبدو أكبر سِنًّا من اللازم. بشرتها نظيفة ومقشَّرة ومنتوفة الشَّعر ومرطَّبة ومُمكيَجة إلى حدٍّ يجعلها تبدو كقطعةٍ لامعةٍ من الأثاث، قطعة منجَّدة مزوَّدة بجميع الكماليَّات بعد أن تمَّ ترميمها وتجديدها.

تصيح على الهاتف:

- «لا بُدَّ أنكِ تمزحين! نعم، أعرف معنى الهدم بالطبع! إنه منزل تاريخي!».

ترتفع كتفاها إلى أعلى حول جانبي عُنقها بتوتُّر، ثم ترتخيان. تدير رأسها بعيدًا عن الهاتف، وتتنهَّد وقد أغلقت عينيها. تُصغي وهي واقفة هناك وقد لاح انعكاس حذائها الوردي وجوربها الأبيض الطويل على الأرضيَّة الخشبيَّة الداكنة. في عُمق الخشب يُمكنك أن ترى الظلال داخل تنُّورتها.

تضمُّ يدها الحُرَّة على جبهتها وتقول:

- «مونا، لا يُمكننا أن نخسر هذا المنزل. إذا استبدَلوه، فهناك فرصة لا بأس بها لأن يُرفَع من السوق نهائيًّا».

ثم تَصمُت من جديد وتُصغي.

وأتساءلُ في قرارة نفسي: منذ متى لا يُمكن ارتداء ربطة عُنق زرقاء مع معطفٍ بُنِّي؟

أحني رأسي لتلتقي عيناي بعينيها، وأقولُ:

- «مسز بويل».

لقد أردتُ أن أراها في مكانٍ خاص خارِج مكتبها بشأن تحقيقٍ أُجريه.

لكنها تلوِّح بأصابعها في الهواء بيننا، ثم تعمد إلى مدفأةٍ وتستند إليها واضعةً يدها الحُرَّة على الرَّف، وتهمس:

- «عندما ترتطم كرة الهدم بذلك المنزل، ستجدين الجيران يتفرَّجون مُهلِّلين».

يُفتَح باب واسع من هذه الغُرفة على غُرفةٍ بيضاء أخرى ذات أرضيَّةِ خشب وسقفٍ ذي نقوشٍ معقَّدة مطلي بالأبيض. في الاتجاه الآخَر يُفتَح الباب على غُرفةٍ ارتصَّت فيها أرفف الكُتب الخالية.

- «ربما يُمكننا أن نبدأ احتجاجًا عامًّا. يُمكننا أن نكتب بعض الخطابات إلى الجرائد».

عِطرها له رائحة كراسي السيَّارات الجِلديَّة والورد القديم الذابل وخشب الأَرز.

وتقول هيلين هوفر بويل:

- «مونا، انتظري».

وتعود إليَّ قائلةً:

- «ماذا كنت تقول يا مستر ستريتور؟».

عيناها زرقاوان، وتطرف أهدابها مرَّة، مرَّتين، بسرعةٍ منتظرةً إجابتي.

أقولُ إنني مُراسِل من الجريدة.

فتقول لي وقد وضعَت يدها على الهاتف:

- «منزل إكستر هو منزل تاريخي رائع يريد البعض هدمه، فيه سبع غُرف نوم، ومساحته سِتَّة آلاف قدمٍ مربَّع. الطابق الأرضي كله مغطًّى بألواحٍ من خشب الكرز».

الغُرفة الخالية شديدة الهدوء، تجعلك تسمع صوتًا بعيدًا على الهاتف يُنادي باسم هيلين.

وتُغلِق هيلين عينيها وتُكمِل:

- «بُنِيَ سنة 1935».

وتحني رأسها إلى الخلف مضيفةً:

- «فيه نظام تدفئة بالبخار، مبني على مساحة 2.8 فدَّان، السطح من البلاط، و...».

وعلى الهاتف يقول الصوت البعيد:

- «هيلين؟».

- «... وغُرفة ألعاب، وبار، وچِم منزلي...».

المشكلة أني لا أملكُ الكثير من الوقت. أقولُ إن كلَّ ما أريدُ معرفته

هو إن كان لديها طفل من قبل.

- «... وغُرفة لكبير الخدم، وثلّاجة ضخمة».

أسألها، هل مات ابنها في مَهده منذ عشرين عامًا تقريبًا؟

تطرف أهدابها مرَّة، مرَّتين، وتقول:

- «معذرةً؟».

أريدُ أن أعرف إن كانت تقرأ لابنها، پاتريك. إنني أبغي العثور على جميع النُّسخ الموجودة من كتابٍ معيَّن.

تدسُّ هيلين بويل الهاتف بين أذنها وكتف سترتها المبطَّنة، وتفتح حقيبتها ذات اللونين الوردي والأبيض لتُخرِج زوجًا من القفَّازات البيضاء، ثم تدسُّ يديها فيهما قائلةً:

- «مونا».

أريدُ أن أعرف إن كانت لا تزال تملك نُسخةً من ذلك الكتاب بالتحديد. آسفٌ، لكني لا أستطيع إخبارها بالسبب.

تقول:

- «أخشى أن مستر ستريتور لن يكون ذا فائدةٍ لنا».

أريدُ أن أعرف إن كانوا قد شرَّحوا جُثَّة ابنها.

تبتسم لي، وتُحَرِّك شفتيها بكلمة «اخرُج».

فأرفعُ كلتا يديَّ نحوها، وأبدأُ في التراجُع إلى الخلف.

أريدُ فقط أن أتأكَّد من تدمير جميع نُسخ ذلك الكتاب.

وتقول هيلين بويل:

- «مونا، اطلُبي الشُّرطة».

الفصل السادس

من الإجراءات الثابتة المتَّبعة في حالات الموت في المَهد أن تؤكِّد للأبوين أنهما لم يرتكبا أيَّ خطأ، فالرُّضَّع لا يختنقون بأغطيتهم أبدًا. في دراسةٍ نُشِرَت في *Journal of Pediatrics* سنة 1945 تحت عنوان «الاختناق الذَّاتي لدى الأطفال»، أثبت الباحثون أن من غير الممكن أن يختنق الرَّضيع أثناء نومه في فراشه، وحتى إذا كان مصابًا بنوبة بردٍ خفيفة، فليس ثمَّة دليل على ارتباط هذا بالوفاة، كما أنه ليس هناك ما يُثبِت وجود رابِط بين تطعيمات ثُلاثي الدِّفتيريا والسُّعال الدِّيكي والكُزاز والموت المفاجئ. حتى إذا كان الطِّفل عند الطبيب قبلها بساعاتٍ قليلة، فلا يزال من الممكن أن يموت.

ليس من الممكن أن تُطبِق قطَّة على أنفاس الرَّضيع إلى أن تُزهِق روحه.

كلُّ ما نعرفه بالفعل هو أننا لا نعرف شيئًا...

يُريني ناش المُسعِف الكدمات ذات اللونين: الأرجواني والأحمر -المعروفة باسم الزُّرقة الرُّمِّيَّة- في جُثَّة كلِّ طِفل، حيث يستقرُّ

الهيموجلوبين المُشبَّع بالأوكسچين في الجزء الأدنى من الجِسم. الرغوة الدامية المُتسرِّبة من الأنف والفم هي ما يُطلِق عليه الفاحص الطِّبِّي اسم سوائل التطهير، وهي جزء طبيعي من عمليَّة التحلُّل. الساعون بيأسٍ وراء أيِّ إجابةٍ ينظرون إلى الزُّرقة الرُّمِّيَّة أو سوائل التطهير، أو حتى الطَّفح الجِلدي الذي تتسبَّب فيه الحفَّاضات، ويفترضون وجود اعتداءٍ بدني على الطِّفل.

الحيلة التي يجب أن تُمارِسها لنسيان الصورة الكبيرة، أن تنظر إلى كلِّ شيءٍ من أقرب زاويةٍ ممكنة.

الطريق المختصَرة لإغلاق بابٍ ما أن تدفن نفسك في التفاصيل، في الحقائق. أفضل ما في العمل كمُراسِلٍ صحافي أنك تستطيع الاختباء وراء مفكِّرتك. كلُّ شيءٍ عبارة عن بحثٍ تُجريه.

في قِسم الأطفال في مكتبة المقاطعة أجدُ الكتاب وقد عاد إلى مكانه على الرفِّ ينتظر. إنه كتاب «قصائد وأغانٍ من حول العالم»، وفي صفحة 27 ثمَّة قصيدة، قصيدة إفريقيَّة تقليديَّة كما يصفها الكتاب، تبلغ ثمانية أبيات طولًا، ولستُ في حاجةٍ لأن أنسخها في مُفكِّرتي، فقد كنتُ قد نسختها بالفعل منذ رأيت الرَّضيع الميت الأول في المقطورة الواقعة في الضواحي. هكذا أمزِّقُ الصفحة، وأضع الكتاب مكانه على الرَّف.

في صالة الأخبار المحلِّيَّة يسألني دنكان:

– «ما أخبار تحقيق الأطفال الموتى؟».

ثم يُناوِلني نُسخة مصحَّحة من صفحة المنوَّعات، ويقول:

– «أريدك أن تتَّصل بهذا الرقم وترى ماذا هناك».

كان الإعلان مُحاطًا بدائرةٍ حمراء، يقع في ثلاثة أعمدة ومساحته سِت بوصات، يقول عنوانه: «**الرجاء الانتباه... لمُرتادي نادي مِدو داونز للياقة ورياضات الرَّاكِت**»، ويقول متنه: «هل أصبتم بعدوى فطريَّة من

التعامُل مع الأجهزة الرياضيَّة أو المراحيض في هذا المكان؟ إذا حدث هذا، فاتَّصلوا بهذا الرقم للمشاركة في دعوى جماعيَّة».

أطلبُ الرقم، فيجيبني صوت رجلٍ يقول:

- «مكتب ديمر ودوك وديلر للمحاماة. نريد اسمك وعنوانك من أجل سجلَّاتنا. هلَّا وصفت الطَّفح الجِلدي الذي تعاني منه؟ الحجم والموضع واللون، والضرر الذي أصاب الأنسجة. حاوِل أن تكون دقيقًا قدر الإمكان».

أقولُ إن هناك خطأ، ليس هناك طَفح جِلدي، ولستُ أتَّصل لأكون جزءًا من دعوى جماعيَّة.

لسببٍ ما تَخطُر هيلين هوڤر بويل ببالي...

عندما أقولُ إنني مُراسِل من الجريدة، يقول الرجل:

- «معذرةً، لكننا لا نستطيع مناقَشة الدعوى قبل رفعها رسميًّا».

أتَّصلُ بالنادي، لكنهم يرفضون الكلام هناك أيضًا. أتَّصلُ بمطعم تريلاين المذكور في الإعلان السابق، لأجد النتيجة نفسها. رقم الهاتف ذو المفتاح الغريب واحد في الإعلانين. أتَّصلُ مرَّةً أخرى، فيجيبني صوت رجلٍ قائلًا:

- «مكتب ديلر ودوم ودوك للمحاماة».

وأغلِقُ الخَط.

يُعلِّمونك في كلِّيَّة الصحافة أن تبدأ بالحقائق الأهم أولًا، ما يُطلِقون عليه اسم الهرم المقلوب. ضَع مَن وماذا وأين ومتى ولماذا في مقدِّمة المقال، ثم اسرد الحقائق الأقل أهميَّة بترتيبٍ تنازُلي، وبهذه الطريقة

يستطيع المُحرِّر أن يحذف أيَّ جزءٍ أطول من اللازم من الموضوع دون فقدان أيِّ معلوماتٍ مهمَّة.

جميع التفاصيل الصغيرة؛ رائحة ملاءة الفِراش، الطعام في الأطباق، لون زينة شجرة الكريسماس... كلُّ هذه التفاصيل لا تجد طريقها إلى الموضوع النهائي عند طباعته.

النمط الوحيد المعروف للموت في المَهد أنه يزداد عندما يصبح الجو باردًا في الخريف، وهذه هي الحقيقة التي يريد مُحرِّري أن أبدأ بها في الجزء الأول من التحقيق. يريد شيئًا يثير ذُعر الناس. خمسة أطفال على خمسة أجزاء، وبهذه الطريقة نضمن أن يقرأ الناس التحقيق خمسة أسابيع متتالية. يُمكننا أن نعد باستكشاف أسباب وأنماط الموت المفاجئ للأطفال، يُمكننا أن نمنح الناس أملًا.

لا يزال البعض يعتقد أن المعرفة قوَّة.

يُمكننا أن نضمن للمُعلِنين نسبة قراءة عالية، والجو صار أكثر برودةً في الخارج بالفعل.

في صالة الأخبار المحلِّيَّة أطلبُ من مُحرِّري أن يُسدي لي خدمةً صغيرة. أقولُ له إنني أعتقدُ أني عثرتُ على نمطٍ معيَّن، إذ يبدو أن آباء جميع هؤلاء الأطفال قد قرأوا عليهم القصيدة نفسها بصوتٍ عالٍ في الليلة السابقة لموتهم، فيسألني:

- «الخمسة جميعهم؟».

أقولُ: دعنا نُجري تجربةً صغيرة.

إنها أواخر المساء، وكلانا متعَب بعد يومٍ طويلٍ من العمل. نحن جالسان في مكتبه، وأقولُ له أن يُصغي.

هي أغنيَّة قديمة عن خلود الحيوانات إلى النوم، فيها الكثير من الشَّجن والعاطفة، وأشعر بوجهي مزرقًا ساخنًا مشبَّعًا بالأوكسچين وأنا أتلو القصيدة بصوتٍ عالٍ تحت المصابيح الفلورسنت، وعلى الجانِب الآخَر من المكتب يجلس مُحرِّري وقد فكَّ ربطة عُنقه وفتح ياقة قميصه، ومال إلى الخلف في مقعده بعينين مغلَقتين. فمه مفتوح بعض الشيء، وأسنانه وكوب قهوته مُلطَّخان باللون البُنِّي نفسه.

الجميل في الأمر أننا وحدنا، وقراءة القصيدة لا تستغرِق أكثر من دقيقة.

في النهاية يفتح عينيه ويقول:

- «ما معنى هذا الكلام الفارِغ؟».

من التفاصيل الخاصَّة بدنكان أن عينيه خضراوان.

يحطُّ لعابه في قطراتٍ صغيرةٍ على ذراعي حاملًا معه الجراثيم والڤيروسات؛ لعاب بُنِّي مصبوغ بالقهوة.

أقولُ إنني لا أعرف. الكتاب يُسَمِّيها أغنيَّة اجتباء. في عددٍ من الثقافات القديمة كانوا يُغنُّونها للأطفال في فترات المجاعة أو الجفاف، أو في أيِّ وقتٍ يصير فيه حجم القبيلة أكبر من الأرض التي تعيش عليها. كانوا يُغَنُّونها للمرضى والمحاربين الذين أحالتهم المعارك إلى معاقين، ولكلِّ من سيموت قريبًا كي يضعوا نهايةً لآلامه. إنها تهويدة.

أما فيما يتعلَّق بالأخلاقيَّات، فقد تعلَّمتُ أنه ليس من عمل الصحافي أن يَحكُم على الحقائق، فعملك ليس فلترة المعلومات، بل أن تجمع التفاصيل، أن تُدوِّن ما هو موجود، وأن تكون شاهِدًا محايدًا. ما أعرفه

الآن أن يومًا سيأتي عليك لن تتردَّد فيه في الاتِّصال بهذين الأبوين المفجوعَين عشية الكريسماس.

يَنظُر دنكان إلى ساعته، ثم إليَّ، ويقول:

- «ما هي التجربة إذن؟».

غدًا سأعرفُ إن كانت هناك علاقة عَرَضِيَّة، إن كان هناك نمط حقيقي.

عملي أن أحكي القصَّة لا أكثر.

وأضعُ الصفحة رقم 27 في مفرمة الورق.

قد تكسر العِصِيُّ والحجارة عظامك، لكن الكلمات لن تجرحك أبدًا.

لا أريدُ أن أشرح شيئًا إلى أن أعرف على وجه التأكيد. ما زال الموقف افتراضيًّا، فأطلبُ من مُحرِّري أن يُجاريني، وأقولُ:

- «كلانا يحتاج إلى القليل من الراحة الآن. دعنا نتكلَّم غدًا».

الفصل السابع

يأتي هندرسن من قِسم الأخبار المحلِّيَّة بينما أحتسي كوب القهوة الأول. يرتدي البعض معاطفهم ويتَّجهون نحو المصعد، ويتلقط بعضهم مجلَّة ما ويتَّجه إلى الحمَّام، بينما يدسُّ البعض الآخَر رأسه وراء شاشات الكومبيوتر ويتظاهَر بأنه يتكلَّم على الهاتف، عندما يقف هندرسن في منتصف صالة التحرير وقد حلَّ ربطة عُنقه وفتح ياقة قميصه، ويصيح:

- «أين دنكان؟ الطبعة الشعبيَّة ستَدخُل المطبعة، ونحتاج بقيَّة الصفحة الأولى».

يهزُّ البعض أكتافهم تعبيرًا عن الجهل، وأرفعُ أنا سمَّاعة الهاتف دون أن أنوي الاتِّصال بأحدٍ بعينه.

التفاصيل الخاصَّة بهندرسن أن شَعره أشقر مصفَّف فوق جبهته، وأنه لم يُكمِل دراسته في كلِّيَّة الحقوق، وأنه مُحرِّر في قِسم الأخبار المحليَّة، يعرف دائمًا إن كان الثَّلج سيسقط أم لا، ويحمل بطاقة المصعد، وأن password هي كلمة السِّر الخاصَّة بحاسبه الآلي.

يقف هندرسن إلى جوار مكتبي، ويقول:

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- «ستريتور، ألا تملك غير ربطة العُنق الزَّرقاء القبيحة هذه؟».

أحرِّكُ شفتيَّ بكلمة «حو\ار» وأنا أضع الهاتف على أذني، وأسأَلُ النغمة الثابتة على الطرف الآخَر إن كانت الكلمة التي تعنيها تبدأ بحرف B.

بالطبع لا أخبرُ أيَّ أحدٍ بأنني تلوتُ القصيدة على دنكان. لا يُمكنني الاتِّصال بالشُّرطة بخصوص نظريَّتي، ولا أستطيعُ أن أشرح لهيلين هوڤر بويل سبب سؤالي عن ابنها الراحل.

ياقة قميصي مربوطة بإحكامٍ حول عُنقي لدرجة أنني أبتلع القهوة بصعوبة.

وحتى إذا صدَّقني الناس، فأول سؤالٍ سيلقونه هو: أيُّ قصيدةٍ هذه؟ أرِنا إياها، اثبت ما تقول.

السؤال ليس «هل ستتسرَّب القصيدة؟».

السؤال هو «كم سيتبقَّى أمام الجِنس البشري من وقتٍ قبل أن ينقرض؟».

ها هي ذي قُوَّة الحياة والموت الهادئ النظيف الخالي من الدِّماء متاحةٌ لأيِّ أحدٍ وكُلِّ أحد، موت هوليوودي فوري بلا دماء.

وحتى إذا لم أُخبِر أحدًا، فكم من الوقت قبل أن يَدخُل «قصائد وأغانٍ من حول العالم» فصلًا دراسيًّا مليئًا بالأطفال؟ كم من الوقت قبل أن تُقرَأ الصفحة 27 على خمسين طِفلًا دُفعة واحدة؟

كم من الوقت قبل أن تُقرَأ في الراديو على آلاف الناس؟ قبل أن تُلَحَّن وتُغَنَّى؟ قبل أن تُترجَم إلى لغاتٍ أخرى؟

بل إنه ليس من الضروري حتى أن تُتَرجَم، فالرُّضَّع لا يتكلَّمون لغةً بعينها أصلًا.

لم يرَ أحد دنكان منذ ثلاثة أيام. ميلر يحسب أن كلاين اتَّصل بدنكان في منزله، وكلاين يحسب أن فيلمور اتَّصل. الجميع متأكِّدون أن أحدهم اتَّصل به، لكن لا أحد تكلَّم مع دنكان. لم يَرُد دنكان على بريده الإلكتروني كذلك، وكاروثرز يقول إنه لم يُكَلِّف نفسه حتى عناء الاتِّصال وإبلاغه بأنه مريض.

بعد كوبٍ آخَر من القهوة يتوقَّف هندرسن عند مكتبي ومعه جزء من صفحة المنوِّعات، طواه ليُظهِر إعلانًا يحتلُّ ثلاثة أعمدة، مساحته سِت بوصات. يَرمُقني هندرسن وأنا أنقرُ على ساعتي وقد ألصقتها بأذني، ويقول:

- «هل رأيت هذا في الطبعة الصباحيَّة؟».

يقول العنوان: «**الرجاء الانتباه... لمسافري الدرجة الأولى على خطوط طيران ريچنت پاسيفيك**»، ويقول المتن: «هل عانيتم من فقدان الشَّعر و/ أو قمل العانة بعد استخدام المقاعد أو الوسائد أو الأغطية على متن واحدةٍ من طائرات هذه الشركة؟ إذا حدث هذا، فيُرجى الاتِّصال بهذا الرقم للمشاركة في دعوى جماعيَّة».

يسألني هندرسن:

- «هل اتَّصلت بخصوص هذا الإعلان بعدُ؟».

أقولُ له إنه ربما يَجدُر به أن يخرس ويتَّصل بهم بنفسه، فيردُّ:

- «أنت خبير التحقيقات الخاصَّة، كما أننا لسنا في السجن، وأنا لا أعمل عندك».

هذا يَقتُلني حقًا...

إنك لا تُصبِح مُراسِلًا صحافيًّا لبراعتك في الحفاظ على الأسرار.

كونك مُراسِلًا معناه أن تحكي، أن تحمل الأنباء السيِّئة، أن تَنشُر العدوى، أكبر قصَّة في التاريخ. من المحتمَل أن تكون هذه هي نهاية وسائل الإعلام برُمَّتها.

سوف تكون أغنيَّة الاجتباء تلك وباءً منقطِع النظير في عصر المعلومات. تخيَّل عالمًا يتجنَّب فيه الناس التليفزيون والراديو والأفلام والإنترنت والمجلَّات والجرائد. سيرتدي الناس سدادات الأذن كما يرتدون الواقيات الذَّكريَّة والقُفَّازات المطَّاطيَّة. في الماضي لم تكن ممارَسة الجِنس مع شخصٍ غريب تثير الكثير من القلق، ولا لدغة البرغوث قبل ذلك، أو مياه الشُّرب غير النقيَّة، أو البعوض، أو الأسبستوس.

تخيَّل وباءً يصيبك بمجرَّد السمع.

قد تكسر العِصِيُّ والحجارة عظامك، لكن الكلمات يُمكنها أن تَقتُلك الآن أيضًا.

من الممكن أن يأتي هذا الموت الجديد، هذا الطاعون، من أيٍّ مكان... من أغنيَّة، من إعلانٍ تسمعه دون قصد، من نشرة الأخبار، من عِظة يوم الأحد، من رجلٍ يعزف الموسيقى في الشارع. من الممكن أن يأتيك الموت من بائعٍ على الهاتف، من أستاذك في المدرسة، من ملفٍّ حمَّلته من على الإنترنت، من بطاقة معايَدة.

قد يُشاهِد مليون شخص برنامجًا تليفزيونيًّا، وفي الصباح التالي ستجدهم موتى بسبب فقرةٍ إعلانيَّة.

تخيَّل الرُّعب...

تخيَّل عصر ظلامٍ جديدًا. لقد جاء الاستكشاف والتجارة بالطاعون الأول من الصين إلى أوروپا، لكن في وجود الإعلام صارت لدينا وسائل كثيرة جدًّا للنقل.

تخيَّل الكُتب تحترق، والشرائط والأفلام والملفَّات، تخيَّل التليفزيونات والراديوهات وهي تُغَذِّي المحرقة الكُبرى، تخيَّل كلَّ تلك المكتبات وقد تمسَّكت بها ألسنة اللهب في قلب الليل. سوف يُهاجِم الناس محطَّات موجات الميكروويڤ ويَبتُرون كابلات الألياف البصريَّة بالفؤوس.

تخيَّل الناس وهُم يُردِّدون الصلوات والتراتيل طول الوقت لإغراق أيِّ صوتٍ آخَر قد يأتي حاملًا الموت. سوف يضغطون أيديهم على آذانهم وقد نأوا عن كلِّ أغنيَّةٍ أو كلامٍ يحوي الهلاك في طيَّاته كما يُسَمِّم المخبولون زجاجات الأسپرين. كلُّ كلمةٍ جديدة، كلُّ شيءٍ لا يفهمونه بالفعل سوف يصير مشتَبهًا به، خطيرًا، متجنَّبًا. حَجْرٌ صِحِّيٌّ ضد وسائل الاتِّصال.

وإذا كانت هذه تعويذة للموت بالفعل، فلا بُدَّ من وجود أخريات. وإذا كنتُ أعرف حقيقة ما تحويه الصفحة 27، فلا بُدَّ أنني لستُ الوحيد، فلستُ العقل المُدبِّر لأيِّ شيءٍ هنا.

كم من الوقت قبل أن يُحَلِّل أحدهم الأغنيَّة ويصنع تنويعًا آخَر عليها؟ وآخَر؟ وآخَر؟ كلها تنويعات جديدة مطوَّرة. كانت القنبلة الذَّرِّيَّة مستحيلة إلى أن اخترعها أوپنهايمر، والآن لدينا القنبلة الذَّرِّيَّة والهيدروچينيَّة

والنيترونيَّة، وما زالت التطويرات مستمرَّة. إننا مُقبِلون على رُعبٍ جديد.

إذا كان دنكان قد مات، فقد كان ضحيَّةً ضروريَّة. كان بالنِّسبة لي كتجربة انفجارٍ نوويٍّ جوِّيَّة، كالثالوث المقدَّس[1]، كهيروشيما.

ومع ذلك يؤكِّد پالمر في صالة التحرير أن دنكان في قِسم التحقيقات.

وچنكينز في قِسم التحقيقات يقول إن دنكان في القِسم الفنِّي غالبًا.

وهولي في القِسم الفنِّي تقول إنه في المكتبة.

ويقول سكوت في المكتبة إن دنكان في صالة التحرير.

هذا ما يعدُّونه الواقع ها هنا.

تخيَّل مع طبيعة الأمن في المطارات الآن الإجراءات الصارمة التي سوف يتَّخذونها في جميع المكتبات والمدارس والمسارح بعد أن تتسرَّب الأغنيَّة. سوف تجد حُرَّاسًا مسلَّحين في أيِّ مكانٍ من الممكن أن تنتشر فيه المعلومات.

ستصير موجات البَث خاليةً تمامًا كحمَّامات السباحة العامَّة عندما يُشاع أن ولدًا أصيب بشلل الأطفال. بعد ذلك لن يذاع أيُّ شيءٍ غير بضعة برامج حكوميَّة والأخبار والأغاني المنقَّحة، وبعدها سيتمُّ اختبار أيِّ ألحان أو كُتب أو أفلام جديدة على حيوانات التجارب أو المساجين المتطوِّعين أولًا قبل إطلاقها للجمهور.

بدلًا من الأقنعة الجراحيَّة، سيرتدي الناس سمَّاعات تضمن لهم الحماية المستمرَّة التي تَمُدُّهم بها الموسيقى الآمنة أو أصوات الطيور.

---

(1) يقصد تضحية المسيح على الصليب من أجل خلاص البشريَّة.

سيدفعون المال مقابل مخزونٍ من الأخبار النقيَّة أو موردٍ للمعلومات ووسائل الترفيه الآمنة. تمامًا كما يفحص أطباء وزارة الصِّحَّة الحليب واللحم والدَّم، سوف تُفلتَر الكُتب والأغاني والأفلام وتوضع في مجموعاتٍ متجانِسة، قبل أن يُصَدَّق عليها وتصبح صالحةً للاستهلاك.

سيُسعِد الناس أن يتخلَّى كلٌّ منهم عن السواد الأعظم من ثقافته، مقابل أن يضمن أن النَّزر اليسير الذي يصله آمن ونظيف.

ضجيج أبيض...

تخيَّل عالمًا من الصَّمت، حيث يُمنَع كلُّ صوتٍ عالٍ أو طويلٍ قد يحوي أغنيَّة قاتلة ويُطرَد. لن تكون هناك درَّاجات بخاريَّة أو جزَّازات عشب أو طائرات نفَّاثة أو خلَّاطات كهربائيَّة أو مُجفِّفات شَعر. إنه عالمٌ يخاف فيه الناس الإصغاء، خشية أن يسمعوا شيئًا لا يرغبون في سماعه وراء ضجَّة الزحام، أن تلتقط آذانهم كلمة سامَّة ما مدفونة في قلب الموسيقى العالية التي تتردَّد من الشقَّة المجاوِرة. تخيَّل مقاوَمة أعلى وأعلى للُّغة. لا أحد يتكلَّم، لأن لا أحد يَجسُر على الإصغاء.

سيرث الطُّرشان الأرض، والجهلة، والمعزولون. تخيَّل عالمًا من المُتَنَسِّكِين.

كوبٌ آخَر من القهوة، ومثانتي على وشك الانفجار. يلحق بي هندرسن وأنا أغسل يديَّ في حمَّام الرجال ويقول شيئًا.

يقول شيئًا، لكني لا أسمعه.

أضعُ يدي تحت المجفِّف، وأصيحُ أنني لا أسمع شيئًا، فيصيح فوق صوت الماء الجاري والمجفِّف:

- «دنكان! هناك جُثَّتان في جناح فندق، ولا ندري إن كان هذا خبرًا يستحقُّ النشر أم لا. يجب أن يتَّخذ دنكان القرار».

أعتقدُ أن هذا ما يقوله. ثمَّة الكثير جدًّا من الضوضاء هنا.

أعدِّلُ ربطة عُنقي في المرآة وأسوِّي شَعري بأصابعي. انعكاس هندرسن إلى جواري، وبين شهيقٍ وزفيرٍ واحد بإمكاني ترديد كلمات الأغنيَّة في عقلي، وسيختفي من حياتي الليلة. هكذا يموت هو ودنكان بهذه البساطة.

لكن بدلًا من هذا أسأله إن كان من اللائق أن أرتدي ربطة عُنق زرقاء مع سُترةٍ بُنِّيَّة.

الفصل الثامن

عندما وصل المُسعِف الأول إلى مكان الحادث، كان أول ما فعله هو الاتِّصال بسمسار البورصة الذي يتعامل معه. قام هذا المُسعِف -صديقي چون ناش- بتقييمٍ سريع للموقف في الجناح 17F في فندق پرسمان، ثم أمر ببيع جميع أسهُمه في شركة ستيوارت وسترن للتكنولوچيا.

يقول ناش:

- «يُمكنهم أن يطردوني، لا بأس، لكن هذين الاثنين لم يزدادا موتًا خلال الدقائق الثلاث التي استغرقَتها المكالَمة».

الاتِّصال الثاني الذي أجراه كان بي، يسألني إن كان معي خمسون دولارًا مقابل بضع معلوماتٍ إضافيَّة. يقول إن عليَّ أن أبيع جميع أسهُمي في ستيوارت وسترن في الحال -إذا كنتُ أملك أيَّ أسهُمٍ هناك- وأن أُسرِع إلى ذلك البار في ثيرد آڤنيو بالقُرب من المستشفى.

يقول ناش على الهاتف:

- «بحقِّ السماء كم كانت المرأة جميلة! لو لم يكن ترنر زميلي موجودًا، فلربما كنت قد...».

ثم يُغلِق الخط.

طِبقًا لشريط أسعار الأسهُم، فإن قيمة السهم في ستيوارت وسترن للتكنولوچيا تصير أدنى مما تُخَلِّفه في المرحاض مع كلِّ ثانيةٍ تمر، فلا بُدَّ أن الأخبار تسرَّبت بالفعل عن بيكر لويس ستيوارت -مؤسِّس الشركة- وزوجته الجديدة ڤني ڤرايس ستيوارت.

تناولَ الزوجان ستيوارت العشاء ليلة أمس في السابعة في مطعم التشِك شِف، ما عرفته بسهولةٍ من بوَّاب الفندق مقابل رشوةٍ صغيرة. طِبقًا للنادل في المطعم، فقد تناولَ أحدهما طبق السلمون ريزوتو والآخر فِطر الپورتابلو، لكن الفاتورة لا توضِّح مَن تناوَل ماذا، كما أنهما احتسيا زجاجةً من نبيذ الپينو نوار، وطلب أحدهما طبق التشيز كيك على سبيل التحلية، وشرب كلٌّ منهما قدحًا من القهوة.

في التاسعة تحرَّكا بالسيَّارة إلى حفلٍ في معرض التشامبرز جاليري، حيث قال الشهود لرجال الشُّرطة إن الزوجين تجاذبا أطراف الحديث مع عدَّة أشخاص، منهم صاحِب المعرض والمهندس المسؤول عن تصميم منزلهما الجديد، واحتسى كلٌّ منهما كأسًا من النبيذ.

في العاشرة والنصف عادا إلى فندق ڤرسمان، حيث كانا يقيمان في الجناح 17F منذ زفافهما قبل شهرٍ تقريبًا.

يقول عامل الاتِّصالات في الفندق إنهما أجريا عدَّة مكالَمات هاتفيَّة بين العاشرة والنصف ومنتصف الليل. في الثانية عشرة والرُّبع اتَّصلا بمكتب الاستقبال وطلبا مكالَمة إيقاظ في الثامنة من صباح اليوم التالي، وأكَّد أحد موظَّفي الاستقبال أنهما استخدما الريموت كنترول الخاص بتليفزيون الغُرفة لطلب فيلم ڤورنوجرافي.

وفي التاسعة من صباح اليوم التالي وجدَتهما خادمة الغُرف ميتَيْن.

يقول ناش:

- «إنه انسداد الأوعية الدمويَّة إذا طلبت رأيي. عندما تُمارِس الجِنس الفمِّي مع فتاة، فإنك تَنفُخ بعض الهواء داخلها، أو إذا ضاجعتها بالقُوَّة الكافية. في الحالتين من الممكن أن يَدخُل الهواء مجرى الدم، وتتَّجه الفُقَّاعة إلى القلب مباشرةً».

ناش رجل كبير الحجم ثقيل الوزن، ينتعل حذاءً رياضيًّا أبيض ويضع معطفًا ثقيلًا فوق يونيفورمه الأبيض. عندما أصلُ، أجده مستندًا بمِرفقيه إلى المشرب، يلتهم ساندويتش من اللحم المشوي يَنِزُّ منه المايونيز والمسطردة، ويشرب كوبًا من القهوة السوداء. شَعره الدُّهني مسحوب على شكل شجرة نخيل في منتصف رأسه.

أسأله عمَّا حدث. هل نُهِبَ المكان؟

ولا يفعل ناش شيئًا إلَّا المضغ، يدور فَكُّه الكبير ويدور بلا توقُّف. يحمل الساندويتش بكلتا يديه، ويُحَدِّق في الطبق المليء بالشَّبث المخلَّل وشرائح البطاطس.

أسأله إن كان شمَّ أيَّ شيءٍ في غُرفة الفندق، فيقول:

- «كانا حديثي الزواج. رأيي أنه ضاجعها حتى الموت، ثم أصيب بنوبةٍ قلبيَّة. أراهِنُ بخمسة دولارات أنهم سيجدون هواءً في قلبها عندما يُشَرِّحون الجُثَّة».

أسأله إن كان قد تمكَّن من معرفة آخِر رقمٍ اتَّصل بهما على الأقل، فيجيب:

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

- «غير ممكن، ليس في هواتف الفنادق».

أقولُ له إن الخمسين دولارًا تستحقُّ أكثر من مجرَّد لعابه السائل على جثَّة امرأةٍ ميتة، فيقول:

- «كان لعابك ليسيل عليها أيضًا لو رأيتها. كانت جميلة بحق».

أسأله إن كانت هناك ممتلكات قيِّمة -ساعات، جواهر، مَحافظ- في مسرح الحادث، ويقول ناش:

- «وما زالت دافئة كذلك تحت الأغطية، دافئة بما فيه الكفاية. لا آلام احتضار، لا شيء».

يدور فكُّه الكبير ويدور ببطءٍ الآن وهو يُحَدِّق في لا شيء معيَّن.

يقول ناش:

- «إذا كان يُمكنك أن تحظى بأيِّ امرأةٍ تريدها، وإذا كان يُمكنك أن تحظى بها بأيِّ طريقةٍ تريدها، فهل تفعلها؟».

أقولُ إن ما يتكلَّم عنه اغتصاب، فيردُّ:

- «ليس اغتصابًا إذا كانت ميتةً».

ويضع شريحة بطاطس في فمه ويَمضُغها بصوتٍ مسموع وهو يضيف:

- «لو كنتُ وحدي، وحدي ومعي واقٍ ذكري... طبعًا لم أكن لأسمح للفاحِص الطِّبي بأن يَعثُر على حِمضي النووي في المكان».

ما يتكلَّم عنه هو قتلٌ إذن، فيقول ناظرًا إليَّ:

- «ليس إذا قتلها شخصٌ آخَر، أو قتله هو. مؤخِّرة الزوج لا بأس بها،

إذا كان هذا ما يروقك. لم يكن هناك ارتشاح أو زُرقة رُمِّيَّة أو ارتخاء في الجِلد، لا شيء».

كيف يتكلَّم عن تلك الأشياء ويستطيع الأكل في الوقت نفسه؟ لا أدري.

يقول ناش:

- «كلاهما كان عاريًا، وثمَّة بُقعة مبتلَّة كبيرة على حشيَّة الفراش بينهما. نعم، لقد مارسا الجِنس. مارساه ثم ماتا».

يَمضُغ الساندويتش ويقول:

- «عندما رأيتها في هذا الوضع هناك، قلتُ لنفسي إنها أجمل من أيِّ فتاةٍ نِمت معها على الإطلاق».

لو كان ناش يعرف الأغنيَّة، لما تبقَّت امرأة حيَّة في العالم... حيَّة أو عذراء.

إذا كان دنكان قد مات فعلًا، فلا أتمنَّى أن يكون ناش هو المُسعِف الذي يذهب إلى مكان الحادث، إذ أخشى أن يكون معه واقٍ ذَكري هذه المرَّة. لعلهم يبيعون الواقيات الذَّكريَّة في الحمَّام هنا.

أسأله، ما دامَ قد ألقى نظرةً متمعِّنةً، إن كان قد رأي أيَّ كدماتٍ أو لدغاتٍ أو آثار إبر أو أيَّ شيءٍ آخَر، فيقول إنه لم يرَ شيئًا من هذا القبيل.

رسالة انتحار إذن؟

- «لا. ليس هناك سبب واضِح للوفاة».

يقلب ناش الساندويتش في يديه ويلعق المسطردة والمايونيز المتسرِّبين من طرفه الآخَر، ويقول:

- «هل تَذكُر چيفري دامر[1]؟ لم يكن غرضه أن يَقتُل كلَّ أولئك الناس. كان يُفكِّر فقط في أن يصنع حُفرةً في جمجمة أحدهم ويَصُبَّ فيها بعضًا من سائل تنظيف البالوعات ليجعله الزومبي الجِنسي الخاص به لا أكثر. كلُّ ما كان دامر يَنشُده هو المزيد من الجِنس».

ماذا أتلقَّى مقابل الخمسين دولارًا إذن؟

- «كلُّ ما لديَّ هو اسم».

أعطيه ورقتين من فئة العشرين دولارًا وورقةً من فئة العشرة.

يجذب شريحةً من اللحم المشوي بأسنانه من داخل الساندويتش، ويتدلَّى اللحم على ذقنه لحظةً، قبل أن يُلقي رأسه إلى الخلف ويسحبه إلى داخل فمه، ثم يقول ماضغًا:

- «نعم، أنا خنزير».

أنفاسه معبَّقة برائحة المسطردة وهو يقول:

- «حصلتُ على تاريخ المكالَمات على هاتفيهما المحمولين. آخِر شخصٍ تحدَّثا معه هو امرأة اسمها هيلين هوڤر بويل».

ويَمضُغ اللحم ويسألني:

- «هل تخلَّصت من تلك الأسهُم كما أخبرتك؟».

---

(1) چيفري لايونل دامر، المعروف أيضًا باسم آكِل لحوم بشر ميلواكي، كان قاتلاً متسلسلًا أمريكيًّا اغتصب وقتل سبعة عشر رجلًا بين عامي 1978 و1991.

الفصل التاسع

أرى أمامي الخزانة طراز ويليام آند ماري نفسها. طِبقًا لبطاقة التعريف المُثبَّتة على واجِهتها، فإنها مصنوعة من خشب الصنوبر المطلي بالورنيش الأسود، تلوح عليها رسوم من التراث الفارسي مصنوعة من الفِضَّة المطليَّة باللون الذَّهبي، الأقدام مستديرة، وزخرفة الواجِهة عبارة عن أشكال جدائلٍ وقشورٍ منقوشة. لا بُدَّ أنها الخزانة نفسها، فقد انعطفنا يمينًا هنا بعد أن قطعنا رواقًا ضيِّقًا مليئًا بالخزانات الكبيرة، ثم انعطفنا يمينًا مرَّة أخرى عند دولاب طراز ريچنسي، ثم يسارًا عند أريكةٍ من القرن السابع أو الثامن عشر، ثم ها نحن أولاء في المكان نفسه من جديد.

تضع هيلين هوڤر بويل إصبعها على الرسوم المطليَّة بالذَّهب التي تُصَوِّر الحياة في البلاط الملكي في بلاد فارس القديمة وقد فقدت بريقها الآن، وتقول:

- «لا أدري عمَّ تتكلَّم».

لقد قتلَت بيكر وبني ستيوارت، اتَّصلَت بهما على هاتفيهما

المحمولين في اليوم السابق لوفاتهما، وقرأت على كلٍّ منهما أغنيَّة المَهد.

تقول بسخرية:

- «تعتقد أنني قتلت هذين المسكينين بالغناء لهما؟».

بذلتها صفراء اليوم، لكن شَعرها ما زال ورديًّا منفوشًا. حذاؤها أصفر كذلك، لكن عُنقها ما زال مُزيَّنًا بالسلاسل الذَّهبيَّة والخرز. وجنتاها متورِّدتان ناعمتان، وقد وضعت عليهما الكثير من المساحيق.

لم يتطلَّب الأمر الكثير من البحث لأعرف أن الزوجين ستيوارت هُما من اشتريا المنزل الكائن في إكستر درايف، المنزل التاريخي الرائع ذا غُرف النوم السبع، حيث الطابق الأرضي كله مغطًّى بألواحٍ من خشب الكرز، المنزل الذي كانا ينويان هدمه وبناء آخَر مكانه، ما أثار غضبة هيلين هوڤر بويل.

- «مستر ستريتور، ليتك تسمع نفسك!».

من المكان الذي نقف فيه أرى رواقًا ضيِّقًا مزدحمًا بقِطع الأثاث يمتد بضع ياردات في كلِّ اتجاه، وبعد ذلك ينعطف كلُّ رواقٍ آخَر أو يتفرَّع إلى المزيد من الأروقة التي تتزاحَم فيها الدواليب والخزائن والمناضد. تستطيع أن ترى وراء القِطع القصيرة -الأرائك والكراسي والموائد- المزيد من الساعات المُثبَّتة في صناديق طويلة وخزائن الكُتب والحواجز المزخرفة.

هذا هو المكان الذي اقترحَت هيلين أن نلتقي فيه حيث يُمكننا الكلام بحُرِّيَّة، ألا وهو متجر للأنتيكات مزوَّد بمخزنٍ ضخم. في تلك المتاهة

من الأثاث نَمُرُّ بين الفينة والأخرى بالخزانة طراز ويليام آند ماري نفسها، ثم الدولاب طراز ريچنسي نفسه.

إننا ندور في دوائر ولا نعرف الطريق.

وتقول هيلين بويل:

- «هل تكلَّمت مع أحدٍ آخَر عن أغنيَّتك القاتلة؟».

مُحرِّري فقط.

- «وما الذي قاله مُحرِّرك؟».

أعتقدُ أنه مات.

- «يا لها من مفاجأة! لا بُدَّ أنك في أسوأ حال».

أعلانا تتدلَّى الثُّريَّات الكريستال بارتفاعاتٍ مختلفة إذ عُلِّقَت من السلاسل في عوارض السقف الخشبيَّة، تتلوَّى أسلاكها البالية في كلِّ اتجاه، وكلها رماديٌّ مغبَّر. تلك الأسلاك المقطوعة والمصابيح المتربة الميتة تجعل كلَّ ثُريَّا من هذه بمثابة رأسٍ أرستقراطيٍّ مقطوع عُلِّق بالمقلوب. فوق كلِّ شيءٍ يرتفع سقف المخزن المقنطَر مدعَّمًا بعددٍ كبيرٍ من الجَمَلونات المقوَّسة المصنوعة من الحديد.

وتقول هيلين بويل:

- «اتبعني. بالمناسَبة، ألا يُفترَض أن تنمو الطحالب على الجانب الشَّمالي من الخزائن فقط؟».

وتضع إصبعين في فمها، ثم تُخرِجهما وترفعهما إلى أعلى.

ڤاترينات طراز روكوكو، خزانات كُتب طراز چيكوب، شيفونيرات من

الطراز القوطي، خزانات ملابس من الطراز الريفي الفرنسي، كلها منقوش ومطلي بالورنيش وكلها محتشدٌ حولنا. خزانات من الطراز الإدواردي مصنوعة من خشب الجوز، مرايا حائط من الطراز الڤيكتوري، دواليب طراز عصر النهضة، غابة كاملة من خشب الجوز والماهوجاني والسَّنديان والأبنوس. أرجُل مُنتفِخة منقوشة وأرجُل منحنيَّة وألواح مقوَّسة. كلما انتهى رواق تجد المزيد والمزيد. شيفونيرات طراز كوين آن، أثاث من خشب القيقب، زخارف من اللؤلؤ والبرونز والذَّهب الزائف.

يتردَّد وقع خُطانا على الأرضيَّة الإسمنتيَّة، ونسمع صوت قطرات المطر الساقطة على السقف المعدني، وتقول هيلين بويل:

- «ألا تَشعُر كأنك بشكلٍ ما مدفون في التاريخ؟».

تَمُدُّ يدها ورديَّة الأظفار داخل حقيبتها ذات اللونين الأصفر والأبيض، وتُخرِج سلسلة مفاتيح تُكوِّر قبضتها حولها ليَبرُز أطولها وأحدُّها من بين أصابعها.

- «هل تُدرِك أن أيَّ شيءٍ تفعله في حياتك سيصير بلا معنى بعد مئة عامٍ من الآن؟ هل تحسب أن أحدًا سيتذكَّر الزوجين ستيوارت بعد قرنٍ من الآن؟».

تنقل بصرها من سطحٍ مصقول إلى آخَر، من مائدةٍ إلى تسريحة إلى باب، وصورتها منعكِسة عليها جميعًا، وتقول:

- «الناس يموتون، والناس يهدمون المنازل. لكن الأثاث -الأثاث الراقي الجميل- يستمرُّ ويستمرُّ ويظل موجودًا بعد غياب كلِّ شيءٍ آخَر. الخزائن هي صراصير حضارتنا».

ودون تغييرٍ في إيقاع خطواتها الواسعة تُمَرِّر طرف المفتاح المعدني على الواجِهة المصقولة لخزانةٍ من خشب الجوز، ونسمع الصوت الهادئ الذي يُحدِثه أيُّ شيءٍ حاد يَشُقُّ شيئًا ناعمًا، وأرى شِقًّا عميقًا يكشف عن خشب الصَّنوبر الرخيص المتواري تحت القشرة.

تقف هيلين أمام خزانة ملابس ذات مرآتين مائلتيِّ الحواف، وتقول:

- «فكِّر في كلِّ النساء اللاتي نظرنَ في هذه المرآة. لقد اشترينها وأخذنها معهنَّ إلى بيوتهنَّ، وتقدَّم بهنَّ العُمر في هذه المرآة، ثم متنَ. كلُّ هؤلاء النساء الشابَّات متنَ، لكن ها هي الخزانة باقية، وقيمتها الآن أعلى من أيِّ وقتٍ مضى. إنها طُفيل يظلُّ حيًّا بعد موت المعيل، حيوان ضارٍ كبير يبحث عن وجبته التالية».

في هذه المتاهة من الأنتيكات، تقول هيلين، تَكمُن أشباح جميع من اقتنوا كلَّ هذا الأثاث في الماضي، أشباح كلِّ من كان ثريًّا ناجحًا بما فيه الكفاية لأن يُثبِت هذا. ولَّى جمالهم وذكاؤهم ومواهبهم، لكن هذه الخُردة المزيَّنة لا تزال هنا تتحدَّى مرور الزمن. كلُّ النجاحات والإنجازات التي كان هذا الأثاث يُمثِّلها تلاشَت.

تقول:

- «عندما تَنظُر إلى الصورة الكبيرة، فهل يهم حقًّا كيف مات الزوجان ستيوارت؟».

أسألها: كيف اكتشفَت وجود أغنيَّة المَهد؟ هل السبب أن ابنها پاتريك مات؟

وتَظَلُّ هي تمشي مُمرِّرةً أصابعها على الحواف المقوَّسة والأسطُح المصقولة مُلوِّثةً المقابض اللامعة والمرايا.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لم أقضِ وقتًا طويلًا في البحث عن كيفيَّة وفاة زوجها. بعد عامٍ من وفاة پاتريك وجَدوه في فراشه ميتًا، بلا خدشٍ واحد، بلا رسالة انتحار، بلا سببٍ واضِح.

تقول هيلين بويل:

- «كيف وجدوا مُحرِّرك؟».

ومن حقيبتها ذات اللونين الأصفر والأبيض تُخرِج كمَّاشة فِضِّيَّة صغيرة لامعة ومِفكًّا، كلاهما شديد النظافة حتى إن من الممكن استخدامهما في عمليَّةٍ جراحيَّة، ثم تفتح باب خزانةٍ كبيرة منقوشة مصقولة، وتقول:

- «ثبِّته لي من فضلك».

فأُثبِّتُ الباب، وتنشغل هي في فِعل شيءٍ ما داخل الخزانة لحظات، قبل أن يَسقُط مِقبَض ومزلاج الباب على الأرض عند قدميَّ. تمضي دقيقة وتكون هي قد خلعت كلَّ شيءٍ معدنيٍّ -باستثناء مفصلات الباب- ووضعته في حقيبتها، فتبدو الخزانة بعد تجريدها من كلِّ هذا كسيحة عمياء مشوَّهة كجُثَّةٍ تم التمثيل بها.

أسألها عن سبب ما فعلته، فتجيب:

- «لأني أحبُّ هذه القِطعة، لكني لن أُصبِح واحدةً أخرى من ضحاياها».

ثم تُغلِق الباب وتعيد أدواتها إلى الحقيبة، وتُردِف:

- «سأعود لأشتريها بعدما يخفضون سِعرها إلى ما كانت عليه وهي جديدة. إنني أحبُّها حقًّا، لكني لن آخذها إلَّا بشروطي أنا».

نقطع بضع خطواتٍ أخرى، ويتحوَّل الرواق إلى غابةٍ من الأشجار الصناعيَّة ومشاجب القبَّعات والمعاطف وعِلَّاقات المظلَّات، وعلى مسافةٍ وراء كلِّ هذا أرى جدارًا آخَر احتلَّته خزائن الكُتب والملابس.

تقول هيلين وهي تتحسَّس كلَّ قطعة:

- «إليزابيثي... تيودوري... إيست ليك... ستيكلي».

تشرح هيلين قائلةً إنه عندما يأخذ أحدهم قِطعتين مختلفتين -مرآة وتسريحة على سبيل المثال- ويُثبِّتهما معًا، فإن الخبراء يُطلِقون على القِطعة النهائيَّة الجديدة اسم القِطعة المتزوِّجة، لكنها تُعَدُّ بلا قيمة كأنتيكا. وعندما يَفصِل أحدهم قِطعة واحدة إلى قِطعتين -كبوفيه وصندوق مثلًا- ويبيعهما منفصلتين، فإنهم يُطلِقون على كلٍّ منهما اسم القِطعة المُطلَّقة، وتكونان بلا قيمةٍ كذلك.

أشرحُ لها أنني أحاولُ العثور على كلِّ نُسخةٍ موجودة من كتاب الأغاني، وأقولُ إن من المهم للغاية ألَّا يكتشف أيُّ أحدٍ التَّعويذة أبدًا. بَعد ما حدث لدنكان، فإنني أُقسِم أنني سأحرقُ جميع الملاحظات التي دوَّنتها وأنسى أنني عرفتُ تعويذة الاجتباء.

- «وماذا لو لم تكن تستطيع نسيانها؟ ماذا لو بقيَت في رأسك تُردِّد نفسها كواحدةٍ من أغاني الإعلانات السخيفة إياها؟ ماذا لو ظلَّت قابعةً هناك كمسدَّس محشوٍّ في انتظار أن يثير أحدهم ضيقك؟».

لن أستخدمها.

- «بالطبع لا»، تقولها وتَضحَك دون صوت، ثم تنعطف إلى اليمين سريعًا وتَمُرُّ بخزانةٍ صغيرة بلا أرجُلٍ من طراز بيدرماير، ثم تنعطف من

جديد مرورًا بمنضدةٍ من طراز آرت نوڤو، وتَخرُج من مجال بصري لحظةً.

أهرعُ لألحق بها وأنا لم أزل لا أعرف الطريق، وأقولُ لها إننا يجب أن نبقى معًا إذا أردنا العثور على سبيلٍ للخروج مما نحن فيه.

أمامنا الخزانة طراز ويليام آند ماري إياها، المصنوعة من خشب الصنوبر المصقول بالأسود، وتلوح عليها رسوم من التراث الفارسي مصنوعة من الفِضَّة المطليَّة باللون الذَّهبي، الأقدام ذات شكلٍ مستدير، وزخرفة الواجِهة عبارة عن أشكال جدائل وقشور منقوشة. وتقودني هيلين هوڤر بويل إلى أعماق أحراش الخزائن والمناضد والدواليب والمقاعد الهزَّازة والمشاجب، وتقول إنها تريد أن تحكي لي قصَّة.

الفصل العاشر

في صالة التحرير الجميع واجِمون، يتهامسون حول ماكينة القهوة، يُصغون بأفواهٍ فاغِرة، ولا أحد يبكي.

يلحق بي هندرسن وأنا أعلِّق معطفي، ويسألني:

- «هل اتَّصلت بخطوط طيران ريچنت پاسيفيك تلك بخصوص موضوع قمل العانة؟».

أجيبه بأن لا أحد يريد أن يتكلَّم قبل أن تُرفَع القضيَّة رسميًّا، فيقول:

- «بالمناسَبة، ستعرض عليَّ عملك من الآن فصاعدًا. اتَّضح أن دنكان لم يكن غير مسؤول فحسب، بل مات كذلك!».

وجده صاحِب البناية التي يَسكُنها ميتًا في سريره دون أيِّ آثار، بلا رسالة انتحار، بلا سببٍ واضح للوفاة. كان صاحِب البناية هو من اتَّصل بالمُسعِفين.

أسأله إن كانت هناك أيُّ أماراتٍ على اغتصابه، فيعيد رأسه إلى الوراء قَدرًا ضئيلًا، ويسألني بدهشة:

- «ماذا؟!».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

هل ضاجعه أحدهم؟

- «ربَّاه، لا! ما هذا السؤال؟!».

مجرَّد سؤال.

على الأقل لم يكن دنكان دُمية جنسٍ ميتة يلعب بها أحدهم.

أقولُ لهندرسن إنني سأكون في المكتبة إذا احتاجني أحد، فثمَّة بعض الحقائق التي أريدُ الاطِّلاع عليها، فقط بضع سنواتٍ من الموضوعات المنشورة في الصُّحف يجب أن أقرأها، وبضعة أفلام ميكروفيلم يجب أن أشاهِدها.

أتحرَّك، ويناديني هندرسن قائلًا:

- «لا تبتعد. موت دنكان لا يعني أنك لن تُكمِل تحقيق الرُّضَّع الموتى».

قد تكسر العِصِيُّ والحجارة عظامك، لكن حذارِ من تلك الكلمات اللعينة.

طِبقًا للميكروفيلم، ففي سنة 1983، في العاصمة النمساويَّة ڤيينا، قامت مُعاوِنة مُمرِّضة تبلغ من العُمر ثلاثة وعشرين عامًا بإعطاء جرعةٍ زائدةٍ من المورفين لامرأةٍ عجوز تستجدي الموت استجداءً، وعندما ماتت المريضة ذات السبعة وسبعين عامًا، وجدت المعاوِنة الشابَّة ڤالتراود ڤاجنر أنها تحبُّ أن تكون سُلطة الحياة والموت بين يديها حقًّا.

كلُّ شيءٍ موجودٌ هنا في لفافةٍ وراء لفافةٍ من الميكروفيلم... الحقائق ولا شيء غير الحقائق.

في البدء كانت تفعل هذا لمساعَدة المُحتَضِرين لا أكثر. كانت تعمل

في مستشفى ضخم لكبار السِّن وذوي الأمراض المُزمِنَة يقبع الناس فيه في انتظار الموت. بالإضافة إلى المورفين، اخترعَت تلك الشابَّة ما أطلقَت عليه اسم العلاج بالماء. كي تُخَلِّص المريض من معاناته، كانت تُغلِق أنفه بأصابعها، ثم تضغط على اللسان وتصبُّ الماء في الحَلْق. الموت عذابٌ بطيء، لكنهم دائمًا ما يعثرون على كبار السِّن موتى وقد تجمَّع الماء في رئاتهم.

اعتبرَت تلك الشابَّة نفسها ملاكًا...

كانت الوفاة تبدو طبيعيَّة تمامًا...

كان فِعلًا نبيلًا بطوليًّا ذلك الذي كانت ڤاجنر تُمارِسه...

إنها النهاية المُطلَقة للألم والعذاب...

إنها رقيقة، حسَّاسة، وحنون...

لم تكن ڤاجنر تُنهي حياة أحدٍ إلَّا من يستعجل أن توافيه المَنِيَّة ويرحل عن هذه الدنيا...

كانت ملاك الموت...

ومع حلول سنة 1987 صار هناك ثلاثة ملائكة إضافيُّون معها. كانت المُعاوِنات الأربع يعملنَ في ورديَّة الليل، وفي ذلك الوقت أصبح اسم التدليل الذي يُطلِقه الناس على المستشفى هو سرادق الموت.

والآن، وبدلًا من تخليص المرضى من عذابهم المقيم، بدأت النساء الأربع إعطاء علاجهنَّ المائي لكلِّ مريض يَغُطُّ في نومه أو يُبَلِّل فراشه أو يَرفُض تناوُل الدواء أو يَدُقُّ جرس غُرفة المُمرِّضات في ساعةٍ متأخِّرةٍ من الليل. أيُّ إزعاجٍ تافه، ويموت المريض في الليلة التالية. أيُّ شكوى من

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أيِّ مريض أضحت حُكمًا بالإعدام. تقول ڤالتراود ڤاجنر إن هذا المريض اشترى تذكرةً بلا رجعةٍ إلى السماء، ثم جلوب، جلوب، جلوب!

قالت ڤاجنر للسُّلطات إن «من ضغطوا على أعصابي كانوا يحجزون سريرًا مجانيًّا في الأبديَّة».

في سنة 1989 وصفت امرأة عجوز ڤاجنر بأنها عاهِرة، فتلقَّت العلاج بالماء. بعدها جلس الملائكة الأربعة يتناولنَ الشراب في حانة ويضحكنَ وهُنَّ يُقلِّدن التشنُّجات التي أصابت العجوز والنظرة على وجهها، ولم يُلاحِظنَ أن طبيبًا جالسًا بالقُرب منهنَّ قد سمعهنَّ.

وقتها قدَّرت وزارة الصِّحَّة النمساويَّة أن نحو ثلاثمئة مريض قد تلقوا العلاج المائي.

حُكِم على ڤاجنر بالسِّجن مدى الحياة، بينما تلقَّت الأخريات عقوباتٍ أخفَّ، وقد قالت ڤاجنر في مُحاكَمتها:

- «كنا نُقرِّر إن كان هؤلاء المتغضِّنون الحمقى سيعيشون أم يموتون. لقد كانت تذكرة رحلتهم إلى الله مُستحَقَّة الدفع قبلها بفترةٍ طويلة على كلِّ حال».

القِصَّة التي حكتها لي هيلين هوڤر بويل حقيقيَّة.

السُّلطة تُفسِد، والسُّلطة المُطلَقة تُفسِد على نحوٍ مُطلَق.

هكذا قالت لي هيلين بويل أن أسترخي إذن وأستمتِع بالرحلة.

- «حتى الفساد المُطلَق له مزاياه».

قالت إن عليَّ أن أفكِّر في جميع من أرغب في خروجهم من حياتي، في النهايات المفتوحة التي أريد إغلاقها، في الانتقام. قالت إن عليَّ أن أفكِّر في السهولة التي يُمكن أن أفعل بها كلَّ هذا.

وما زال صوت چون ناش يتردَّد في ذِهني. كان ناش هناك، يسيل لعابه لفكرة أن تكون امرأة ما في مكانٍ ما متعاونةً وجميلةً مدَّة ساعاتٍ قليلة قبل أن تبدأ جثَّتها في أن تبرد وتتداعى.

قال ناش:

- «أخبِرني حقًّا، كيف يختلف هذا عن أغلب علاقات الحُب؟».

من الممكن أن يكون أيُّ أحدٍ وكلُّ أحدٍ الزومبي الجِنسي الخاص بك.

لكن لمجرَّد أن تلك المُمرِّضة النمساويَّة وهيلين بويل وچون ناش لا يستطيعون التحكُّم في أنفسهم، فإن هذا لا يعني أنني سأصبِحُ قاتلًا مُندفِعًا مُتهوِّرًا.

والآن يقف هندرسن عند باب المكتبة ويصيح:

- «ستريتور! هل أغلقت جهاز استدعائك؟ لقد تلقَّينا مكالمة بشأن رضيعٍ ميتٍ آخَر».

عاش المُحرِّر، مات المُحرِّر. ها هو رئيسي الجديد، لا يختلف في شيءٍ عن رئيسي القديم.

وبالتأكيد سوف يُصبِح العالم مكانًا أفضل دون أناسٍ بعينهم. نعم، سيكون العالم مكانًا مثاليًّا لا ريبَ مع بعض التهذيب والتشذيب هنا وهناك، مع بعض النظافة. الانتخاب غير الطبيعي.

لكن لا، لن أستخدِم أغنيَّة المَهد ثانيةً أبدًا...

أبدًا، أبدًا...

وحتى إذا استخدمتها، فلن أستخدمها بغرض الانتقام...

لن أستخدمها من أجل راحتي الشخصيَّة...

وبالتأكيد لن أستخدمها في سبيل الجِنس...

كلا، سوف أستخدمها بدافِع الخير فقط...

ويصيح هندرسن:

- «ستريتور! هل أجريت الاتِّصال بشأن قمل العانة على الطائرات؟ هل أجريت الاتِّصال بشأن الفطريَّات في النادي الصِّحِّي؟ ينبغي عليك أن تُلاحِقهم في المطعم وإلَّا لن تحصل على أيِّ معلومات».

إنني في الناحية الأخرى من الردهة، وفي غمضة عينٍ تتردَّد الأغنيَّة في عقلي بينما ألتقط معطفي وأتَّجه نحو الباب.

لكن لا، لن أستخدمها أبدًا وهذا كلُّ شيء...

أبدًا، أبدًا.

الفصل الحادي عشر

هؤلاء المُدمِنون للضوضاء... هؤلاء المرعوبون من الهدوء...

صوت طبل يُقرَع ويُقرَع ويُقرَع بلا توقُّف يتسرَّب من السقف، ومن الجدران تسمع ضحك وتصفيق الموتى.

حتى وأنت تغتسل في الحمَّام، يُمكنك أن تسمع صوت الراديو عاليًا فوق هسيس الدُّش، فوق صوت المياه التي تتناثَر في حوض الاستحمام وتتطايَر على الستارة البلاستيكيَّة. ليست المسألة أنك ترغب في موت الجميع، وإن كان من الجميل حقًّا أن تُطلِق أغنيَّة المَهد من عقالها على العالم، فقط كي تستمتع بالخوف الذي سيسود. بعد أن يُجَرِّم الناس الأصوات المرتفِعة، أيَّ أصواتٍ قد تضمُّ تعويذة ما، أيَّ ضوضاء أو موسيقى قد تُخفي قصيدة مميتة، سوف يُخيِّم الصمت على العالم. إنه عالمٌ خطيرٌ مرعوبٌ، لكنه صامت.

ينبض القرميد بإيقاعٍ خفيفٍ تحت أطراف أصابعي، يهتزُّ حوض الاستحمام من الصياح الآتي من الأرضيَّة. إما أن ديناصورًا طائرًا من حُقبة ما قبل التاريخ أيقظته تجربة نوويَّة وعلى وشك تدمير جيراني في الشقَّة الواقعة تحتي، أو أن صوت تليفزيونهم عالٍ للغاية.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

في عالمٍ التعهُّدات فيه بلا قيمة، حيث تُقطَع الوعود والنذور فقط لِيَنكُث الناس بها، سيكون من الجميل أن ترى الكلمات وقد استردَّت قُوَّتها. في عالمٍ يعي الجميع فيه وجود أغنيَّة المَهد، سيصير هناك تعتيم سمعي. كما في أيام الحرب، سيتحرَّك الخفَر في دوريَّاتٍ منتظِمة، لكن بدلًا من البحث عن الأضواء، سيتلصَّصون على الأصوات ويأمرون الناس بأن يخرسوا. كما تبحث الحكومات عن التلوُّث في الماء والهواء، سوف تُحَدِّد تلك الحكومات ذاتها مصدر أيِّ صوتٍ أعلى من همسة وتعتقل صاحِبه. ستكون هناك مروحيَّات -مروحيَّات خاصَّة مزوَّدة بكاتمٍ للصوت بالطبع- تبحث عن الضوضاء كما يبحث رجال الشُّرطة عن المخدِّرات اليوم. سيتحرَّك الناس على أطراف أصابعهم وهُم يرتدون أحذيةً ذات نعالٍ من المطَّاط، وسيلصق المُخبِرون آذانهم بكلِّ ثُقب مفتاح.

إنه عالمٌ خطيرٌ مرعوبٌ، لكنك ستستطيع النوم ونوافذك مفتوحة على الأقل. إنه عالمٌ تساوي فيه كلُّ كلمةٍ ألف صورة.

يَصعُب القول إن كان ذلك العالم أسوأ من عالمنا الحالي بكلِّ ما فيه من صخب الموسيقى وزئير التليفزيون وصراخ الراديو.

ربما يبدأ الناس في التفكير بعد أن يغيب الأخ الأكبر عن العالم.

الجانِب المُشرِق في الأمر أن عقولنا قد تصير ملكنا أخيرًا.

لا ضرر من ترديد البيت الأول من القصيدة، فلا يوجد أحد يُمكنني قتله هنا، لا أحد يُمكنه سماعها.

وكانت هيلين هوڤر بويل على حق، إذ لم أنسَ كلمات القصيدة

بالفعل. الكلمة الأولى تُوَلِّد الثانية، والبيت الأول يُوَلِّد التالي. يُدَوِّي صوتي كما لو أنني أغنِّي في الأوبرا، وتَهدُر الكلمات بصوتٍ عميق، وأسمعُ صداها يرتدُّ عن الجدران والأرض.

بصوتي الأوبرالي المرتفِع لا تبدو الأغنيَّة سخيفة الوقع كما كانت في مكتب دنكان. إنها ثقيلة قويَّة. إنه صوت الهلاك، هلاك جاري في الطابِق الذي يعلوني. إنها نهايتي لحياته، وقد ردَّدتُ الأغنيَّة كاملةً.

حتى وأنا مبتلٌّ هكذا ينتصب الشَّعر على مؤخِّرة عُنقي وتحتبس أنفاسي.

ثم لا شيء...

من الطابِق العلوي يأتي دويُّ الطبل، من كلِّ اتجاهٍ يأتي صوت الراديو والتليفزيون، صوت طلقاتٍ ناريَّة، ضحكات، قنابل، صفير، نباح كلاب. هذا ما يعدُّونه وقت الذُّروة.

أغلِقُ المياه وأنفضُ شَعري، ثم أفتحُ الستارة وأمدُّ يدي لألتقط المنشفة، وعندئذٍ أراها...

فتحة التهوية...

فتحات التهوية تصل جميع شُقَق البناية ببعضها بعضًا، ودائمًا ما تكون مفتوحة، تحمل البخار من الحمَّامات وروائح الطهي من المطابخ، وتحمل كلَّ صوتٍ كذلك.

يتقاطر مني الماء على أرضيَّة الحمَّام، وأحدِّقُ في فتحة التهوية.

ثمَّة احتمال لا بأس به أنني قتلتُ جميع سُكَّان البناية.

الفصل الثاني عشر

چون ناش جالسٌ في البار في ثيرد آفنيو، بأصابعه يحشو شِدْقَيه بتغميسة البصل. يغرس إصبعين لامعين في فمه، ويَمُصُّ بقُوَّةٍ تَمتَصُّ وجنتيه إلى الداخل. يُخرِج الإصبعين ويدفنهما في المزيد من تغمسية البصل المُقدَّمة في وعاءٍ بلاستيكي.

أسأله إن كان هذا إفطاره، فيقول:

- «إذا كان لديك سؤال، فعليك أن تُبرِز نقودك أولًا»، ويضع الإصبعين في فمه.

على الجانِب الآخَر من ناش يجلس إلى المشرب شابٌّ ما، قصير السوالِف، يرتدي بذلة مُقَلَّمة لا بأس بها، وإلى جواره فتاة تقف على حاجِز المشرب السُّفلي وتُقبِّل شفتيه. يُلقي الشاب حبَّة الكرز التي جاءت مع كوكتيله في فمه، ويتبادلان قُبلة طويلة، ثم تبدأ هي في مضغِ حبَّة الكرز. ما زال الراديو الموضوع وراء البار يذيع قوائم الوجبات التي تُقدَّم على الغداء في المدارس.

يلتفت ناش كلَّ بضع ثوانٍ ليَرمُقهما.

هذا ما يَعدُّونه حُبًّا الآن...

أضعُ ورقة بعشرة دولارات على البار، فيخفض عينيه إليها وإصبعاه في فمه، ثم يرتفع حاجباه دهشةً.

أسأله: هل مات أحدٌ في بنايتي ليلة أمس؟

إنها البناية الواقعة عند تقاطُع الشارع 17 ولومِس پلايس. اسمها شُقَق لومِس پلايس، ثمانية طوابِق، مبنيَّة بالطُّوب الأحمر. هل مات أحد في الطابِق الخامس ربما؟ في مؤخِّرة البناية؟ شاب؟ هذا الصباح وجدتُ بُقعةً غريبة في سقف شقَّتي.

ذلك الشاب ذو السوالِف، يبدأ هاتفه المحمول في الرنين.

ويسحب ناش إصبعيه فيسحبان معهما شفتيه كأنبوبٍ صغير، ويَظَلُّ يَرمُق الإصبعين القريبين جدًّا من وجهه حتى احولَّت عيناه.

أقولُ له إن الشاب الذي مات كان يتعاطى المخدِّرات. كثيرون من ساكني تلك البناية يتعاطون المخدِّرات. أسأله إن كانوا قد وجدوا موتى آخَرين هناك. هل -ربما- ماتت مجموعة كاملة من الناس في شُقَق لومِس پلايس ليلة أمس؟

ويجذِب ذو السوالِف الفتاة من شَعرها بعيدًا عن فمه، وبيده الأخرى يُخرِج هاتفه من جيب معطفه ويفتحه قائلًا: «ألو؟».

أقولُ إنه لا يوجد سبب واضِح للوفاة.

يُقلِّب ناش إصبعًا في تغميسة البصل، ويسأل:

- «هذه بنايتك؟».

أجل، هذا ما قُلته.

ما زال ذو السوالِف يَقبِض على شَعر الفتاة، ويقول في الهاتف:

- «لا يا حبيبتي. أنا في عيادة الطبيب الآن والأنباء لا تبدو مُبشِّرة».

تُغلِق الفتاة عينيها وتعود بعُنقها إلى الوراء وتُدَلِّك يده بشَعرها، بينما يقول هو:

- «كلا، يبدو أنه انتشر. لا، أنا بخير».

وتفتح الفتاة عينيها...

ويغمز لها...

... فتبتسم.

يقول:

- «هذا يعني لي الكثير الآن. أنا أيضًا أحبُّك».

ويُغلِق الخَط، ويجذب وجه الفتاة إلى وجهه...

يأخذ ناش ورقة الدولارات العشرة من على المشرب ويَدُسُّها في جيبه، ويقول:

- «لا، لم أسمع شيئًا من هذا».

تنزلق قدما الفتاة من على حاجِز المشرب فتضحك، وتتراجَع إلى الوراء وتسأله:

- «أهذه هي؟».

فيجيب:

- «لا».

ودون حتى أن أفكِّر في المحاوَلة، يحدث كلُّ شيء. أنظرُ نحو ذي السوالِف لا أكثر، وتسري الأغنيَّة في رأسي بسرعة البَرق. أسمع الأغنيَّة في عقلي بالصوت الأوپرالي المُدوِّي الذي تلوتها به في الحمَّام، صوت الهلاك. تتردَّد أصداؤها في داخلي. بسرعة طرفة العين، بسرعة العطسة، يحدث كلُّ شيء.

يقول ناش بأنفاسٍ معبَّقةٍ بالبصل:

- «من الغريب جدًّا أن تسألني سؤالًا كهذا»، ويَدُسُّ إصبعه في فمه.

وتقول الفتاة:

- «مارتي؟».

وينزلِق ذو السوالِف ويَسقُط أرضًا...

يلتفت ناش ليَنظُر، والفتاة راكعة على الأرض إلى جوار الشاب، يداها مفرودتان فوق -وليس على- صدره، وتقول:

- «مارتي؟».

أظفارها مطليَّة بالأرجواني اللامع، وطلاء شفتيها الأرجواني يُلَطِّخ فم الشاب.

ولعل الشاب مريض فعلًا، لعله اختنق بحبَّة كرز، لعلي لم أقتُل واحدًا آخَر.

ترفع الفتاة عينيها إلينا، وتقول بوجهٍ غارِق في الدموع:

- «هل يعرف أحدكما الإنعاش؟».

ويضع ناش أصابعه في تغميسة البصل، وأمرُّ فوق الجثَّة، وبالفتاة الباكية، وأسحب معطفي، وأتَّجهُ نحو الباب.

الفصل الثالث عشر

في صالة التحرير يسألني ويلسن من قسم الأخبار الدوليَّة إن كنتُ قد رأيتُ هندرسن اليوم، ويقول بيكر من صفحة الكُتب إن هندرسن لم يُبلِغ أحدًا بأنه مريض ولا يَرُد على هاتف البيت، بينما يسألني أوليفانت من قِسم التحقيقات الخاصَّة:

- «ستريتور، هل رأيت هذا؟».

ويُناوِلني إعلانًا يقول عنوانه: «**الرجاء الانتباه... لمُرتادي الصالون الفرنسي**»، ويقول متنه: «هل تعرَّضتم لنزيفٍ قوي أو أصبتم بقروحٍ نتيجةً لأيٍّ دهاناتٍ تعاملتم معها في هذا المكان؟». رقم الهاتف الموجود مع الإعلان لم أره من قبل، وعندما أتَّصل تُجيبني امرأة:

- «مكتب دوجان وديلر ودَن للمحاماة».

وأُغلِق الخط.

يقف أوليفانت عند مكتبي، ويقول:

- «ما دمتَ هنا، فنريدك أن تقول شيئًا لطيفًا عن دنكان».

يقول إنهم يُجَهِّزون موضوعًا خاصًّا عن دنكان على سبيل التقدير.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

سيكون هناك پورتريه لطيف مع مُلخَّص لمسيرته المِهنِيَّة، ويريدون من زملائه أن يكتبوا بضع عباراتٍ عنه. أحدهم في القِسم الفنِّي يستخدِم صورة بطاقته الصحافيَّة ليرسم الپورتريه، «مع فارِق أنه سيكون مبتسمًا... مبتسمًا وأقرب إلى كائنٍ بَشري».

قبل ذلك، في طريق العودة من البار في ثيرد آڤنيو إلى العمل، كنتُ أعدُّ خطواتي. كنتُ قد عددتُ 276 خطوة كي يَظَلَّ عقلي مشغولًا، إلى أن دفعني رجل يرتدي معطف مطرٍ جلديًّا أسود عند ناصية شارع، وقال بحِدَّة:

– «استيقظ أيها الأحمق. الإشارة تقول: سِر».

وكما يُداهِمك التثاؤب على حين غرَّة، تتدفَّق أغنيَّة المَهد في رأسي وأنا أحدِّق في ظَهر الرجل...

كان ذو معطف المطر الأسود لا يزال يعبر الشارع، يرفع ساقه ليصعد على الرصيف البعيد، لكنه لا يَبلُغه. يصدم إصبع قدمه الكبير الرصيف في منتصَف الطريق إلى أعلى، وينقلب هو على وجهه على الرصيف لترتطم به جبهته مباشرةً. إنه الصوت نفسه الذي تسمعه عندما توقِع بيضة على أرضيَّة المطبخ، باستثناء أن هذه بيضة كبيرة حقًّا وملأى بالدَّم ومحتويات الدماغ. ذراعاه مفتوحتان على جانبيه، وتتدلَّى أطراف معطفه الأسود فوق بالوعة المجاري.

أمرُّ به وأعُدُّ 277... أعُدُّ 278... أعُدُّ 279...

على بُعد مُربَّع بناياتٍ من الجريدة، أجد حاجِزًا يسد الرصيف، بينما يقف ضابط شُرطةٍ يرتدي الزِّيَّ الرسميَّ الأزرق على الجانِب الآخَر ويهز رأسه قائلًا:

- «عليك أن تعود أدراجك وتَعبُر الشارع. إنهم يُصوِّرون فيلمًا في هذه المنطقة».

أحدِّق في شارته عابسًا، وبسرعة الشَّد العضلي تتوالى أبيات الأغنيَّة الثمانية...

ترتفع كُرتا عينيِّ الشُّرطي إلى أعلى حتى لا يبقى منهما إلَّا البياض، ويرفع يدًا مغطَّاة بقُفَّازٍ إلى صدره، ثم يتهاوى على رُكبتيه. يَسقُط ذقنه على حافة الحاجِز الخشبي بقوَّةٍ جعلت صوت ارتطام أسنانه ببعضها البعض مسموعًا، ثم يطير شيء وردي صغير من فمه. إنه طرف لسانه.

أعُدُّ 345... أعُدُّ 346... أعُدُّ 347... وأرفع ساقًا ثم الأخرى فوق الحاجز.

تعترض امرأة تحمل ووكي-توكي طريقي رافعةً ذراعها أمامها تريد إيقافي، وقبل لحظةٍ من وضعها يدها على ذراعي، تدور عيناها في محجريهما وتَسقُط شفتها السُّفلى مفتوحةً. يسيل خيط من اللعاب من فمها المرتخي، وتَسقُط أمامي بينما يقول الووكي-توكي:

- «چيني؟ چين؟ ستاند باي».

وتكون الكلمات الأخيرة من القصيدة قد طافَت بعقلي...

أعُدُّ 359... أعُدُّ 360... أعُدُّ 361... وأواصِل السير بينما يندفع الناس حولي في الاتِّجاه الآخَر، وتقول امرأة يتدلَّى مقياس للضوء من عُنقها:

- «هل طلب أحد سيَّارة إسعاف؟».

أرى أناسًا يرتدون أسمالًا، يضعون ماكياجًا ثقيلًا ويشربون الماء من زجاجاتٍ زرقاء صغيرة، يقفون أمام عربات تسوُّقٍ تكوَّمت عليها

المهملات، وكلُّ هذا تحت أضواء ساطعة وعاكساتٍ كبيرة. أراهم يَمُدُّون أعناقهم ليروا المكان الذي كنتُ فيه للتوِّ. هناك عربات مقطورة كبيرة وبيوت متنقِّلة مركونة بمحاذاة الرصيف، رائحة محرِّكات الديزل تُفعِم الهواء حولها، والأكواب الورقيَّة نِصف المليئة بالقهوة في كلِّ مكان.

أعُدُّ 378... أعُدُّ 379... أعُدُّ 380... وأتخطَّى الحاجِز الموضوع على الجانِب الآخَر. 412 خطوة من البار إلى صالة التحرير. في المصعد في طريقي إلى أعلى أجد زحامًا كبيرًا، وفي الطابِق الخامس يُحاوِل رجل آخَر أن يحشر نفسه داخل المصعد.

جسدي محشور بين الراكبين في مؤخِّرة المصعد، وبسرعة خروج العرق من مسامِّك في يومٍ حار يَبصُق عقلي أغنيَّة المَهد بعُنفٍ جعل شفتيَّ تتحرَّكان مع كلِّ كلمة.

يَنظُر الرجل إلينا جميعًا ويبدو أنه يتراجع إلى الخلف بالسرعة البطيئة، وقبل أن نراه وهو يَسقُط أرضًا ينغلق بابا المصعد ونتحرَّك إلى أعلى.

لا أحد في صالة التحرير يستطيع العثور على هندرسن. يأتي إليَّ أوليفانت وأنا أطلبُ رقمًا على هاتفي ليُخبِرني بموضوع تكريم دنكان ويَطلُب مني أن أقول شيئًا عنه، ويُريني إعلان الصالون الفرنسي، ثم يسألني عن الحلقة الجديدة من تحقيق الموت في المَهد.

الهاتف في يدي، وأعُدُّ 435... أعُدُّ 436... أعُدُّ 437...

وأقولُ لأوليفانت ألَّا يثير حنقي الآن.

ويقول صوت امرأةٍ على الهاتف:

– «هيلين بويل للعقارات. كيف أساعدك؟».

ويقول أوليفانت:

- «هل جرَّبت العدَّ لعشرة؟».

التفاصيل الخاصَّة بأوليفانت أنه بدين ويعرق كثيرًا، تُلَوِّث يده الإعلان الذي يحمله بلونٍ بُنِّي، وأن password هي كلمة السر الخاصَّة بحاسبه الآلي.

أرُدُّ عليه:

- «لقد تجاوزتُ العشرة منذ زمن».

ويقول الصوت على الهاتف:

- «ألو؟».

أكتمُ الهاتف بيدي، وأقولُ لأوليفانت إن هناك ڤيروسًا منتشرًا هذه الأيام في الغالِب، ولهذا السبب غاب هندرسن، وأضيفُ أنني سأعود إلى المنزل، لكنني أعدُ بإرسال التحقيق من هناك.

يتحرَّك فم أوليفانت بكلمة «آخِر موعد الساعة الرابعة»، ويَنقُر بطرف إصبعه على ساعة يده.

أسألُ على الهاتف إن كانت هيلين هوڤر بويل موجودة في المكتب، أقولُ إن اسمي ستريتور وأرغب في رؤيتها في الحال.

أعُدُّ 498... أعُدُّ 499...

يقول الصوت:

- «هل هي على درايةٍ بموضوع اللقاء؟».

نعم، لكنها ستتظاهَر بالعكس.

أقولُ إنها يجب أن تُوقفني قبل أن أقتُل مرَّة أخرى...

ويتراجع أوليفانت خطوتين، قبل أن يُبعِد ناظريه عني ويخطو نحو قِسم التحقيات الخاصَّة، وأعُدُّ 542... أعُدُّ 543...

في طريقي إلى مكتب العقارات، أطلبُ من سائق التاكسي أن ينتظر أمام بنايتي حتى أُحضِر شيئًا من شقَّتي.

البُقعة البنِّية على سقفي أكبر حجمًا. لعلها بحجم إطار سيَّارة الآن، ولها ذراعان وساقان.

في التاكسي، بعد أن عدتُ، أحاولُ أن أربط حزام الأمان، فأجده قصيرًا جدًّا حتى يكاد يَشطُرني، بينما تتدلَّى بطني من فوقه، وأسمع هيلين هوفْر بويل تقول:

- «في منتصَف العُمر، خمسة أقدام وعشر بوصات، مئة وسبعون رطلًا ربما، قوقازي، خضراوان، بُنِّي».

أراها تحت فُقَّاعة شَعرها الوردي تَغمِز لي.

أُملي العنوان على السائق، وأقولُ له أن يقود بالسرعة التي يريدها، لكن ألَّا يُزعِجني بأيِّ شكل.

التفاصيل الخاصَّة بالتاكسي أن رائحته عفِنة، المقعد أسود اللون لزِج. إنه تاكسي.

أقولُ إنني أعاني من مشكلةٍ صغيرةٍ مع الغضب.

فينظر إليَّ السائق في المرآة ويقول:

- «لعل من الخير لك أن تنضم إلى مجموعةٍ لعلاج الغضب».

وأعُدُّ 578... أعُدُّ 579... أعُدُّ 580...

الفصل الرابع عشر

طِبقًا لمجلَّة *Architectural Digest*، فإن القصور الكبيرة المُحاطة بمساحاتٍ واسعةٍ من الخُضرة واسطبلات الخيول الأصيلة مكان ممتاز حقًّا للإقامة. طِبقًا لمجلَّة *Town & Country*، فإن جدائل اللؤلؤ تُضفي عليكِ بريقًا. وطِبقًا لمجلَّة *Travel & Leisure*، فإن امتلاكك يختًا خاصًّا تُبحِر به في مياه البحر الأبيض المتوسِّط المُشمِسة يدعو إلى الاسترخاء.

هذا ما يَعدُّونه في غُرفة الانتظار في مكتب هيلين هوڤر بويل للعقارات أخبارًا عاجلة، يَعدُّونه سبقًا صحافيًّا حقيقيًّا.

نُسَخٌ كثيرة من مجلَّات الطبقة الراقية تلك موضوعة على الطاولة الصغيرة. ثمَّة أريكة ذات ظَهرٍ مائلٍ طراز تشسترفيلد مكسوَّة بالحرير الوردي المقلَّم، والطاولة الموضوعة وراءها لها أرجُل طويلة على شكل أسودٍ تقبض مخالبها على كراتٍ من الزجاج. لا عجب أنك تتساءل أيُّ قِطعٍ من هذا الأثاث جاءت مُجرَّدةً من كلِّ ما هو معدني بعد أن بيعت كخُردةٍ لهيلين هوڤر بويل التي أعادت تجميعها هنا.

ثمَّة امرأة شابَّة في نِصف عُمري تقريبًا تجلس وراء مكتبٍ منقوش

طراز لويس الرابع عشر، تُحَدِّق في راديو مزوَّد بساعةٍ موضوع على المكتب. تقول اللافتة الصغيرة على المكتب إن اسمها مونا سابات. إلى جوار الراديو هناك ماسح راداري يجيش بالموجات الإستاتيكيَّة.

من الراديو يَصدُر صوت امرأةٍ كبيرة تزعق في امرأةٍ أصغر سِنًّا. يبدو أن المرأة الصغيرة قد حملت دون زواج، ولهذا تصفها المرأة الكبيرة بالفِسق والعِهر. تقول الأكبر سِنًّا إنها عاهرة حمقاء، لأن القَذِرة فتحت ساقيها دون أن تتلقَّى أجرًا حتى.

تُغلِق الجالسة على المكتب -مونا- الماسح الرَّداري، وتقول:

- «أتمنى أنك لا تُمانِع، فأنا أحبُّ هذا البرنامج».

هؤلاء المُدمِنون للميديا... هؤلاء المرعوبون من الصَّمت...

تقول المرأة الأكبر سِنًّا على الراديو للأخرى إن عليها أن تقبل أن يتبنَّى غيرها طفلها ما لم تكن تريد تدمير مستقبله. تقول للعاهِرة أن تَنضُج وتُكمِل دراستها للميكروبيولوچي ثم تتزوَّج، وألا تُمارِس الجِنس قبل ذلك ثانيةً أبدًا.

تسحب مونا سابات كيسًا ورقيًّا بُنِّي اللون من تحت المكتب، وتُخرِج منه شيئًا مُغلَّفًا بورق الألومنيوم ثم تفتح الغلاف من طرفٍ واحد، فتتسلَّل إلى أنفك رائحة الثوم والتوابل.

على الراديو لا تكفُّ العاهِرة الحمقاء الحامل عن البكاء.

قد تكسر العِصِيُّ والحجارة عظامك، لكن الكلمات تؤلم جدًّا.

طِبقًا لمقال في *Town & Country*، فإن المراسَلات الشخصيَّة المكتوبة بخطِّ يدٍ مُنمَّق على ورقٍ فاخِر قد عادت، عادت، عادت من جديد. وفي

نُسخةٍ من مجلَّة *Estate* ثمَّة إعلان يقول عنوانه: «**الرجاء الانتباه... لمُرتادي نادي برايدل ماونتن للفروسيَّة والپولو**»، ويقول متنه: «هل أصبتم بعدوى طفيليَّة في الجِلد من جرّاء امتطاء الخيول في هذا المكان؟».

رقم الهاتف لم أره من قبل، بينما تقول المرأة إياها على الراديو للعاهِرة أن تَكُفَّ عن البكاء.

ها هو الأخ الأكبر يُغَنِّي ويَرقُص، يَعلِفك قسرًا كي لا يجوع عقلكَ للتفكير أبدًا.

تسند مونا سابات مِرفقيها إلى المكتب وتقبض على غدائها وهي تميل ناحية الراديو. يرنُّ الهاتف، فتَرُدُّ قائلةً:

- «هيلين بويل للعقارات، البيت المناسِب كل مرَّة».

ثم تقول:

- «أويستر، آسفة. إنني أسمع برنامج الدكتورة سارة الآن. سأراك أثناء الطقوس».

وتَصِمُ امرأة الراديو الفتاة الباكية بالحقارة.

ويقول غلاف مجلَّة *First Class* إن صيد السَّمُّور من أجل فروه جريمة مُبرَّرة.

أجلس نِصف مُصغٍ للراديو ونِصف مُهتَمٍّ بالقراءة، وتنطلق الأغنيَّة التعويذة في رأسي بسرعة إصابتك بالفُواق.

كلُّ ما تسمعه من الراديو هو بكاء فاتحة ساقيها المتواصِل.

وبدلًا من صوت المرأة الأكبر سِنًّا ليس هناك إلَّا الصَّمت. صمتٌ ذهبيٌّ عذبٌ أكمَل من أن يكون هناك أحياء في حضوره.

تلتقط الساقِطة نفسًا عميقًا وتقول:

- «دكتورة سارة؟ دكتورة سارة، أما زلتِ هنا؟».

ثم يأتي صوت رخيم يقول إن برنامج الدكتورة سارة لونستاين يمر بعُطلٍ فنِّي مؤقَّت، ثم يعتذر الصوت الرخيم، وبعد لحظةٍ يَصدُر من الراديو صوت موسيقى راقصة.

يقول غلاف مجلَّة *Manor-Born* إن الماس أفضل رفيق للملابس الكاچوال!

وأدفنُ وجهي في يديَّ وأئِنُّ...

تُقَشِّر مونا الغلاف عن طعامها وتأخذ قضمةً أخرى، ثم تُغلِق الراديو وتُغمغِم:

- «هذا مؤسِف».

على ظَهر يديها تمتدُّ تصميمات الحِنَّاء ذات اللون البُنِّي الصدئ إلى أصابعها المُحاطة كلها بالخواتم الفِضِّيَّة، بينما تُطَوِّق عُنقها سلاسل كثيرة من الفِضَّة تختفي داخل فتحة فستانها، فترى قماش فستانها البرتقالي وقد برزت القلادات من تحته فوق صَدرها. أما شَعرها فعبارة عن ألف خُصلةٍ وجديلةٍ من الأحمر والأسود مُثبَّتة بالدبابيس فوق القِرطين الفِضِّيَّيْن في ثُقبيِّ أذنيها. عيناها بلون الكهرمان، وأظفارها سوداء تمامًا.

أسألها إن كانت تعمل هنا منذ فترةٍ طويلة، فتَرُدُّ:

- «بتوقيت كوكب الأرض تعني؟».

ثم تُخرِج كتابًا ذا غلافٍ ورقي من دُرجٍ في مكتبها، وتخلع غطاء قلم تحديد أصفر فاقع وتفتح الكتاب.

أسألها إن كانت مسز بويل تتكلَّم عن الشِّعر، فتقول مونا:

- «تَقصُد هيلين؟».

نعم، هل تتلو أبياتًا من الشِّعر مثلًا؟ هل تتَّصل بأيِّ أحدٍ من مكتبها وتقرأ عليه قصيدةً ما؟

تقول مونا:

- «لا تُسئ فهمي، لكن أكثر ما يهمُّ مسز بويل في أيِّ شيءٍ في الدنيا هو الجانِب المادِّي، هل تفهمني؟».

يجب أن أبدأ العد... أعُدُّ 1... أعُدُّ 2...

- «هكذا هي. عندما يكون الطريق مزدحِمًا بالسيَّارات، تجعلني مسز بويل أركب معها، فقط لتستغلَّ الحارة التي تتحرَّك فيها السيَّارات التي تحمل أكثر من شخصٍ واحد، ثم أركب أنا ثلاث حافلاتٍ كي أصل إلى منزلي. هل وصلتك الصورة؟».

أعُدُّ 4... أعُدُّ 5...

وتقول مونا:

- «ذات مرَّة تكلَّمنا بحرارةٍ عن اهتمامنا المشترَك بقوَّة الكريستال، وبدا لي أننا بدأنا نتواصل أخيرًا بشكلٍ ما، فقط ليتَّضح أننا كنا نتكلَّم عن شيئين مختلفين تمامًا».

ثم أنهضُ على قدميَّ، وأفتحُ ورقة أخرجتها من جيبي الخلفي، وأريها القصيدة وأسألها إن كانت تبدو مألوفةً لها.

يقول جزء مُحدَّد بالأصفر في الكتاب الموضوع على مكتبها: «السِّحر هو توفيق الطاقة المطلوبة من أجل التغيير الطبيعي».

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تتحرَّك عيناها الكهرمانيَّتان مع كلمات القصيدة، وأرى فوق فتحة صدر فستانها، فوق عظمة الترقوة اليُمنى مباشرةً، وشمًا يُمثِّل ثلاث نجومٍ سوداءٍ صغيرة. إنها تجلس واضعةً ساقًا على ساقٍ في مقعدها الدوَّار، قدماها حافيتان مُتَّسختان، وخاتم من الفِضَّة يحيط بكلٍّ من الإصبعين الكبيرين.

تقول وهي تَمُدُّ يدها:

- «أعرفُ ماذا تكون هذه».

وقبل أن تقبض أصابعها عليها، أطوي الورقة وأعيدها إلى جيبي الخلفي، لكن مونا لا تخفض يدها، بل تشير إليَّ بسبَّابتها وتقول:

- «لقد سمعتُ عن هذه الأغاني من قبل. إنها تعويذة، أليس كذلك؟».

يقول جزء مُحدَّد بالأصفر في الكتاب الموضوع على مكتبها: «أقصى تبعات الموت هي أنه يفضي إلى ميلادٍ جديد».

على سطح المكتب المصنوع من خشب الكرز المصقول ثمَّة شِق طويل عميق.

أسألها: ما الذي يُمكنها أن تُخبِرني به عن تلك القصائد السحريَّة؟

- «إنها مذكورة في نصوص السِّحر كلها».

وتَهِزُّ كتفيها مضيفةً:

- «لكن من المفترَض أنها ضاعت».

وتَمُدُّ لي يدها مُجدَّدًا وتقول:

- «دعني أراها مرَّة أخرى».

أسألها: كيف تعمل تلك القصائد؟

تُحرِّك أصابعها بمعنى أن أناوِلها الورقة، فأهِزُّ رأسي نفيًا، وأسألها: كيف يُمكن للأغنيَّة أن تَقتُل أيَّ أحدٍ ولا تَقتُل من يُردِّدها؟

فتحني رأسها بعض الشيء وترمقني وتقول:

- «لِمَ لا يقتل المسدَّس الشخص الذي يضغط الزناد؟ إنه المبدأ نفسه».

وترفع ذراعيها فوق رأسها وتتمطَّى، وتلوي يديها إلى أعلى وتستطرد:

- «إنها لا تعمل كوصفة في كتاب طهي، ولا يُمكنك فحصها وتحليلها بميكروسكوپ إلكتروني».

فستانها بلا أكمام، والشَّعر تحت إبطيها ذو لون بُنِّيٍّ تقليدي.

أسألها: وكيف تعمل الأغنيَّة مع شخصٍ لا يسمعها حتى؟

وأنظر إلى الراديو، وأتساءل: كيف تعمل التعويذة دون ترديدها بصوتٍ عالٍ؟

تتنهَّد مونا سابات وتقلب كتابها وتضعه على المكتب وتضع قلم التحديد وراء أذنها، ثم تفتح دُرجًا وتلتقط منه قلمًا وورق كتابة، وتقول:

- «يبدو أنك لا تملك أدنى فكرة عن أيٍّ شيء، أليس كذلك؟».

وتكتب على ورقةٍ وتقول:

- «عندما كنتُ أعتنق الكاثوليكيَّة -وهذا منذ سنوات- كنتُ أستطيع ترديد «السلام عليك يا مريم» في سبع ثوانٍ فقط، و«أبانا الذي في السماء» في تسع ثوانٍ. عندما تَطلُب الكفَّارة عشرات المرَّات مثلي،

فإنك تُصبِح سريعًا، وعندما تُصبِح سريعًا فإنها لا تعود كلمات، لكنها تَظَلُّ صلاةً على كلِّ حال».

- «كلُّ ما تفعله التعويذة هو تركيز النِّيَّة على شيءٍ ما»، تقول مونا هذا ببطءٍ شديد، تضغط على كلِّ كلمة، ثم تَصمُت لحظةً وتُرَكِّز نظراتها على عينيَّ، وتقول:

- «إذا كانت نِيَّة من يلقي التعويذة قويَّة كفايةً، سيَخُرُّ هدف التعويذة نائمًا أينما كان».

تقول:

- «كلما كانت المشاعر المعبَّأة المكبوتة أكثر، كلما كانت التعويذة أقوى».

وتُضيِّق مونا سابات عينيها وترمقني متسائلةً:

- «متى كانت آخِر مرَّةٍ نمت فيها مع امرأة؟».

منذ عِقدين من الزمن تقريبًا. لكني لا أقولُ لها ذلك.

تقول مونا:

- «تخميني أنك كقنبلةٍ موقوتة على وشك الانفجار لسببٍ ما... الحزن... الغضب... شيء ما».

وتتوقَّف عن الكتابة، ثم تتصفَّح كتابها المليء بالعلامات الصفراء، وتتوقَّف عند صفحةٍ تقرأ ما فيها لحظات، ثم تقلبها وتقرأ في صفحةٍ أخرى، وتقول:

- «الشخص المتوازِن العاقل عليه أن يُردِّد الأغنيَّة بصوتٍ عالٍ كي يجعل أحدهم ينام».

وتعقد حاجبيها وهي لا تزال تقرأ، وتضيف:

- «إلى أن تتعامل مع مشاكلك الشخصيَّة الحقيقيَّة، فإنك لن تتمكَّن من التحكُّم في نفسك أبدًا».

أسألها إن كان كتابها يقول كلَّ هذا، فتجيب بأن معظمه عرفته من الدكتورة سارة.

وأقولُ لها إن تأثير تعويذة الاجتباء لا يقتصر على النوم فحسب، فتسألني عما أعنيه.

أعني أن المُستَهدَفين بالأغنيَّة يموتون...

أسألها: هل هي متأكِّدة أنها لم ترَ هيلين بويل قَط ومعها كتاب اسمه «قصائد وأغانٍ من حول العالم»؟

وتعود يدا مونا سابات إلى المكتب لتلتقط طعامها الملفوف في ورق الألومينيوم، وتقضم منه مُحدِّقَة في الراديو، قبل أن تقول:

- «ما حدث الآن على الراديو... أكان هذا أنت؟».

وأومئ برأسي إيجابًا.

- «أنت أجبرت الدكتورة سارة على أن تُبعَث من جديد؟».

أسألها إن كان يُمكنها الاتِّصال بهيلين هوڤر بويل الآن وإخبارها بأنني أريدُ التحدُّث إليها.

وفي اللحظة نفسها يبدأ جهاز الاستدعاء في الرنين.

وتقول مونا هذه:

- «تقول إذن إن هيلين تستخدم تلك التعويذة؟».

وتقول الرسالة على جهاز الاستدعاء أن أتَّصل بناش لأمرٍ مهم.

أجيب مونا بأنني لا أستطيع إثبات أيِّ شيء، لكن مسز بويل تعرف كيف. أقولُ إنني أحتاج مساعدتها كي أتمكَّن من التحكُّم في الأغنية، كي

أتمكَّن من السيطرة على نفسي.

وتتوقَّف مونا سابات عن الكتابة، وتُمزِّق الورقة وترفع يدها بها نحوي قائلةً:

- «إذا كنت جادًّا وترغب في تعلُّم كيفيَّة التحكُّم في تلك القُدرة، فيجب أن تحضر طقوسًا يقيمها ممارسو الويكا[1]».

وتُلوِّح بالورقة نحوي مضيفةً:

- «ستكون في حَضرة ألف عام من الخِبرة في غُرفةٍ واحدة».

تفتح مونا الماسح الرَّداري، وآخذُ الورقة لأجد بها عنوانًا وموعدًا باليوم والساعة.

يقول الجهاز: «الوحدة براڤو-9، يُرجى الاستجابة لكود 9-14 في لومس پلايس، الشقَّة 5D».

تقول مونا:

- «تحتاج عُمرًا كاملًا لتعلُّم العُمق الرُّوحاني لهذه المعرفة».

وتُقشِّر المزيد من ورق الألومينيوم عن طعامها، قبل أن تضيف:

- «آه، ولا تنسَ أن تُحضِر معك طبقك الساخِن المفضَّل الخالي من اللحوم».

ويُردِّد الجهاز: «حوِّل».

(1) الويكا ديانة وثنيَّة جديدة تم إشهارها سنة 1954 على يد چيرالد جاردنر، وتنتشر الآن في العديد من دول العالم. ادَّعى جاردنر أن الويكا امتداد لديانة سحر استمرَّت في السِّر مئات السنين،رجوعًا إلى الوثنيَّة قبل المسيحية فيأوروپا، ولهذا يُطلَق على الويكا أحيانًا اسم الديانة القديمة.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الفصل الخامس عشر

تُخرِج هيلين هوڤر بويل هاتفها المحمول من حقيبتها ذات اللونين الأخضر والأبيض المُعلَّقة من مِرفقها، ثم تُخرِج بطاقة عمل وتنقل عينيها بينها وبين الهاتف وهي تَطلُب الرقم المدوَّن عليها، وتلمع أزرار الهاتف الخضراء الصغيرة في الضوء الخافِت. أخضر لامع مع ورديٍّ أظفارها. البطاقة لها حافة ذهبيَّة.

تضغط الهاتف على أذنها في أعماق شَعرها الوردي الكثيف، وتقول:

- «نعم، أنا في مكانٍ ما في متجركم الجميل، وأخشى أنني أحتاج من يُساعِدني على العثور على طريق الخروج».

وتنحني لتقرأ البطاقة التعريفيَّة المُثبَّتة على خزانةٍ بضِعف حجمها، وتقول على الهاتف:

- «إنني واقفة أمام... أمام خزانة نيو كلاسيكال طراز آدم، بها خراطيش من الأرابِسك المُطعَّم بالبرونز المطلي بالذَّهب».

وتنظر إليَّ، وتقول على الهاتف:

- «سِعرها سبعة عشر ألف دولار».

تخلع حذاءها الأخضر طويل الكعبين، وتقف بقدمين مُنبَسِطَتَيْن على الأرضيَّة الإسمنتيَّة وقد ارتدت زوجًا من الجوارب الطويلة البيضاء الشفَّافة. إنه ليس البياض الذي يجعلك تُفكِّر في الملابس الداخليَّة، بل في بياض البشرة من تحته بالأحرى. الجوارب تجعل أصابع قدميها تبدو وكأنها ذات أغشيةٍ كأقدام الإوز.

ترتدي هيلين بذلة تضيق تنورتها على الفخذين. إنها خضراء اللون، لكنه ليس اخضرار حبَّة الليمون الأخضر، بل بالأحرى اخضرار فطيرة الليمون البلدي، ليس اخضرار حبَّة الأڤوكادو، بل اخضرار حساء الأڤوكادو الذي تطفو على وجهه شريحة من الليمون رقيقة كورقة، ويُقدَّم مُثلَّجًا في وعاءٍ أصفر من الپورسلين الفرنسي.

اخضرار طاولة البلياردو تحت الكُرة أصفر 1، وليس الكُرة أحمر 3.

أسأل هيلين هوڤر بويل عما يعنيه الكود 9-14، فتجيب:

- «جُثَّة».

فأقولُ إنني خمَّنتُ هذا.

وتقول هي على الهاتف:

- «وهل أنعطِف يمينًا أم يسارًا عند التسريحة الهِپلوايت المصنوعة من خشب الورد؟ ثمَّة نقوش تُمثِّل أوراق نخيلٍ عليها، ومُبطَّنة بالحرير المعالَج».

وتضع يدها على الهاتف، وتميل نحوي قائلةً:

- «أنت لا تعرف مونا. أشكُّ أن حفل السَّحرة الصغير هذا سيكون أكثر من مجرَّد مجموعة من الهيپيين يرقصون عرايا حول صخرة».

من هذه المسافة القريبة أرى أن شَعرها ليس ورديًّا خالِصًا، فكلُّ خُصلةٍ منه ذات لونٍورديٍّ أفتح عند حافَّته الخارجيَّة، بينما كلما نظرت أكثر إلى الداخل سترى أن هناك درجاتٍ من الوردي المتورِّد ولون الخوخ والقرنفل والأحمر الفاتح.

تقول على الهاتف:

- «وإذا تجاوزتُ الكرسي الهزَّاز المزيَّن بشعارات النَّبالة العاجيَّة طراز كروموِيل، أكون قد ابتعدتُ. مفهوم».

وتقول لي:

- «ليتك لم تُخبِر مونا. سوف تُخبِر هي صاحبها، والآن لن أخلُص منها».

ترتصُّ قِطع الأثاث في متاهةٍ ضيِّقة حولنا، الألوان كلها بُنِّيَّة وحمراء وسوداء، بريق اللون الذَّهبي والمرايا هنا وهناك.

تضع هيلين بويل الخاتم السوليتير ذا الماسة الكبيرة الماضية في إصبعها، وتُدَوِّره حتى تُصبِح الماسة ناحية راحة يدها، وتضغط بالرَّاحة على وجه الخزانة، وتَحفُر سهمًا يشير إلى اليسار.

تحفُر أثرًا برَّاقًا في حِقَب التاريخ.

وتَشكُر من تُكلِّمه على الطَّرف الآخَر من الخَطِّ، وتُغلِق الهاتف وتضعه في حقيبتها.

العُقد حول عُنقها يتكوَّن من أحجارٍ خضراء ما، بالتبادُل مع خرزاتٍ مصنوعة من الذَّهب، وتحت هذا جدائل من اللؤلؤ. لم أرَ هذا النوع من الجواهر من قبل.

تضع قدميها في حذائها مرَّة أخرى، وتقول:

- «أرى أن عملي من الآن فصاعِدًا سيكون إبعادك عن مونا».

وتَنفُش الشَّعر الوردي فوق أذنيها قائلةً:

- «اتبعني».

يدها مبسوطةٌ، تَحفُر بها سهمًا في سطح طاولةٍ تقول البطاقة المثبَّتة عليها إنها طاولة كتابة طراز شيراتون، مصنوعة من السَّنديان ومزوَّدة بإطارٍ من النحاس المنقوش.

طاولة صارت معاقةً الآن.

تقود هيلين هوفر بويل الطريق، وتقول:

- «أتمنَّى أن تنسى هذه المسألة برُمَّتِها. إنها ليست من شأنك حقًّا».

أقولُ: لأنني مجرَّد مُراسِل صحافي في رأيها، لأنني بالتحديد مُراسِل صحافي يقتفي أثر تحقيقٍ لا يستطيع أن يُخاطِر بنشره على العالم، لأن هذا -في أفضل الحالات- يجعلني مُتلصِّصًا، وفي أسوأها يجعلني وحشًا.

تتوقَّف أمام خزانة ملابس ضخمة ذات مرايا على الأبواب، ومن ورائها أرى انعكاسي فوق كتفها. تفتح حقيبتها وتُخرِج منها أنبوبًا ذهبيًّا صغيرًا، وتقول:

- «هذا ما أعنيه بالضبط».

تقول البطاقة المُصاحِبة للخزانة إنها مُصمَّمة على طراز إحياء الفن الفرنسي المِصري، الألواح عليها زخارف على شكل أوراق النَّخيل من الورق المقوَّى المضغوط، ومُطعَّمة بأحجارٍ متعدِّدة الألوان.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أراها في المرآة تلوي الأنبوب الذَّهبي إلى أن يَخرُج منه إصبع من طلاء الشفاه الوردي.

ومن مكاني وراءها أسألها: وماذا لو لم تكن مهنتي هي هويَّتي؟

لعلي لستُ مجرَّد حيوانٍ ضارٍ محدود الرؤية يستغل موقفًا مثيرًا للاهتمام.

لسببٍ ما يَخطُر چون ناش ببالي...

أقولُ إن من المحتمَل أنني لاحظتُ وجود الكتاب أصلًا لأني كنتُ أملك نُسخةً منه. ربما كانت لي زوجة وابنة، فماذا لو أنني قرأتُ القصيدة اللعينة عليهما ذات ليلةٍ بغرض أن تَخلُدا إلى النوم؟ أتكلَّم مجازًا طبعًا، لكن ماذا لو قتلتهما؟ أهذا هو نوع أوراق الاعتماد التي تبحث عنه؟

تَمُطُّ شفتها إلى أعلى وأسفل، وبإصبع طلاء الشفاه تَمَسُّ اللون الوردي الذي يكسو شفتها بالفعل.

أدنو منها بخطوةٍ واحدةٍ عرجاء، وأسألها: هل يجعلني هذا جريحًا بما فيه الكفاية في قاموسها؟

كتفاها مستويتان تمامًا، وتُدَلِّك شفتيها ببعضهما البعض، ثم تفترق الشفتان ببطءٍ وقد التصقتا معًا لحظةً أخيرةً. حاشا لله أن يعاني أحدٌ أكثر من هيلين هوڤر بويل!

وأقولُ: لعلي خسرتُ أشياء كما خسرَت.

وتُغلِق هي إصبع طلاء الشفاه وتُلقيه في حقيبتها، ثم تلتفت لتُواجِهني. تقف هناك لامعةً ثابتةً، وتسألني:

- «مجازًا؟».

فأرسم ابتسامةً على وجهي وأؤكِّد الكلمة. تضع يدها المفتوحة على الخزانة وتَحفُر سهمًا مشيرًا إلى اليمين، وتبدأ في المشي مُتهاديةً وهي تَجُرُّ يدها على الدواليب والمكتبات والتسريحات، كلها مُعالَج بالشَّمع ومصقول، وتُخَرِّب هي كلَّ شيءٍ تلمسه.

تقودني وتقول:

- «هل حدث وتساءلتَ عن منشأ تلك القصيدة؟».

إفريقيا، أجيبها وأنا أمشي وراءها مباشرةً.

فتقول ونحن نَمُرُّ بڤاترينات الأسلحة والمكتبات والكراسي الرَّحبة:

- «لكن ماذا عن الكتاب الذي جاءت منه أصلًا؟ السَّحرة يُطلِقون على مجموعة التعاويذ الخاصَّة بهم اسم «كتاب الظِّلال»».

أقولُ لها إن كتاب «قصائد وأغانٍ من حول العالم» نُشِرَ منذ عشرين عامًا، فقد فتَّشتُ عن معلوماتٍ عنه. طُبِعَت من الكتاب خمسمئة نُسخة، ومنذ ذلك الحين أشهرَ الناشر -كيندرهاوس پرِس- إفلاسه. أما ألواح الطباعة وحقوق النَّشر فتعود لشخصٍ ما اشتراها من القائمين على ميراث المؤلِّف الأصلي. توفِّي المؤلِّف منذ ثلاث سنواتٍ تقريبًا دون سببٍ واضِح. لا أدري إن كان الكتاب قد صار ملكيَّة عامَّة، ولم أستطِع العثور على من يملك حقوقه الآن.

وتَجُرُّ هيلين هوڤر بويل ماستها على سطح مرآةٍ عريضة ذات حافة مشطوفة، وتقول:

- «أنا أملكُ الحقوق... وأعرفُ ما ترمي إليه. لقد اشتريتُ الحقوق منذ ثلاث سنوات، واستطاع تُجَّار الكُتب العثور على نحو ثلاثمئة نُسخة من أصل خمسمئة، وقد أحرقتها جميعًا».

ثم تضيف:

- «لكن ليس هذا هو المهم».

وأقولُ: أتَّفقُ معكِ، المهمُّ الآن هو العثور على النُّسخ المتبقية واحتواء هذه الكارثة، أن نتحكَّم في الخسائِر، المهمُّ أن نتعلَّم طريقةً لننسى نحن أنفسنا القصيدة، ولعل هذا ما تستطيع مونا سابات ومجموعتها أن تُعَلِّمنا إياه.

تقول هيلين:

- «بالله عليك! أما زلت تنوي الذَّهاب إلى حفل السَّحرة هذا؟».

ثم تسألني:

- «ما الذي وجدته بخصوص مؤلِّف الكتاب الأصلي؟».

كان اسمه بازل فرانكي، ولم يكن هناك شيءٌ خاص يُميِّزه. كلُّ ما كان يفعله أنه يَعثُر على القصص التي سقطت حقوق ملكيَّتها ولم تَعُد تُطبَع، ويجمعها معًا في أنطولوچيَّات: سونِتَّات قديمة من القرون الوُسطى، نِكات فاحِشة، أغاني مَهد. بعض النُّصوص سرقه من كُتبٍ قديمة عثر عليها، وبعضها جاء به من الإنترنت. لم يكن يُدقِّق في اختياراته كثيرًا، وكلُّ ما كان يستطيع الحصول عليه مجَّانًا كان يَحشُره في كتاب.

- «لكن ماذا عن مصدر هذه القصيدة بالذَّات؟».

لا أدري. هو غالبًا كتاب قديم مدفون في صندوقٍ في قبو منزلٍ ما.

تقول:

- «ليس منزل فرانكي. لقد اشتريت المكان كله. كانت القمامة لا

تزال في السَّلَّة تحت حوض المطبخ، وثيابه الداخليَّة مطويَّة في دُرج التسريحة. كلُّ شيءٍ كان في مكانه، لكن الكتاب لم يكن هناك».

ويجب أن أسألها: هل قتلته هو أيضًا؟

وتقول:

- «إذا تكلَّمنا مجازًا، إذا كنتُ قد قتلتُ زوجي بعد أن قتلت ابني، أفلن أشعر بالغضب لأن لِصًّا أحمقَ كسولًا جَشِعًا قد زرع القنبلة التي نسفت كلَّ مَن أحب؟».

تمامًا كما قتلت الزوجين ستيوارت، مجازًا.

- «ما أقصده أن «كتاب الظِّلال» الأصلي لا يزال موجودًا في مكانٍ ما».

- أتَّفقُ معكِ، ولا بُدَّ أن نعثر عليه ونُدَمِّره.

وتبتسم هيلين هوڤر بويل ابتسامتها الورديَّة، وتقول:

- «لا بُدَّ أنك تمزح».

تقول:

- «لا يكفي أن تملك قوَّة الحياة والموت. عليك أن تتساءل عن القصائد الأخرى التي يحويها الكتاب».

لا أفعل شيئًا سوى التحديق فيها وثقل جسمي كله على قدمي السليمة، وبسرعة طرفة العين أقولُ: لا.

تقول:

- «ربما يُمكنك الحياة إلى الأبد».

وأقولُ: لا.

- «ربما يُمكنك أن تجعل أيَّ أحدٍ تريده يُحِبُّك».

- لا.

- «ربما يُمكنك تحويل القَشِّ إلى ذهب».

وأكرِّرُ لائي وأدور على عقبيَّ.

- «ربما يُمكنك تحقيق السلام العالمي».

وأقولُ: لا، وأتحرَّكُ بين جدران الخزانات والمكتبات، بين ألواح الزجاج والخشب، وأمضي في وادٍ آخَر من الأثاث.

وتُنادي من ورائي:

- «ربما يُمكنك تحويل الرَّمل إلى خُبز».

وأواصل العَرَج مُبتعِدًا.

وتُنادي من ورائي:

- «إلى أين أنت ذاهب؟ طريق الخروج من هنا».

أنعطفُ يمينًا عند ڤاترينةٍ أيرلنديَّة الطراز مصنوعة من خشب الصَّنوبر وذات سطحٍ غائِر، ثم يسارًا عند خزانةٍ صغيرةٍ طراز تشيپندِل مطليَّة بالورنيش الأسود.

وتُنادي من وراء كلِّ شيء:

- «ربما يُمكنك علاج المرضى. ربما يُمكنك شفاء المعاقين».

أنعطفُ يمينًا عند خوانٍ بلچيكي الطراز فيه كورنيش يضم قوالب على أشكال بيضٍ وأسهُم، ثم يسارًا عند ڤاترينةٍ من الطراز الإدواردي بداخلها جداريَّة من الزجاج على الطراز البوهيمي.

ويُطارِدني الصوت قائلًا:

- «ربما يُمكنك القضاء على تلوُّث البيئة وتحويل العالم إلى جنَّة».

يشير السهم المحفور في طاولةٍ صغيرة ذات قشرةٍ رقيقة إلى اتِّجاه، فأسلكُ الاتِّجاه الآخَر.

ربما يُمكنك توليد طاقة نظيفة غير محدودة...

ربما يُمكنك السَّفر عبر الزمن لمنع مأساةٍ ما، أو لتتعلَّم، أو لتلتقي أناسًا من هنا وهناك...

ربما يُمكنك أن تمنح الناس حياةً سعيدةً هنيئةً كاملةً...

ربما لم يَعُد يكفي أن تمشي عارِجًا في شقَّتك الصاخِبة ما تبقَّى لكَ من عُمر...

يشير السهم المحفور على حاجِز لتغيير الملابس قابلٍ للطَّي ذي زخارفٍ سوداء إلى طريق، فأمضي في الاتِّجاه المعاكِس.

يرنُّ جهاز الاستدعاء من جديد. إنه ناش.

ويقول الصوت:

- «إذا كنت تستطيع أن تَقتُل أحدًا، فربما يُمكنك إعادته إلى الحياة».

ربما تكون هذه فُرصتي الثانية.

يقول الصوت إن من الجائِز أن المرء لا يَدخُل جهنَّم بسبب الأشياء التي فعلها، بل ربما بسبب الأشياء التي لم يفعلها، الأشياء التي يبدأها ولا يُنهيها.

يرنُّ جهاز الاستدعاء من جديد، وتقول الرسالة إن الأمر مُهِم.

وأواصِلُ المشي على قدمٍ كسيحة.

الفصل السادس عشر

ناش ليس واقفًا إلى المشرب، بل أجده جالسًا بمُفرده في الظلام إلى طاولةٍ صغيرة في مؤخِّرة البار، وثمَّة شمعة صغيرة مُضاءة على الطاولة، وأبادِره قائلًا إنني تلقَّيتُ مئة ألف رسالة منه على جهاز الاستدعاء، فما الدَّاعي شديد الأهميَّة؟

على الطاولة جريدة مطويَّة يقول عنوانها الرئيس: «**وفاة سبعة بوباءٍ غامض**»، ويقول العنوان الفرعي: «**اعتقاد بأن المُحرِّر المحلِّي القدير والزعيم الشعبي هو أول الضحايا**».

أقرأُ كي أعرف من يقصدون، لأجده دنكان، ويتَّضح لي للمرَّة الأولى أن اسمه الأول كان لِزلي. لا أدري من أين جاءوا بهذا الكلام عن «القدير» و«الزعيم»!

أين ذهبت الأيام التي كان الصحافي فيها وراء الخبر، لا موضوعه؟

يَنقُر ناش على الجريدة بأصابعه، ويقول:

- «أترى هذا؟».

أقولُ إنني قضيتُ فترة بَعد الظُّهر كلها خارِج المكتب، و... تبًّا! نسيتُ إرسال الحلقة الجديدة من ملفِّ الموت في المَهد.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أقرأُ الصفحة الأولى، لأجدهم كتبوا أنني قلتُ عن دنكان إنه «كان أكثر من مجرَّد مُحرِّري، وأكثر من أستاذي، إذ كان لِز لي دنكان بمثابة أبٍ لي». عليه اللعنة أوليفانت بيديه المُبلَّلتين بالعَرق دائمًا!

تجتاحني أغنيَّة المَهد بسرعة القشعريرة وترسم خطًّا من الجليد بطول ظَهري كله، ويرتفع عدد الجُثث. لا بُدَّ أن أوليفانت ينطرِح أرضًا أو ينقلِب في مقعده في مكانٍ ما الآن. مشاكلي مع الغضب تُكَشِّر عن أنيابها من جديد.

كلما مات أناسٌ أكثر، كلما ظلَّ كلُّ شيءٍ كما هو.

على الطاولة هناك طبق ورقيٌّ فارِغ فيه ورقة شمع مُلطَّخة ببقايا سَلطة البطاطس الصفراء، وبين يديٍّ ناش منديل ورقي أخذ يلويه ويثنيه حتى حوَّله إلى ما يُشبِه حبلًا سميكًا طويلًا.

ينظر ناش إليَّ عبر ضوء الشمعة، ويقول:

- «نقلنا جُثَّة ذلك الرجل في بنايتك ظُهر اليوم. بين قِططه والصراصير، لم يتبقَّ الكثير مما يُمكن تشريحه».

يقول ناش عن الرجل الذي رأيناه يَسقُط هنا هذا الصباح، الرجل ذي السوالِف والهاتف المحمول، إن الطبيب الشرعي عاجز عن التوصُّل إلى تفسير... ويضيف أن ثلاثة أشخاص سقطوا موتى بين مكاننا هذا والجريدة بعد ذلك.

- «ثم إنهم وجدوا واحدًا آخَر في بنايةِ الجريدة نفسها. مات وهو ينتظر المصعد».

يقول إن الطبيب الشرعي يعتقِد أنهم ماتوا جميعًا للسَّبب نفسه، يقولون إنه وباء.

- «لكن الشُّرطة واثقة بأنها المخدِّرات، السكسنيل كولين غالبًا، سواء تعاطوه بأنفسهم أم حقنهم أحدٌ به. إنه عامل مُعطِّل للاتِّصال العصبي العضلي، يجعلك تسترخي لدرجة أنك تتوقَّف عن التنفُّس وتموت بنقص الأوكسچين».

المرأة، تلك التي كانت وراء الحاجِز الخشبي أثناء تصوير الفيلم، التي انطلقت نحوي وقد رفعت يدها، تلك التي كانت تحمل الووكي-توكي. التفاصيل الخاصَّة بها أنها كانت تملك شَعرًا أسود طويلًا، وترتدي بلوزة ضيِّقةً فوق نهدين شامِخين، وچينز يحتوي ردفين لا بأس بهما على الإطلاق. من المحتمَل أن ناش قد عاش نزوةً صغيرةً معها في الطريق إلى المستشفى.

غزوة أخرى.

أيًّا كان ما يتلهَّف ناش على إخباري به، فلا أريدُ أن أعرف.

يقول:

- «لكن رأيي أن الشُّرطة مخطئة».

ويُمرِّر المنديل المعقود كالحبل بحركةٍ سريعة في لهب الشمعة، فيتراقص اللهب ويرتفع منه خيطٌ من الدخان الأسود. ثم يستقرُّ اللهب، ويقول ناش:

- «إذا كنت تُفكِّر في تولِّي أمري كما تولَّيت أمر الآخَرين، فعليك أن تعلم أنني كتبتُ خطابًا أشرحُ فيه كلَّ شيءٍ أعرفه حتى الآن، وتركته لدى صديق».

فأبتسمُ وأسأله عما يعنيه. ما الذي يعرفه؟

ويضع ناش حافة منديله المعقود فوق اللهب بمسافةٍ صغيرة، ويقول:

- «أعرفُ أنك كنت تعرف بموت جارك، أعرفُ أنني رأيت رجلًا يسقط ميتًا في هذا البار وأنت تنظر إليه، ثم مات أربعة آخَرون عندما مررت بهم في طريق العودة إلى عملك».

تكتسب حافة الورقة اللون البُنِّي، ويقول ناش:

- «نعم، ليس هذا بالكثير، لكنه أكثر مما لدى الشُّرطة حاليًّا».

يشتعل اللهب في الحافة، لهب صغير جدًّا، ويقول ناش:

- «ربما يُمكنك سدَّ الثغرات للشُّرطة».

تَكبُر شُعلة اللهب، وثمَّة أناسٌ كثيرون هنا سيلاحِظ أحدهم بالتأكيد. عندما يرون ناش جالسًا هنا يُشعِل لهبًا في بار، فسيَطلُب أحدهم الشُّرطة لا شكَّ.

وأقولُ إنه مُضلِّل...

والشُّعلة الصغيرة تتعاظَم...

والسَّاقي ينظر نحونا، وفتيل ناش المشتعِل يَقصُر ويَقصُر...

وناش يُراقِب النار في يده وقد خرجت عن السيطرة...

حرارتها على شفتيَّ، دخانها في عينيَّ...

والسَّاقي يَصرُخ:

- «أنت! كُفَّ عن العبث!».

ويدنو ناش بالشُّعلة من الورقة الشمعيَّة في الطبق الورقي على الطاولة...

وأُطبِق على مِعصمه وأرى كُمَّ يونيفورمه مُلوَّثًا ببُقَع المسطردة الصفراء، وأحسُّ بالجِلد من تحته ناعمًا رخوًا، وأقولُ:

- «حسن، توقَّف، انتهينا؟».

أقولُ إن عليه أن يَعِدني بألَّا يُفشي السِّرَّ أبدًا.

ومال زال الفتيل يحترق بيننا، ويقول ناش:

- «بالتأكيد».

يقول:

- «أعدُك».

الفصل السابع عشر

تمشي هيلين بكأسٍ من النبيذ في يدها، والكأس شِبه فارغة، ما خلا ثمالة من الأحمر في القاع.

وتقول مونا:

- «من أين أتيتِ بهذا؟».

ترتدي هيلين معطفًا سميكًا من الفراء بدرجاتٍ مختلفةٍ من اللون البُنّي لُوِّنَت حوافُّه بالأبيض. المعطف مفتوح من الأمام، يَكشِف عن بذلةٍ لونها أزرق فاتح. تَرشِف هيلين آخِر ما تبقّى من النبيذ في الكأس، وتقول متسائلة:

- «شرابي؟ من البار، هناك إلى جوار وعاء البرتقال والتمثال النُّحاسي».

وتَغرِس مونا يديها في خصلات شعرها الحمراء والسوداء، وتعتصرها من أعلى قائلةً:

- «هذا هو المذبح!».

وتشير إلى الكأس الفارغة مضيفةً:

- «لقد شربتِ قُرباني للرَّبَّة».

فتضع هيلين الكأس الفارغة في يد مونا، وتقول:

- «حسن، ما رأيك في إحضار قُربانٍ آخَر للرَّبَّة؟ اجعليه دوبل هذه المرَّة!».

نحن في شقَّة مونا، حيث تكوَّم الأثاث كله في فناءٍ صغير وراء بابٍ زجاجي منزلِق وتمَّت تغطيته بمشمَّع بلاستيكي أزرق. كلُّ ما تبقَّى هو غُرفة المعيشة الخاوية وغُرفة أخرى صغيرة تتفرَّع من جانِبٍ منها حيث من المفترَض أن يكون المطبخ. الجدران لونها بيج، وكذلك السجَّاد ذو الوَبَر الخشن. وعاء البرتقال والتمثال النُّحاسي الذي يُمَثِّل شخصًا هندوسيًّا يَرقُص موضوعان فوق رَفِّ المدفأة وقد نُثِرَت حولهما زهور اللؤلؤ الصفراء وزهور القرنفل الورديَّة. مفاتيح النور مُثَبَّتة بشريطٍ لاصق بغية منع استخدامها، وبدلًا منها وضعت مونا أحجارًا مسطَّحة على الأرض وثبَّتت عليها شموعًا تراوحَت ألوانها بين الأرجواني والأبيض، بعضها مُضاء وبعضها مُطفَأ. في المدفأة هناك المزيد من الشموع التي تَحتَرِق بدلًا من النار، بينما تتصاعَد خيوط من الدُّخان الأبيض من قراطيس صغيرة من البخور البُنِّي موضوعة على الأحجار المسطَّحة مع الشموع.

الضوء الحقيقي الوحيد الذي يَدخُل المكان لا تراه إلَّا عندما تفتح مونا الثلَّاجة أو فُرن الميكروويڤ.

عبر الجدران تأتي أصوات جيادٍ تَصرُخ وقذائف مَدافِع، فإما أن حسناءً

جنوبيَّة تتَّسم بالشَّجاعة والتصميم تُحاوِل منع جيش الاتِّحاد[1] من إضرام النيران في الشقَّة المجاوِرة، أو أن صوت التليفزيون أعلى من اللازم.

من السَّقف يأتي صوت سارينة مطافئ وصرخات أناسٍ من المفروض أن نتجاهَلها. علينا أن نتظاهَر بأن أصوات طلقات الرصاص وعويل إطارات السيَّارات لا بأس بها، أنها لا تعني شيئًا. إنه التليفزيون لا أكثر. نَشعُر بذبذبات انفجارٍ تأتي من السَّقف، بينما تتوسَّل امرأة إلى أحدهم ألَّا يغتصِبها. ليس هذا حقيقيًّا، بل هو مجرَّد فيلم.

إننا الثقافة التي تُجَسِّد قِصَّة الذِّئب والراعي.

هؤلاء المُدمِنون للدراما... هؤلاء المذعورون من السَّكينة...

تَلتَقِط مونا كأس النبيذ الفارغة بأصابعها ذات الأظفار السوداء وقد تلطَّخت حافَّتها بطلاء شفاه هيلين الوردي، وتتَّجه إلى المطبخ حافية القدمين وهي ترتدي معطف حمَّامٍ أبيض من النسيج الوَبَري.

يرنُّ جرس الباب، فتقطع مونا غُرفة المعيشة عائدةً، وتضع كأس نبيذٍ أحمر أخرى فوق رَفِّ المدفأة قائلةً لهيلين:

- «لا تُحرجيني أمام طائفتي».

وتفتح مونا باب الشقَّة، وعلى العتبة ثمَّة امرأة قصيرة ترتدي عويناتٍ ذات إطارٍ سميك من البلاستيك الأسود وزوجًا من قُفَّازات الفُرن تحمل بهما طبقًا خزفيًّا عميقًا مُغَطًّى.

---

(1) الاسم الذي كان يُطلِق خلال الحرب الأهليَّة الأمريكيَّة على الجيش الذي يُمَثِّل الحكومة والولايات الشماليَّة الخمس وعشرين التي تدعمها ضد الولايات الجنوبيَّة المُنشَقَّة.

أما أنا فقد أحضرتُ كارتونة فيها سَلطة من ثلاثة أنواع من الفاصوليا من مطعمٍ للوجبات الجاهزة، بينما أحضرَت هيلين معها پاستا من مطعم التشِك شِف.

تمسح ذات العوينات نعلَيَّ قبقابها على ممسحة الأرجُل الصغيرة أمام الباب، وتنظر إليَّ وهيلين قائلةً:

- «يبدو أن لديك ضيوفًا يا تُوتَة».

وتَنقُر مونا صدغها بكعب يدها وتقول:

- «تقصدني أنا. التُّوتَة هو اسمي لدى الويكا».

ثم تقول لها:

- «هذا هو مستر ستريتور يا عُصفورة».

وتَهِزُّ العُصفورة رأسها، بينما تقول مونا:

- «وهذه رئيستي في العمل».

فتُقاطِعها هيلين مُكمِّلة عبارتها:

- «تشِنشِيلا».

يبدأ فُرن الميكروويڤ في إصدار رنين، فتقود مونا العُصفورة إلى المطبخ، وتتَّجه هيلين إلى رَفِّ المدفأة لتَرشِف من كأس النبيذ.

ويرنُّ جرس الباب مرَّة أخرى، فتُنادي مونا علينا من المطبخ كي يفتح أحدنا.

هذه المرَّة هناك فتى ذو شَعرٍ أشقر طويل ولحية قصيرة حمراء، يرتدي سروالًا وقميصًا رياضيًّا فَضفاضين، ويحمل قِدرًا للطهي البطيء ذات

telegram @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

غطاءٍ بُنِّيٍّ من الزجاج، وقد بدت آثار غليان شيءٍ بُنِّيٍّ لَزِج على الحواف، بينما تكاثفَ البُخار على الجانِب السُّفلي من الغطاء الزجاجي. يَدخُل الفتى ويُناوِلني القِدر، ثم يخلع حذاء التنس الذي يرتديه ركلًا ويخلع قميصه وشَعره يتطاير في كلِّ مكان، ويضع القميص فوق القِدر في يدي، ثم يرفع ساقه ليخلع ساق سرواله، ثم الساق الأخرى، ويضع السروال بين ذراعيَّ ويقف هناك واضعًا يديه على وَركيه وقد صار عاريًا تمامًا.

تُحكِم هيلين معطفها حول جسدها، وتجرع ما تبقَّى من النبيذ.

القِدر ثقيلة ساخنة تنبعث منها رائحة السُّكَّر البُنِّي ورائحة أخرى، هي إما رائحة التوفو المصنوع من فول الصويا أو السروال الرمادي المتَّسخ.

وتقول مونا:

- «أويستر!».

وتقف إلى جانبنا وتأخذ القِدر والثياب مني قائلةً:

- «أويستر، هذا هو مستر ستريتور».

ثم تَلتَفِت إلى الآخرين وتُقدِّمه لهم:

- «هذا هو صاحبي أويستر».

ويَنفُض الفتى الشَّعر عن عينيه ويَرمُقني قائلًا:

- «تُوتَة تعتقد أن لديك تعويذة موت».

عُضوه الذَّكري كرواسبِ كلسيَّة ذات لونٍ وردي في مغارة، ينتهي بقُلفةٍ مجعَّدة، ويخترق خاتم فضِّي الرَّأس.

وتَرمُقني هيلين. تبتسم لكن تَضغَط على أسنانها.

ويَجذِب الفتى أويستر مونا من طيَّتَيِّ صدر معطف الحمَّام ويقول:

- «ترتدين ثيابًا كثيرة!».

ويميل عليها ويُقَبِّلها من فوق القِدر.

تقول مونا وهي تَخفِض ناظريها إلى الأرض:

- «إننا نُمارِس طَقس تعرٍّ».

ويتورَّد وجهها وهي تشير بالقِدر قائلةً:

- «أويستر، هذه هي مسز بويل التي أعمل لديها».

التفاصيل الخاصَّة بأويستر أن شَعره يبدو مُبَعثَرًا كما شجرة الصنوبر بعد أن يَضرِبها البَرق، أشقر مُمزَّقًا مُنتصِبًا في كلِّ اتِّجاه. لديه جسدُ شاب، عضلات الساقين والذراعين كبيرة مُجَسَّمة، صغيرة عِند المفاصِل والرُّكبتين والمِرفقين والخصر.

تَمُدُّ هيلين يدها، ويَلتَقِطها أويستر قائلًا:

- «خاتم من الزَّبَرْجَدْ...».

يقف هناك، شابًّا عاريًا، ويرفع يد هيلين حتى وجهه... يقف هناك، أسمر مفتول العضلات، وتَنزَلِق عيناه عبر خاتمها بطول ذراعها وحتى عينيها، ويقول:

- «حجر كريم يحوي كلَّ هذه العاطِفة المشبوبة يُمكنه أن يَقهَر معظم الناس».

ويُقَبِّل الخاتم...

تقول مونا:

- «نُمارِس طَقس تعرٍّ، لكنك لست مضطرًّا للمشارَكة، لست مضطرًّا حقًّا».

وتشير برأسها نحو المطبخ قائلةً:

- «أويستر، تعالَ وساعِدني قليلًا».

فيتحرَّك أويستر نحوها ناظرًا إليَّ، ويقول:

- «الملابس هي الغِش في أنقى صُوره».

ويبتسم بنِصف فمه فقط، ويَغمِز قائلًا بسخرية:

- «ربطة عُنق طريفة يا بابا».

وأعُدُّ 1... أعُدُّ 2... أعُدُّ 3...

تَلتَفِت هيلين إليَّ بعد أن تَدخُل مونا المطبخ، وتقول:

- «لا أصدِّق أنك أخبرت أحدًا آخَر!».

تَقصُد ناش...

ولكني لم أكن أملك الخيار مثلًا، كما أنه ليست هناك نُسَخ متاحة من القصيدة. لقد قلتُ له إنني أحرقتُ نُسختي وكلَّ نُسخةٍ مطبوعةٍ عثرتُ عليها. إنه لا يعرف شيئًا عن هيلين هوڤر بويل أو مونا سابات، وليس لديه سبيل لاستخدام المعلومة.

نعم، أعرف، ما زالت هناك بضع عشراتٍ من النُّسخ في المكتبات العامَّة، ولربما يُمكننا التوصُّل إليها وإزالة الصفحة 27 منها بينما نقتفي أثر الكتاب الأصلي.

«كتاب الظِّلال»، كما قالت هيلين.

«الجريموار» كما يُطلِق عليه السَّحرة، كتاب التعاويذ، كلُّ ما في العالم من قوَّة.

يرنُّ الباب مرَّةً أخرى، ويَدخُل الزائر التالي ويخلع سرواله المنتفِخ القصير وتيشرته، ويقول إن اسمه القُنفُذ. التفاصيل الخاصَّة بالقُنفُذ تتضمَّن الجِلد المرتخي الذي يهتز على ذراعيه وصدره ومؤخِّرته، وأن شَعر عانته الأسود المُجعَّد يُماثِل الشَّعرتين اللتين التصقتا براحة يدي بعد أن صافحته.

تَنسَحِب يدا هيلين داخل كُمَّيّ معطفها وتذهب إلى رَفّ المدفأة لتلتقط برتقالةً من المذبح وتشرع في تقشيرها.

يصل رجل اسمه الغُرَير معه ببغاء حقيقي يقبع على كتفه، ثم امرأة اسمها ياسمينة البَر، ثم امرأة اسمها زهرة العُشب. يدقُّ طائر أزرق الباب، ثم أبوسوم... ثم يصل مَن اسمه العَدس، أو أن أحدًا أحضر معه عَدسًا، لستُ متأكِّدًا.

تشرب هيلين قُربانًا آخَر، وتَخرُج مونا من المطبخ مع أويستر لكن دون معطف الحمَّام.

تبقَّت كومة من الملابس المُتَّسِخَة داخل الباب الأمامي، وهيلين وأنا فقط ما زلنا نرتدي ثيابنا. يرنُّ هاتف في أعماق الكومة، وتَمُدُّ العُصفورة يدها لتُنَقِّب عنه. ترتدي العُصفورة لا شيء غير عويناتها ذات الإطار الأسود، ويتدلَّى ثدياها وهي تميل فوق كومة الملابس لتجيب الهاتف قائلةً:

- «مكتب دورمر ودينجَس وديجز للمحاماة».

تُصغي، ثم تقول:

- «صِف شكل الطَّفح الجِلدي من فضلك».

أستغرقُ بعض الوقت حتى أتعرَّف مونا من مجرَّد رأسها وكومة السلاسل حول عُنقها. لا تريدَ أن يلمحك أحد وأنت تتطلَّع إلى هذا، لكن شَعر عانتها محلوق. من الأمام مباشرةً، فخذاها كقوسيِّ جُملةٍ اعتراضيَّةٍ مِثَالِيَّيْن مُتَمَاثِلَيْن بينهما حرف V بلا شَعر. من الجانِب، يبدو نهداها كأنهما يمتدَّان إلى الأمام في محاوَلةٍ للمس الناس بحلمتيها الورديَّتين. من الخلف، ينقسم أدنى ظَهرها إلى فَلْقَتَيْن جامِدتين، وأعُدُّ 4... أعُدُّ 5... أعُدُّ 6...

يحمل أويستر في يده كارتونة من مطعمٍ للوجبات الجاهزة.

ثمَّة امرأة اسمها رحيق العَسل تلفُّ وشاحًا من القُطن على رأسها لا أكثر وتتكلَّم عن حيواتها السابِقة.

تقول هيلين:

- «ألا ترين أن تناسُخ الأرواح مجرَّد نوعٍ آخَر من التسويف؟».

وأسأل: متى سنأكل؟

وتقول مونا:

- «بحقِّ السماء! كأن أبي يتكلَّم!».

أسأل هيلين: كيف تمنع نفسها من قتل الجميع هنا؟

فترفع كأسًا أخرى من على رَفِّ المدفأة قائلةً:

- «قتل أيِّ أحدٍ في هذه الغُرفة سيُعَدُّ قتلًا رحيمًا».

وتَشرَب نِصف الكأس، ثم تُناوِلني إياها.

رائحة الياسمين تفوح من البخور، وكلُّ شيءٍ في الغُرفة رائحته بخور.

يخطو أويستر إلى منتصَف الغُرفة رافعًا كارتونة الوجبة الجاهزة فوق رأسه قائلًا:

- «حسن، من الذي أحضر معه هذه الجريمة؟».

إنها سَلطتي ذات أنواع الفاصوليا الثلاثة.

وتقول مونا:

- «أويستر، أرجوك لا تفعل هذا».

يرفع أويستر الكارتونة من اليد السِّلكيَّة الرفيعة، يرفعها بإصبعين فقط يضغطان على اليد، ويقول:

- «طعام خالٍ من اللحم يعني أن يكون بلا لحم! والآن تكلَّموا، من أحضر هذه؟».

الشَّعر تحت ذراعه المرفوعة برتقاليٌّ لامع، وكذا بقيَّة شَعر جسده بالأسفل.

أجيب قائلًا إنها مجرَّد سَلطة فاصوليا.

- «بماذا؟»، يقولها أويستر وهو يهزُّ الكارتونة.

بلا شيء.

الغُرفة صامتة هادئة تمامًا حتى إنك تستطيع سماع معركة جتيسبرج التي تدور رُحاها في الشقَّة المجاوِرة. يُمكنك أن تسمع صوت جيتار شخصٍ مُكتئِب يعزف أغانٍ شعبيَّة في الشقَّة التي تعلونا. يَصرُخ مُمثِّل ويزأر أسد وتُصَفِّر قنابل ساقِطة من السماء.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

يقول أويستر:

- «التبيلة بها صوص الورسترشير... معنى هذا أن فيها أنشوجة... معناه اللحم... معناه الوحشيَّة والموت».

ويضع الكارتونة في يد ويشير إليها باليد الأخرى مضيفًا:

- «سألقي هذه في المرحاض حيث تنتمي».

وأعُدُّ 7... أعُدُّ 8...

تُناوِل العُصفورة كلَّ واحدٍ حجرًا صغيرًا مستديرًا من سلَّةٍ تحملها بيدٍ واحدة. تُعطيني واحدًا، فأجده رماديَّ اللون باردًا، وتقول العُصفورة:

- «احتفِظ بهذا، وتوافَق مع ذبذبات طاقته. سيضعنا كلنا على الموجة نفسها من أجل الطقوس».

وأسمع صوت السيفون يُشَدُّ...

لا ينفك الببغاء على كتف الغُرَير يلوي عُنقه لينتف ريشه الأخضر بمِنقاره، ثم يحني رأسه مرَّة أخرى ويَزدَرِد كلَّ ريشةٍ بقضماتٍ عنيفةٍ سريعةٍ كضربات السَّوط، ويبدو الجِلد منقورًا جافًّا حيث انتُزِعَ الريش. كان الغُرَير هذا قد وضع منشفة مطويَّة على كتفه ليتمسَّك الطائر بها، والمنشفة مُلوَّثة من الخلف بخراء الطيور المُصفَر.

وينتف الببغاء ريشةً أخرى ويلتهِمها...

تُناوِل العُصفورة حجرًا لهيلين، فتُلقيه داخل حقيبتها الزرقاء فاتحة اللون.

آخذُ الكأس منها وأرشفُ النبيذ. يقولون في صحيفة اليوم إن الرجل

الذي كان عِند المصعد، الرجل الذي رغبتُ في موته، كان يملك ثلاثة أطفال، كلهم تحت سِنِّ السادسة. والشُّرطي الذي قتلته كان يرعى والديه العجوزين كي لا يضطرَّا لدخول دارٍ للمُسِنِّين، وكان وزوجته أبوين بالتبنِّي، وكان يُدرِّب الأطفال على البيزبول وكرة القدم. المرأة ذات الووكي-توكي كانت حامِلًا في الأسبوع الثاني.

أشربُ المزيد من النبيذ... مذاقه كطلاء الشفاه الوردي.

في صحيفة اليوم إعلان يقول عنوانه: «**الرجاء الانتباه... لمن يملكون آنيةً صيني من نوع دورسِت**»، ويقول متنه: «إذا كنتم تشعرون بالغثيان أو تفقدون التحكُّم في البراز بعد تناوُل الطعام في هذه الآنية، فيُرجى الاتِّصال بالرقم التالي».

يُخاطِبني أويستر قائلًا:

- «تعتقد تُوتَة أنك قتلت الدكتورة سارة، لكن رأيي أنك لا تعرف أيَّ خراءٍ أصلًا».

تَمُدُّ مونا يدها لتضع قُربانًا آخَر على رَفِّ المدفأة، فتَسحَب هيلين الكأس من بين أصابعها.

يُخاطِبني أويستر قائلًا:

- «سُلطة الحياة والموت الوحيدة التي لديك هي كلُّ مرَّةٍ تطلب فيها هامبرجر من مكدونالدز».

ويُلصِق وجهه بوجهي مُستَطرِدًا:

- «كلُّ ما تفعله هو دفع مالك القذِر، وفي مكانٍ آخَر تهوي الفأس».

وأعُدُّ 9... أعُدُّ 10...

تُريني العُصفورة كُتيِّبًا سميكًا في يدها، وبداخله صُور لعِصِيٍّ سحر وقدورٍ من الحديد. ثمَّة صُور لأجراس وكريستالات من الكوارتز، بألوانٍ وأحجامٍ مختلِفة من كلِّ شيء. ثمَّة خناجِر ذات مقابضٍ سوداء اسمها الأثامي، تقول العُصفورة إنها سُمِّيَت هكذا لتكون على وزن كلمة whammy. تُريني صُورًا لأعشابٍ مربوطة في حُزَمٍ كي يُمكن استخدامها لرشِّ ماء التطهير، وتُريني تمائم وأحجِبة مصقولة لمقاوَمة الطاقة السَّلبيَّة. ثمَّة خنجر طقوس له مِقبَض أبيض اسمه بولين.

يستريح ثدياها على الكتالوج المفتوح ليُغطِّي كلٌّ منهما نِصف صفحة.

إلى جواري يقف أويستر والعضلات بارزة من تحت جِلد رقبته ويداه مضمومتان في قبضتين، ويقول:

- «أتدري سبب أن نِصف النَّاجين من الهولوكوست نباتيُّون؟ لأنهم يعرفون معنى أن يُعامَل الإنسان كالحيوانات».

أشعرُ بحرارة جسده من فرط قُربه مني، ويقول:

- «هل كنت تعرف أن جميع ذكور الكتاكيت يُفرَمون أحياءً ويُستَخدَمون كسِماد بعد الخروج من البيض؟».

وتُقلِّب العصفورة في الكتالوج، ثم تشير إلى شيءٍ قائلةً:

- «إذا تصفَّحتَه، سترى أننا نُقدِّم أفضل عروضٍ على أدوات الطقوس بأسعارٍ معقولة».

القُربان التالي للرَّبَّة أشربه...

القُربان التالي له تجرعه هيلين...

ويدور أويستر في الغُرفة، ثم يعود ويقول:

- «هل كنت تعرف أن معظم الخنازير لا ينزف حتى الموت في الثواني القليلة التي تسبِق إغراقها في مياهٍ لافِحة درجة حرارتها 140 فهرنهايت؟».

القُربان التالي من نصيبي.

مذاق الخمر كبخور الياسمين... مذاق الخمر كدم الحيوانات...

تأخذ هيلين الكأس الفارغة إلى المطبخ، فيأتي وميض من الضوء الحقيقي إثر فتحها الثلّاجة لتُخرِج إبريقًا من النبيذ الأحمر.

ويضع أويستر ذَقنه على كتفي من الخلف، ويقول:

- «معظم الأبقار لا يموت في الحال. إنهم يربطون وترًا حول عُنق البقرة ويَجُرُّونها جرًّا وهي تَصرُخ عبر المجزَر، ويقطعون سيقانها الأماميَّة والخلفيَّة وهي لا تزال حيَّة».

تقف وراءه فتاة اسمها قنديل البحر تفتح هاتفها المحمول وتتكلَّم فيه قائلةً:

- «مكتب دولي ودونر ودون للمحاماة. أخبِرني، ما لون الفِطر؟».

يَخرُج الغُرَير من الحمَّام وهو ينحني كي يمرُّ الببغاء من حَلق الباب، وأرى قِطعة من ورق الحمَّام لا تزال عالقةً بشِقِّ مؤخِّرته. عاريًا، يبدو جِلده منقورًا جافًّا، يبدو مُنتَزَع الريش. لا أريد أن أعرف إن كان الببغاء يجثم على كتفه وهو جالسٌ على المرحاض.

وعَبر الغُرفة مونا...

تُوتَة...

إنها تضحك مع رحيق العَسل، وأرى أنها ثَبَّتَت جدائلها الحمراء والسوداء بالدبابيس في تَلٍّ على رأسها، ووجهها الصغير بارز من تحتها. في أصابعها خواتم بها جواهر زجاجيَّة حمراء، وحول عُنقها تنتهي سجَّادة السلاسل الفِضِّيَّة بكومةٍ من التمائم والقلادات والأحجِبة تستقر على نهديها.

جواهر زائفة مصنوعة من موادٍّ رخيصة، وبنت صغيرة حافية القدمين تلعب بالإكسسوارات...

إنها في عُمر ابنتي، لو كان ما زال لديَّ ابنة...

تعود هيلين مُترنِّحةً إلى الغُرفة، وتُمسِك لسانها بإصبعين، ثم تدور في الغُرفة مُطفِئة قراطيس البخور بالإصبعين المُبتَلَّيْن. تَستَنِد إلى رَفِّ المدفأة، وترفع كأس النبيذ إلى فمها الوردي. تُراقِب الغُرفة من فوق الكأس، وتُراقِب أويستر الذي يدور حولي.

إنه في عُمر ابنها پاتريك، لو كان قد عاش...

وهيلين في عُمر زوجتي، لو كان ما زال لديَّ زوجة...

وأويستر هو الابن الذي كانت ستُنجِبه، لو كان لها ابن...

أتكلَّمُ فَرَضًا بالطبع...

ولعلَّ تلك هي الحياة التي كنتُ لأعيشها لو كانت لي حياة... زوجتي بعيدة ثَمِلة... ابنتي تَستكشِف طائفةً من غرباء الأطوار، بينما نُصيبها نحن -أبواها- بالحَرَج... صاحِبها هو هذا الهيپي ابن الوسخة الذي يُحاوِل إشعال شِجارٍ معي، أنا أبوها.

ولعلَّ من الممكن أن تعود في الزمن إلى الوراء...

لعلَّ من الممكن أن تعيد الموتى، جميع الموتى في الماضي والحاضِر، إلى الحياة...

لعلَّ هذه هي فُرصتي الثانية، ولربما كانت حياتي لتَبلُغ هذه النقطة...

هيلين ومعطفها المصنوع من فراء التشِنشِيلا على كتفيها تُراقِب الببغاء يأكل نفسه... وتُراقِب أويستر.

وتصيح مونا:

- «يا جماعة! يا جماعة! حان وقت بدء الابتهال. دعونا نُشَكِّل المساحة المقدَّسة كي نبدأ».

في الشقَّة المجاوِرة يَجُرُّ مُحارِبو الحرب الأهليَّة القدامى أرجُلهم على أنغام موسيقى حزينة وأصوات إعادة إعمار البلاد.

ما زال أويستر يدور حولي، والحجر صار دافئًا في قبضتي الآن، وأعُدُّ 11... أعُدُّ 12...

لا بُدَّ أن تأتي مونا سابات معنا. نحتاج أحدًا لم تتلوَّث يداه بالدِّماء. مونا وهيلين وأنا... وأويستر، أربعتنا على الطريق معًا... مجرَّد أُسرةٍ مُفَكَّكة أخرى في إجازةٍ عائليَّة... نقتفي أثر كأسٍ غير مقدَّسة.

أمامنا مئة نمرٍ ورقيٍّ نَصرَعها على الطريقِ، مئة مكتبةٍ ننهبها، كُتب ننزع منها السِّلاح، إنقاذ العالم كله من تعويذة الموت.

تقول زهرة العُشب لجريناداين:

- «هل قرأتِ الخبر في الجريدة عمَّن عثروا عليهم موتى؟ يقولون

إنها حُمَّى الفَيْلَق، لكنه يبدو سحرًا أسود إذا طلبتِ رأيي».

تَفرِد مونا ذراعيها ليلوح الشَّعر البُنِّي المستوي من تحتهما وهي تدفع الحضور إلى منتصف الغُرفة، وتشير العُصفورة إلى شيءٍ في الكتالوج قائلةً:

- «هذا هو الحد الأدنى الذي ستحتاجه لتبدأ».

يَنفُض أويستر شَعره عن عينيه، ويرفع ذَقنه في وجهي واكِزًا إياي في صدري بسبَّابته... يَكِزني بُقوَّةٍ في منتصف ربطة عُنقي الزرقاء، ويقول:

- «اسمع يا بابا، أغنيَّة الموت الوحيدة التي تعرفها هي «أريد الهامبرجر نِصف مطهي»!».

وأتوقَّفُ عن العد...

وبسرعة رعشةٍ في عضلاتك، أدفعُ أويستر إلى الوراء بعُنفٍ وأصفعه بصوتٍ عالٍ على جِلده المكشوف، والجميع صامتون يُراقِبون، والأغنيَّة تتردَّد في رأسي.

قتلتُ من جديد... صاحِب مونا، ابن هيلين. يقف أويستر في مكانه لحظةً أخرى، يَرمُقني وشَعره يتدلَّى على عينيه.

ويَسقُط الببغاء عن كتف الغُرَير...

ويرفع أويستر يده فارِدًا أصابعه، ويقول:

- «اهدأ يا بابا».

ويَنظُر مع العُصفورة والجميع إلى الببغاء الميت عِند قدميِّ الغُرَير... ميت وريشه نِصف منتوف.

ويَهمِز الغُرَير الطائر بصندله، ويقول:

- «پلاكي؟».

وأنظرُ إلى هيلين...

هي زوجتي، زوجة من طرازٍ جديد لا يخلو من خوف... حتى يُفَرِّقنا الموت.

ولربما إذا كان يُمكنك أن تَقتُل أحدًا أن تعيده إلى الحياة مرَّة أخرى...

وهيلين تَرمُقني والكأس المُلَطَّخة بالوردي في يدها، وتَهِزُّ رأسها نحوي قائلةً:

- «لم أفعلها».

وترفع ثلاثة أصابع، ويتلامس طرفا إبهامها وخِنصَرها، وتقول:

- «أُقسِم بشرف السَّاحرات».

الفصل الثامن عشر

هنا والآن، أُدوِّن هذه الكلمات بالقُرب من بيجز چانكشن، أوريجون. سيَّارتنا -أنا وحضرة الرَّقيب- مركونة على طريق الولايات 84، ومعنا معطف من الفرو مُكوَّم على جانِب الطريق إلى جوار السيَّارة. المعطف الفراء المُبقَّع بالكاتشپ والذُّباب الحائم حوله هو طُعمنا.

هذا الأسبوع ثمَّة معجزة أخرى في صُحف التابلويد.

إنه شيء يُطلِقون عليه اسم يسوع قَتلى الطريق، وتُسمِّيه صُحف التابلويد مسيح طريق الولايات 84. رجلٌ ما يتوقَّف على الطريق السريع كلما كان هناك حيوان ميت صدمته سيَّارة مُسرِعة، ويضع يده عليه... وسبحان الله! تبدأ القطَّة المُمزَّقة أو الكلب المفروم أو حتى الظَّبي المشطور إلى نصفين في اللهاث وتشمُّم الهواء، يَنهَضون على سيقانهم المكسورة ويَطرِفون بأعينهم التي نقرتها الطيور.

لديهم ڤيديوهات لهذا، ولقطات فوتوغرافيَّة منشورة على الإنترنت.

يقفُ القِط أو الشَّيْهَم أو ذِئب البراري هناك دقيقةً أخرى وقد أراح يسوع قَتلى الطريق رأسه بين ذراعيه وأخذ يهمس له.

منذ دقيقتين كان فروًا وعظمًا مُمزَّقًا، وليمةً للغِربان، والآن يعدو الأيْل أو الكلب أو الراكون سليمًا معافًى كاملًا.

على مسافةٍ منا يتوقَّف عجوز بشاحنته الصغيرة على جانِب الطريق، ثم يَخرُج من الكابينة ويرفع بطَّانيَّة مُربَّعة النقش من المؤخِّرة، ثم يُقَرفِص ليضع البطَّانيَّة على جانِب الطريق والسيَّارات تندفع مارَّة به كالصاروخ في هواء الصباح الساخِن.

يرفع العجوز حافة البطَّانيَّة ليكشف عن كلبٍ ميت، كومة مُجعَّدة من الفرو البُنِّي لا تختلف كثيرًا عن الكومة التي صنعها معطفي الفرو.

يُخرِج حضرة الرقيب خزانة الطلقات من مسدَّسه ليجدها مليئة، ثم يُدخِلها من جديد.

ينحني العجوز باسِطًا راحتيه على الأسفلت الساخن والسيَّارات والشاحنات تخرق الهواء على جانبيِّ الطريق، ويَحُكُّ وجنته بكومة الفرو البُنِّي، ثم يقف وينظر يمينًا ويسارًا، ثم يعود إلى كابينة الشاحنة ويُشعِل سيجارة... وينتظر.

وأنا وحضرة الرقيب ننتظر...

ها نحن هنا، تأخَّرنا أسبوعًا، مُتخَلِّفَيْن بخطوةٍ دائمًا، نأتي بعد وقوع الحَدَث...

أول مَن شاهَد يسوع قَتلى الطريق كان مجموعة من عُمَّال الولاية يرفعون جُثَّة كلبٍ على بُعد أميالٍ قليلةٍ من هنا، وقبل أن يضعوه في كيس النفايات توقَّفت سيَّارة مُستأجَرَة على جانِب الطريق وراءهم، بداخلها يجلس رجل وراء عجلة القيادة وإلى جواره امرأة. ظلَّت هي في السيَّارة،

بينما وثب هو منها واندفع نحو طاقم العُمَّال صائحًا فيهم أن ينتظروا. كان يقول إنه يستطيع المساعَدة.

لم يكن الكلب أكثر من دودٍ وعظامٍ داخل خِرقَةَ من الفرو.

كان الرجل شابًّا أشقر يطير شَعره في الهواء بسبب السيَّارات المُنطَلِقة بالقُرب منهم. كانت لديه لِحية قصيرة حمراء وندوب مائلة على وجنتيه تحت عينيه مباشرةً. كانت الندوب ذات لونٍ أحمر داكِن، وقد مدَّ الرجل يده داخل كيس النفايات حيث الكلب الميت قائلًا للعُمَّال إنه ليس ميتًا.

وضحك العُمَّال وألقوا مِجرفتهم في شاحنتهم.

ثم إن شيئًا أطلق أنينًا من داخل الكيس...

ثم أطلق نباحًا...

الآن، هنا والآن، بينما أكتبُ هذا، بينما ينتظر العجوز على جانِب الطريق معنا ويُدخِّن، والسيَّارات تعصِف مارَّة بنا، أرى عائلة في سيَّارة ستيشَن واجون على الجهة الأخرى من طريق الولايات 84، تفتح لحافًا على جانِب الطريق المفروش بالحصى، وبالداخل قطَّة برتقاليَّة ميتة. على مسافةٍ منهم تجلس امرأة وطِفل في كُرسيَّين صغيرين إلى جوار هامسترَ ميت موضوع على منديلٍ ورقي.

على مسافةٍ منهم يقف زوجان أكبر سِنًّا يرفعان مِظلَّة يحجبان بها الشمس عن امرأةٍ شابَّة، والمرأة الشابَّة شديدة النحول وتميل على جانِبها في كرسيٍّ مُتحرِّك.

العجوز والأم والطِّفل والعائلة والزوجان الكبيران عيونهم تمسح كلَّ سيَّارةٍ تمرُّ.

مسيح قَتلى الطريق يأتي في سيّارة مختلِفةٍ كلَّ مرّة، سيّارة ببابين أو أربعة أبواب أو پيك آپ، وأحيانًا على ظَهر درّاجة بُخاريّة، وذات مرّة جاء في منزلٍ متَنَقِّل.

في كلِّ الصُّور والڤيديوهات التي التقطوها هناك اللِّحية الحمراء القصيرة والشَّعر الأشقر والندوب. إنه الرجل ذاته دائمًا، بينما تلوح امرأة تنتظر على مسافةٍ في السيّارة أو الشاحنة أو أيًّا كان.

بينما أكتبُ هذا، يُصوِّب حضرة الرقيب ماسورة مسدَّسه إلى كومة المعطف الفرو، حيث الكاتشپ والزُّجاج، طُعمنا... وككلٍّ من عدانا هنا، ننتظر معجزةً، ننتظر مسيحًا.

الفصل التاسع عشر

اللون الأصفر يكسو كلَّ شيءٍ خارج السيَّارة... أصفر يمتدُّ حتى الأفق... ليس صفار الليمون، بل صفار كرة التِّنِس بالأحرى، صفارها وهي تبدو في ملعب تِنِس أخضر زاهٍ... العالم على الجانِبين على الطريق السريع مُتَّشِح كله بهذا اللون الواحد.

الأصفر...

أمواجٌ مُتلاطِمةٌ مُزبِدةٌ من الأصفر تتحرَّك في الريح الساخنة القادمة من السيَّارات العابِرة، تمتدُّ من جانِب الطريق السريع المفروش بالحصى وحتى التلال الصفراء.

أصفر... الضوء الساقط داخل سيَّارتنا أصفر. هيلين ومونا وأويستر وأنا، كلنا مصبوغون بالأصفر، جِلدنا وعيوننا... تفاصيل العالم كلها صفراء.

يقول أويستر:

- « *Brassica tourneforti*... الخردل المغربي في ريعانه».

تحيط بنا رائحة المقاعد الجِلديَّة في سيَّارة هيلين الريلتور الكبيرة،

وتجلس هي وراء عجلة القيادة. هيلين وأنا على المقعدين الأماميَّيْن ومونا وأويستر على الأريكة الخلفيَّة. على المقعد بيني وبين هيلين دفتر التنظيم اليومي الذي تحمله معها، غلافه الأحمر مُلتَصِق بالمقعد الجِلدي البُنِّي. هناك أطلس للولايات المتَّحدة، وورقة مطبوعة على الكومبيوتر بها قائمة بالمُدن التي فيها مكتبات تَضُمُّ كتاب الأغاني. وهناك حقيبة هيلين الزرقاء الصغيرة وقد بدت خضراء في هذا الضوء الأصفر.

- «ليتني أكون من السُّكَّان الأصليِّين لأمريكا»، تقولها مونا وتُسنِد جبهتها إلى النافذة المجاوِرة لها. «أن أكون فتاةً حُرَّة من قبائل الأقدام السوداء أو السوُّ منذ مئتيِّ عامٍ، تعيش في تناغُمٍ مع كلِّ هذا الجمال الطبيعي».

أسندُ رأسي إلى النافذة المجاوِرة لي بدوري كي أرى ما تَشعُر به مونا، فأشعرُ بالزُّجاج مُلتهِبًا لافِحًا على الرغم من مُكيِّف الهواء.

مُصادَفة مثيرة للتوجُّس، لكن ولاية كاليفورنيا بأكملها مُلوَّنة في الأطلس باللون الأصفر اللامع نفسه.

ويتمخَّط أويستر بشخرةٍ واحدةٍ سريعة تدفع رأسه إلى الوراء، ثم يَهِزُّ رأسه نحو مونا قائلًا:

- «لم يعش أيُّ هنديٍّ أحمر في الطبيعة التي ترينها الآن».

يقول إن رُعاة البَقر لم يكن لديهم حشائش تامبلويد. كانت أواخِر القرن التاسع عشر قد حلَّت بالفعل عندما وجدت بذور التامبلويد، الأشواك الرُّوسيَّة، طريقها إلينا من أوراسيا في صوف الخِراف. بذور الخردل المغربي جاءت مختلِطةً بالتُّراب الذي كانت تستخدِمه السُّفن

الشراعيَّة لموازَنة ثِقلها. الأشجار الفِضِّيَّة هناك، هي أشجار الزيتون الرُّوسي، *Elaeagnus augusti-folia*. وتلك المئات من آذان الأرانب الزَّغِبَة على حدود الطريق السريع هي *Verbascum thapsus*، نبات آذان الدُّب. الأشجار الداكِنة الملتوية التي مررنا بها حالًا هي *Robinia pseudoacacia*، الخرنوب الأسود، والأجمة ذات اللون الأخضر الداكِن التي تُنبِت زهورًا صفراء فاقعة هي الوَزَّال السكوتلندي، *Cytisus scoparius*.

يقول إنها كلها جزء من الوباء نفسه.

بلهجة من يسأل، يقول أويستر وهو يَنظُر من النافذة ويَرمُق نيڤادا القريبة من الطريق السريع:

- «أفلام الوستِرن القديمة تلك بكلِّ ما فيها من تامبلويد وتشيتجراس وخراءٍ آخر؟».

ثم يَهزُّ رأسه ويجيب:

- «لا شيء من هذا كان يَنبُت هنا في الأصل، لكنه كلُّ ما تبقَّى لدينا. لم يَعُد هناك شيء طبيعيٌّ في الطبيعة تقريبًا».

ويَركُل أويستر ظَهر المقعد الأمامي قائلًا:

- «بابا! ما الجريدة اليوميَّة الكُبرى في نيڤادا؟».

في رينو أم لاس ڤيجاس؟

يَنظُر أويستر من النافذة والضوء المعكوس يجعل عينيه صفراوَيْن، ويقول:

- «هذه وتلك، وكارسون سيتي كذلك. جميع الجرائد».

وأُخبِره.

يقول إن الغابات بطول السَّاحِل الغربي تَختَنِق بالوَزَّال السكوتلندي والوَزَّال الفرنسي واللَّبلاب الإنجليزي، وحتى التوت الأسود القادم من الهيمالايا. الأشجار الطبيعيَّة تموت بسبب عُثَّة الغَجر التي استوردَها ليوپولد تروڤيلو سنة 1860 ليُربِّيها من أجل الحرير. الصَّحارى والمروج مُكتظَّة حتى الموت بالخردل والتشيتجراس وعُشب الخوخ الأوروبي.

يفتح أويستر أزرار قميصه، وعلى جِلد صدره يستقرُّ شيء ما مُحلًّى بالخَرَز في حجم مِحفظة الجيب يتدلَّى من عُقدٍ حول عُنقه.

- «كيس أدوية طبيعيَّة من الهوپي. روحاني جدًّا، أليس كذلك؟».

تَرمُقه هيلين في مرآة السيَّارة أمامها ويداها على عجلة القيادة تستقرَّان داخل زوجٍ ضَيِّقٍ جدًّا من قُفَّازات القيادة المصنوعة من جِلد العِجل، وتقول:

- «تُعجِبني عضلات بطنك».

يخلع أويستر القميص عن كتفيه دون أن يَستَخدِم يديه، ويتدلَّى الكيس المُحلَّى بالخَرَز بين حلمتيه، وقد انتفخ صدره على الجانِبين. بشرته مُسْمَرَّة خالية من الشَّعر حتى سُرَّته. الكيس مُغطًّى تمامًا بالخَرَزات البيضاء، باستثناء مجموعة من الخَرَزات الحمراء تُشكِّل صليبًا في المنتصف. تبدو سُمرة أويستر برتقاليَّة في الضوء الأصفر، ويبدو شَعره الأشقَر كأنه مُتَّقِدٌ نارًا.

تقول مونا:

- «إنه من صُنعي. استغرقَني العمل فيه منذ فبراير الماضي».

مونا بالجدائِل في شَعرها وقلاداتها الكريستال... أسألها إن كانت من هنود الهوبي، بينما يُنَقِّب أويستر بأصابعه عن شيءٍ ما داخِل الكيس.

وتقول هيلين:

- «مونا، أنت لستِ من السُّكَّان الأصليِّين بأيِّ شكلٍ من الأشكال. إن اسمك الحقيقي هو ستاينر».

فتَرُدُّ مونا:

- «ليس من الضروري أن تكوني من الهوبي. لقد صنعته طِبقًا لنموذج في كتاب».

فتُعَلِّق هيلين:

- «إذن فهو ليس هوبي أصلًا».

فتُصِرُّ مونا:

- «بل هو كذلك. إنه يبدو كالذي في الكتاب تمامًا. سأريكِ».

يُخرِج أويستر هاتفًا محمولًا من الكيس الخَرَزي، وتقول مونا:

- «المُمتِع في الأشغال اليدويَّة البدائيَّة أنك تستطيعين ممارَستها وأنت تُشاهِدين التليفزيون، وتجعلك على اتِّصالٍ بجميع أنواع الطاقات القديمة في العالم وما شابَه».

يفتح أويستر الهاتف ويسحب الهوائي ويَطلُب رقمًا. الوَسَخ تحت ظُفره ينحني مع طرف إصبعه.

وتُراقِبه هيلين في المرآة.

تميل مونا إلى الأمام فوق رُكبتيها وتَلتَقِط من على أرضيَّة الأريكة

الخلفيَّة حقيبة ظَهر مصنوعة من قماش القنَّب، وتُخرِج منها كومة مُتشابِكة من الأوتار والرِّيش الذي يبدو كريش دجاجٍ مطليٍّ بألوان عيد الفِصح الورديَّة والزرقاء، بينما تتدلَّى من الأوتار عُملات نُحاسيَّة وخَرَزات سوداء مصنوعة من الزجاج.

تقول مونا:

- «هذه مصيدة أحلام من قبائل الناڤاهو أقوم بصُنعها».

وتَهزُّ الكومة، فينفكُّ بعض الأوتار ويتدلَّى حُرًّا، ويَسقُط عدد من الخَرَزات داخِل الحقيبة الموضوعة في حِجرها. تطير ريشات ورديَّة في الهواء، وتقول مونا:

- «خطر لي أن أجعلها أقوى باستخدام عُملاتٍ من «كتاب التغيُّرات»[1]، على سبيل شحنها بطاقةٍ فائِقة».

تتدحرج الخَرَزات الزجاجيَّة إلى مكانٍ ما في حِجرها، تحت الحقيبة، حيث حرف V الحليق بين فخذيها.

ويقول أويستر على الهاتف:

- «نعم، أريد رقم قِسم الإعلانات المدفوعة بالتَّقسيط في جريدة *Carson City Telegraph-Star*».

تَنجَرِف ريشة ورديَّة نحو وجهه، فيَنفُخها بعيدًا.

---

(1) أحد أبرز وأهم خمسة كتب في التراث الفلسفي الصيني. كان الصينيون يعتمدونه في الأزمنة الغابرة في قراءة الطالع. نقله العلّامة الألماني ريتشارد ڤيلهلم من الصينية إلى الألمانية، ثم نقلته المترجمة س. ف. باينز إلى الإنجليزية في النِّصف الأول من القرن الماضي.

تُحاوِل مونا حلَّ بعض العُقَد بأظفارها السوداء، وتقول:

- «إنها أعقَد مما تبدو في الكتاب».

يضع أويستر الهاتف على أذنه بيد، وباليد الأخرى يَفرُك الكيس الخَرَزي على صدره.

وتُخرِج مونا كتابًا من حقيبتها وتُناوِلني إياه.

يرى أويستر هيلين التي تُراقِبه في المرآة، فيَغمِز لها بعينه ويَقرُص حلمته.

لسببٍ ما تَخطُر مسرحيَّة «أوديپ مَلِكًا» ببالي...

في مكانٍ ما أسفل حزامه تَكمُن رواسب قُلفته الكلسيَّة ذات اللون الوردي التي يَختَرِقها الخاتم المعدني. كيف لهيلين أن ترغب في ذلك؟

يقول أويستر هازًّا رأسه نحو العالم خارِج النافذة:

- «كان أصحاب مَزارِع الماشية القُدامى يزرعون التشيتجراس لأنه يَخْضَرُّ بسرعةٍ في الربيع، ما يعني توفير العَلَف مُبَكِّرًا للماشية».

زُرِعَت رُقعة الأرض الأولى بالتشيتجراس في بريتش كولومبيا، كندا، سنة 1889، لكن الجدير بالذِّكر أن النار تُساعِد على انتشاره. في كلِّ عامٍ يجفُّ ليتحوَّل إلى مسحوقٍ شبيه بالبارود، والآن تَحتَرِق الأراضي التي يَنبُت فيها مرَّة كلَّ عامٍ بَعدما كان يحدث ذلك كلَّ عشرة أعوامٍ كاملة، ويستردُّ التشيتجراس رونقه بسرعةٍ لأنه يحبُّ النار. المشكلة أن نباتات تلك الأراضي الطبيعيَّة -الشِّيح العُشبي والفلوكس الصحراوي مثلًا- لا تُشارِك التشيتجراس حُبَّه للنار، وكلما أحرقوا الأرض كلَّ عامٍ يصير هناك مزيدٌ من التشيتجراس وأقلُّ من كلِّ شيءٍ آخَر، وبالتالي اختفت

الأيائِل والظِّباء التي كانت تَعتَمِد على النباتات الأخرى في طعامها... وكذلك الأرانب... وكذلك الصُّقور والبوم الذي كان يأكل الأرانب. عندما تهلك الفئران جوعًا، فالثعابين التي تأكلها تهلك جوعًا بدورها.

اليوم يسود التشيتجراس الصَّحارى الداخليَّة من كندا إلى نيڤادا، ويُغطِّي مساحةً تَبلُغ أكثر من ضِعفي ولاية نبراسكا، وينتشر في آلاف من الفدادين من الأرض كلَّ عام.

يقول أويستر إن أكثر ما يثير السخرية هو أن الماشية نفسها تمقت التشيتجراس، فتأكل الأبقار الأعشاب الطبيعيَّة النادرة الأخرى... ما تبقَّى منها بالأحرى.

اسم الكتاب الذي ناولَتني مونا إياه هو «الأشغال اليدويَّة التقليديَّة لدى القبائل»، وعندما أفتحه يطير المزيد من الرِّيش الأزرق والوردي في الهواء.

تقول مونا وقد عَلِقَت ريشةورديَّة بجديلة في شَعرها:

- «حُلم حياتي الآن أن أعثر على شجرةٍ مستقيمة تمامًا، لأصنع منها طوطمًا أو ما شابه».

يقول أويستر:

- «عندما تُفكِّر في الأمر من وجهة نظر النبات الطبيعي، فإن چوني آپلسيد كان إرهابيًّا بيئيًّا لعينًا فعلًا».

يقول إن الأمر لم يكن ليختلف لو كان چوني آپلسيد يقوم بنشر الجُدَري.

يَطلُب أويستر رقمًا آخَر على هاتفه المحمول، ويَركُل ظَهر المقعد الأمامي قائلًا:

- «ماما، بابا، أريد اسم مطعم راقٍ جدًّا في رينو، نيڤادا».

فتَهِزُّ هيلين كتفيها وتنظر إليَّ مجيبةً:

- «دِزَرت سكاي في تاهو لطيف جدًّا».

يقول أويستر على الهاتف:

- «أريدُ نشر إعلان على ثلاثة أعمدة».

ويَنظُر من النافذة مُكمِلًا:

- «ثلاثة أعمدة في سِتِّ بوصات، يقول عنوانه: «الرجاء الانتباه... لمُرتادي مطعم دِزَرت سكاي»، ويقول المتن: «هل أصبتم مؤخَّرًا بحالةٍ شبه قاتلةٍ من التسمُّم بعد تناوُل الطعام في هذا المكان؟ إذا حدث هذا، فيُرجى الاتِّصال بالرقم التالي لتُصبِحوا جزءًا من دعوى جماعيَّة»».

ويُملي رقم الهاتف، ثم يُخرِج بطاقة ائتمان من كيس الأدوية ويُملي رقمها وتاريخ انتهائها. يَطلُب أن يتَّصل به مُمثِّل الحساب بعد عمل مُسوَّدة الطباعة للتأكُّد من أنها سليمة، ويضيف أن يُنشَر الإعلان يوميًّا طول الأسبوع القادم في صفحة المطاعم، ثم يُغلِق الهاتف ويُدخِل الهوائي.

يقول أويستر:

- «تمامًا كما قتلت الحُمَّى الصفراء والجُدَري الهنود الحُمر، جلبنا داء الدَّردار الهولندي إلى أمريكا مع شحنةٍ من جذوع الأشجار لمصنعٍ لِقشرة الخشب سنة 1930، وقبلها آفة أبي فروة سنة 1904، وثمَّة فِطر مُعدٍ يَقتُل أشجار الزَّان على الساحل الشَّرقي، ومن المتوقَّع أن تقضي الخنفساء الآسيويَّة طويلة القرنين -التي دخلت نيويورك سنة 1996- على أشجار القيقب في أمريكا الشماليَّة تمامًا».

يقول أويستر إن أصحاب مَزارِع الماشية أدخلوا الطاعون الدبلي إلى مُستعمَرات كلاب البراري بغرض التحكُّم في تعدادها، وبحلول سنة 1930 كان 98 في المئة من الكلاب قد مات، بينما انتشر هذا الطاعون ليقتل ثلاثة وأربعين نوعًا آخَر من القوارِض، بالإضافة إلى عددٍ من البَشر عاثِري الحظ كلَّ عام.

لسببٍ ما تَخطُر تعويذة الاجتباء ببالي...

تقول مونا وأنا أعيد لها الكتاب:

- «أما أنا فأحبُّ التقاليد القديمة. أملي أن تكون هذه الرحلة بمثابة مسعى للعثور على بصيرتي الخاصَّة، وسأجدُ لنفسي اسمًا هنديًّا و... أتحوَّل».

يُخرِج أويستر سيجارةً من كيس الهوبي قائلًا:

- «هل تُمانِعان؟».

وأجيب بالإيجاب.

وتقول هيلين:

- «إطلاقًا».

إنها سيَّارتها على كلِّ حال.

وأعُدُّ 1... أعُدُّ 2... أعُدُّ 3...

يقول أويستر إن ما نحسب أنه الطبيعة هو في الحقيقة نحن إذ نَقتُل العالم. كلُّ نبتة هندباء برِّيَّة هي قنبلة نوويَّة موقوتة، تلوُّث بيئي، خراب أصفر ذو شكلٍ جميل.

يقول أويستر إنك كما تذهب إلى پاريس أو بكين أو أيِّ مكانٍ آخَر وتجد هامبرجر مكدونالدز، فهذا هو المُعادِل البيئي الخاص بصُوَر الحياة ذات حقِّ الامتياز... الكرمة الشَّرق آسيويَّة، محار الزيبرا، ياسنت الماء، الزرزور، برجر كينج.

أيُّ كائنٍ أصلي يُستَهلَك حتى يَهلَك.

- «التنوُّع البيئي الوحيد الذي سيتبقَّى لنا هو الفارِق بين الكوكا-كولا والپيپسي. إننا نُهَندِس العالم كله بالمناظر الطبيعيَّة مرتكبين خطأً غبيًّا وراء الآخَر».

يَنظُر أويستر من النافذة ويُخرِج قدَّاحة بلاستيكيَّة من كيس الأدوية، ويَرُجُّ القدَّاحة ويضرب راحة يده بها.

ريشة ورديَّة من الكتاب أشمُّها وأتخيَّل أن لشَعر مونا الرائحة نفسها. أديرُ الريشة بين إصبعين وأسأل أويستر -الذي عاد يتكلَّم على الهاتف بخصوص إعلانه- عما يفعله.

يُشعِل أويستر السيجارة، ثم يعيد القدَّاحة والهاتف إلى الكيس المُتدلِّي من رقبته، بينما تجيب مونا وهي تحلُّ العُقَد المتشابِكة في مصيدة الأحلام:

- «إنها الوسيلة التي يجني بها المال».

بين ذراعيها، داخِل بلوزتها البرتقاليَّة، يبرز نهداها بحلمتيهما الورديَّتين الصغيرتين.

وأعُدُّ 4... أعُدُّ 5... أعُدُّ 6...

يُزرِّر أويستر قميصه بيديه، فمه مزموم حول السيجارة وعيناه مُحْوَلَّتان

من الدُّخان، ويقول:

- «هل تَذكُر چوني آپلسيد؟».

وتخفض هيلين درجة حرارة مكيِّف الهواء.

ويُزَرِّر أويستر الياقة قائلًا:

- «لا تقلق يا بابا. إنني أزرع بِذرتي لا أكثر».

وينظر بعينيه الصفراوين إلى العالم الأصفر بالخارِج، ويُردِف:

- «إنه جيلي إذ يُحاوِل تدمير الثقافة الحاليَّة بأن نَنشُر عَدوانا الخاصَّة».

الفصل العشرون

تفتح المرأة بابها، لتجِدني وهيلين واقِفَيْن في شُرفة منزلها الأماميَّة، أنا أحملُ حقيبة أدوات التجميل الخاصَّة بهيلين وأقفُ وراءها بنِصف خطوة، بينما تشير هيلين بظُفر سبَّابتها الوردي قائلةً:

- «إذا أعطيتِني خمس عشرة دقيقة من وقتك، فيُمكنني أن أعطيكِ أنتِ جديدةً تمامًا».

بذلة هيلين حمراء، لكنها ليست حُمرة الفراولة، بل أقرب إلى حلوى موس الفراولة مع الكِريمة الطازجة المخفوقة على الوجه، مُقدَّمة في كأسٍ طويلة من الكريستال. داخِل سحابة شَعرها الوردي يلمع قِرطاها باللونين الوردي والأحمر في ضوء الشمس.

تُجفِّف المرأة يديها في منشفة مطبخ. إنها ترتدي حذاءً جِلديًّا رجاليًّا بلا جوارب، وتُغَطِّيها من الأمام بالكامل مريولة مطبخ مرسومة عليها دجاجات صفراء، وتحتها فستان من النوع الذي يُمكن تنظيفه في غسَّالة الملابس. الدجاجات الصفراء كلها تحمل بمناقيرها أدوات مطبخ مختلِفة، مَغارف وملاعق وخلافه. تزيح المرأة شَعرها عن جبينها بظَهر يدها، وتتطلَّع إلينا من وراء الباب الشَّبكي الصدئ وتسألنا عما نريد.

تَنظُر هيلين إليَّ إذ أقفُ وراءها، وتَنظُر من فوق كتفها نحو مونا وأويستر المتواريين في السيَّارة المركونة عند الرصيف، ويهمس أويستر في هاتفه:

- «هل الحكَّة مُتواصِلة أم مُتقطِّعة؟».

تَضُمُّ هيلين هوڤر بويل أطراف أصابع يدها على صدرها وقد أخفت الجواهر واللآلئ الورديَّة بلوزتها الحريريَّة أسفلها، وتقول:

- «مسز ڤِلسون؟ نحن من مشروع الماكياج المعجزة».

تفتح هيلين يدها المضمومة نحو المرأة وهي تتكلَّم، كأنها تَنثُر الكلمات.

- «اسمي مسز برندا ويليامز».

وتَنثُر الكلمات وراء ظَهرها وتقول:

- «وهذا زوجي مستر بوبرت ويليامز، ولدينا هديَّة خاصَّة جدًّا لكِ اليوم».

وتَنظُر المرأة من وراء الباب الشَّبكي إلى حقيبة أدوات التجميل في يدي، وتقول هيلين:

- «هل تسمحين لنا بالدخول؟».

كان من المُفترَض أن تكون المسألة أسهل من هذا.

كلُّ هذا السَّفر ودخول المكتبات والتقاط كتابٍ من على الرَّفِّ والجلوس في دورة مياه المكتبة ونَزع الصفحة 27، ثم التخلُّص منها في المرحاض وشد السيفون عليها... كان من المُفترَض أن يتم الأمر بهذه السرعة.

لم تُواجِهنا أيُّ مشاكلٍ في أول مكتبتين، ثم إننا لا نجد الكتاب على الرَّفِّ في المكتبة التالية، فنتَّجه أنا ومونا إلى مكتب الأمين لنسأله بصوتٍ هامسٍ عنه، بينما تنتظرنا هيلين في السيَّارة مع أويستر.

أمين المكتبة شابٌّ ذو شَعرٍ طويل معقوص على شكل ذيل الحصان، يضع زوجًا من أقراط القراصِنة في أذنيه ويرتدي كنزة بنقوشٍ مُربَّعة، ويقول إن الكتاب -ويُحرِّك القائمة على شاشة الكومبيوتر إلى أعلى وأسفل- لدى أحد المُستعيرين.

تقول مونا:

- «من المهم جدًّا أن أجد الكتاب. لقد استعرته من قبل ونسيتُ شيئًا بين الصفحات».

فيقول الشَّاب إنه آسف.

- «هل يُمكن أن تُخبِرنا مَن استعاره؟».

فيقول الشَّاب إنه آسف، لا يستطيع.

وأعُدُّ 1... أعُدُّ 2... أعُدُّ 3...

نعم، يريد كلُّ واحد أن يلعب دور الإله المتحكِّم في الأشياء، لكنها وظيفة بدوامٍ كامل بالنِّسبة لي.

وأعُدُّ 4... أعُدُّ 5...

وبعد وهلةٍ تقف هيلين هوڤر بويل أمام المكتب وتبتسم إلى أن يرفع أمين المكتبة عينيه عن الشاشة، وتفرد يديها التي ازدحمت أصابعها بالخواتم اللامعة.

تبتسم هيلين وتقول:

- «أيها الشَّاب، لقد تركَت ابنتي صورة عائليَّة قديمة بين صفحات كتابٍ مُعيَّن».

وتُحرِّك أصابعها مضيفةً:

- «والآن، يُمكنك أن تتَّبع القواعد أو تفعل خيرًا وتختار ما يروقك».

يُراقِب أمين المكتبة أصابعها والألوان الموشورة ونجوم الضوء المكسور على وجهه، ثم إنه يلعق شفتيه ويَهِزُّ رأسه نفيًا قائلًا إن الأمر لا يستحِقُّ المُخاطَرة، لأن الشخص الذي استعار الكتاب سوف يشكوه، ما سيُفضي إلى طرده من عمله، فتقول هيلين:

- «نعدك بأنك لن تفقد عملك».

وأنتظرُ في السيَّارة مع مونا، وأعُدُّ 27... أعُدُّ 28... أعُدُّ 29، مُجرِّبًا الوسيلة الوحيدة التي أعرفها لئلا أقتل جميع من في المكتبة وأبحث عن العنوان على الكومبيوتر بنفسي.

ثم تَخرُج هيلين إلى حيث السيَّارة ومعها ورقة في يدها، وتميل على نافذة السائق المفتوحة قائلةً:

- «لديَّ خبر طيب وخبر سيئ».

مونا وأويستر مُستَلقيان على الأريكة الخلفيَّة، فيعتدلان في جلستهما، وأنا جالسٌ في المقعد الأمامي ولا أتوقَّف عن العد.

تقول مونا:

- «لديهم ثلاث نُسخ، لكن كلها مُستعارَة».

وتجلس هيلين وراء عجلة القيادة قائلةً:

- «أعرف مليون طريقةٍ للقيام بالزيارات المنزليَّة المفاجِئة».

ويَنفُض أويستر الشَّعر عن عينيه مُغَمغِمًا:

- «أحسنتِ يا ماما».

كان المنزل الأول سهلًا بما فيه الكفاية، وكذلك الثاني.

تُنَقِّب هيلين ونحن في السيَّارة بين الزيارات المنزليَّة وسط الأنابيب الذَّهبيَّة والعُلب اللامعة، وسط طلاء الشفاه والماكياج، وحقيبة أدوات التجميل الخاصَّة بها مفتوحة في حِجرها. تفتح قلم طلاء شفاهٍ وردي، وتُضَيِّق عينيها وهي تَنظُر إليه قائلةً:

- «لن أستخدم هذا مرَّة أخرى أبدًا. ما لم أكُن مُخطِئة، فتلك المرأة الأخيرة كانت مُصابةً بالقوباء الحلقيَّة».

تميل مونا من الأريكة الخلفيَّة وتَنظُر من فوق كتف هيلين، وتقول:

- «أنتِ بارعة في هذا حقًّا».

تفتح هيلين عُلبًا صغيرة مستديرة من ظِلِّ العيون، وتتطلَّع إلى ألوان الأسمر والوردي والخوخي بداخلها وتتشمَّمها، وتَرُدُّ:

- «لقد تمرَّنتُ كثيرًا».

وتَنظُر إلى وجهها في المرآة وتَجذِب بضع خصلاتٍ من الشَّعر الوردي، ثم تَنظُر إلى ساعتها وتضغطها بين سبَّابتها وإبهامها مضيفةً:

- «لا يَجدُر بي أن أُخبِركم بهذا، لكن بيع مُستحضَرات التجميل كان وظيفتي الحقيقيَّة الأولى».

تقفُ السيَّارة الآن أمام منزلٍ مقطور مُستقِر في مُربَّعٍ من الحشائش الميتة التي تناثَرت عليها ألعاب الأطفال البلاستيكيَّة. تُغلِق هيلين الحقيبة، وتَنظُر إليَّ إذ جلستُ إلى جوارها وتقول:

- «مُستعِد للتجربة مرَّة أخرى؟».

وداخِل المنزل، تُخاطِب هيلين المرأة ذات المريولة المُغطَّاة بالدجاجات الصفراء قائلةً وهي تُجلِسها على الأريكة:

- «ليست عليكِ تكاليف أو التزامات على الإطلاق».

تجلس هيلين قبالة المرأة على مقربةٍ شديدة حتى تكاد رُكَبهما تتلامس، وتَمُدُّ هيلين يدها نحوها بالفرشاة الناعمة وتقول:

- «اسحبي وجنتيكِ إلى الداخل يا عزيزتي».

بيدٍ واحدةٍ تُمسِك خُصلةً من شَعر المرأة وترفعها إلى أعلى في خطٍّ مستقيم. الشَّعر أشقر كله باستثناء بوصةٍ من اللون البُنِّي عند الجذور، وبيدها الأخرى تُمرِّر فيه هيلين مُشطًا بضرباتٍ سريعة وهي ترفع الشُّعيرات الطويلة إلى أعلى، بينما تضغط الشُّعيرات البُنِّيَّة القصيرة على فروة الرأس، ثم تُمسِك خُصلةً أخرى وتُمشِّط بالعكس إلى أن ينضغِط الشَّعر كله باستثناء الشُّعيرات الطويلة، ويتشابك على فروة الرأس، وتُملِّس الشُّعيرات الشقراء الطويلة فوق الشُّعيرات القصيرة المُبعثَرة حتى يصير رأس المرأة فقَّاعة زَغِبة ضخمة من الشَّعر الأشقر.

وأقولُ: هكذا تُصفِّفين شَعرك إذن.

لقد أضحى شَعر المرأة مُطابِقًا لشَعر هيلين، مع فارق أنه أشقر.

على الطاولة الواطئة الصغيرة أمام الأريكة ثمَّة مجموعة كبيرة من

الورود والزنابق، وإن كانت قد ذبلت ودَبَّ فيها اللون البُنّي، وتقف الزهور في مزهريَّةٍ من الزجاج الأخضر من بائع الزهور، دون أن يتبقَّى فيها غير بعض الماء الأسود في القاع. على طاولة الطعام الصغيرة في المطبخ هناك المزيد من تنسيقات الزهور الكبيرة التي لم يتبقَّ منها إلَّا سوقها الميتة في ماءٍ عفِنٍ ثخين القوام. على الأرض، قبالة الجدار الخلفي لغُرفة المعيشة، اصطفَّ المزيد من المزهريَّات التي يحوي كلٌّ منها قالِبًا من الفوم الأخضر الذي غُرِسَت فيه ورود هزيلة مُجعَّدة أو زهور قرنفل مُسودَّة يَنبُت منها عَفَن رمادي. مع كلِّ باقةٍ ثمَّة بطاقة صغيرة تقول: «خالِص التَّعازي».

وتقول هيلين:

- «والآن ضعي يديكِ على وجهك».

وتَرُجُّ عُبوَّة من السپراي الذي تغمُر به شَعر المرأة، فتنكمش المرأة بلا رؤيةٍ وهي تميل إلى الأمام بعض الشيء وقد ضغطت يديها على وجهها، فتشير هيلين برأسها نحو الغُرف في الطرف الآخَر من المنزل.

وأتحرَّكُ...

وتَغمِس هيلين فرشاة ماسكارا في أنبوبها قائلةً:

- «ليس لديك مانع في أن يَدخُل زوجي الحمَّام، أليس كذلك؟ والآن ارفعي رأسك إلى السَّقف يا عزيزتي».

أجدُ في الحمَّام ملابس مُتَّسخة مُقسَّمة في كوماتٍ مختلِفة الألوان على الأرض، ملابس بيضاء، وملابس غامِقة، وسروالًا چينز وقميصًا مُلوَّثين بالزيت. هناك مناشف وملاءات وسوتيانات، وهناك مفرش مائدة ذو مُربَّعاتٍ حمراء.

أشِدُّ السيفون على سبيل المؤثِّرات الصَّوتيَّة.

ليست هناك حفَّاضات أو ملابس أطفال.

ما زالت امرأة الدجاجات الصفراء تَنظُر إلى السَّقف في غُرفة المعيشة، لكنها ترتجفُ الآن بأنفاسٍ طويلةٍ عنيفة، يهتزُّ صدرها من تحت المريولة، بينما تَمَسُّ هيلين الماكياج الذي بدأ يسيل بفِعل الدموع بطرف منديلٍ ورقيٍّ مطوي، والمنديل مبتلٌّ تمامًا وقد اسودَّ من الماسكارا، وتقول هيلين:

- «كلُّ شيءٍ سيصير أفضل ذات يومٍ يا روندا. لا يُمكنكِ أن تري هذا الآن، لكنه سيحدث».

وتطوي منديلًا آخَر وتمسح به وتقول:

- «عليكِ الآن أن تكوني صُلبة، أن تُفكِّري في نفسكِ على أنكِ شيء صُلبٌ حاد».

مكتبة الرمحي أحمد

تقول:

- «أنتِ ما زلتِ شابَّة يا روندا. عليكِ استكمال دراستكِ وتحويل هذا الألم إلى مال».

ما زالت امرأة الدجاجات، روندا، تبكي ورأسها مائل إلى الوراء لتَنظُر إلي السَّقف.

هناك غُرفتا نومٍ وراء الحمَّام، إحداهما فيها سرير مائي، وفي الأخرى مَهد تعلوه حلقة دوَّارة من زهور الربيع البلاستيكيَّة. هناك صندوق أدراج مطلي بالأبيض. المَهد خالٍ، والحشيَّة البلاستيكيَّة الصغيرة ملفوفة ومربوطة عند طرفه. بالقُرب من الفراش هناك مجموعة من الكُتب موضوعة فوق كرسي، يعلوها كتاب «قصائد وأغانٍ من حول العالم».

عندما أضعُ الكتاب على التسريحة، يُفتَح على الصفحة 27.

أمرِّرُ طرف دبُّوسٍ مُدبَّب بطول حافة الصفحة الداخليَّة عند الغلاف مباشرةً، وتتحرَّر الصفحة، فأطويها وأدُسُّها في جيبي وأضع الكتاب في مكانه.

أدوات التجميل ملقاة في كومةٍ على الأرض في غُرفة المعيشة.

كانت هيلين قد خلعت قاعًا زائِفًا من داخل الحقيبة، ليكشف عن صفوفٍ من القلادات والأساور ودبابيس الزينة وأزواج الأقراط المُشبَّكة معًا، كلها مُغلَّفة تتألَّق بألوانٍ مُبعثَرة من الأحمر والأخضر والأصفر والأزرق، كلها جواهر. تتدلَّى من يديٍّ هيلين قلادة طويلة ذات أحجارٍ حمراء وصفراء أكبر من أظفارها الورديَّة، وتقول هيلين:

- «في الماسات مخروطيَّة القَطع، انظري كيف لا يتسرَّب الضوء عبر الأسطُح الصغيرة أسفل طوق الماسة».

وتضع القلادة في يد المرأة وتُكمِل:

- «وفي الياقوت، أو أكسيد الألومينيوم، تُعطي الأجزاء الدخيلة في داخله -واسمها إضافات الروتيل- الحجر شكلًا ورديًّا ناعمًا، ما لم يكن الجواهرجي قد خبزه تحت حرارةٍ عالية».

الحيلة التي يجب أن تُمارِسها لنسيان الصورة الكبيرة أن تَنظُر إلى كلِّ شيءٍ من أقرب زاويةٍ ممكنة.

تجلس المرأتان على مقربةٍ شديدةٍ من بعضهما البعض، فتتعشَّق رُكَبهما معًا، وتكاد أيديهما تتلامَس، وامرأة الدجاجات لا تبكي الآن.

تضع امرأة الدجاجات عدسة مُكبِّرة من التي يستخدمها الجواهرجيَّة على عينها.

الزهور الميتة مدفوعة إلى الجانب، وعلى الطاولة الصغيرة بُعثِرَت عناقيد من الورديِّ اللامع والذهبيِّ الناعم، ولآلئ بيضاء باردة ولازورد سماوي، وتتوهَّج عناقيد أخرى بالبرتقالي والأصفر، وتتألَّق كومات أخرى من الجواهر بالفِضِّي والأبيض.

وتضمُّ هيلين في يدها بيضة ذات بريقٍ أخضر وهَّاج يجعل المرأتين خضراويَّ اللون في الضوء المُنعكِس، وتقول:

- «هل ترين الإضافات المتماثِلة الشبيهة بالسِّتار في الزُّمُرُّد الصِّناعي؟».

فتَهِزُّ المرأة رأسها وعينها حول العدسة المُكبِّرة.

وتقول هيلين:

- «تذكَّري هذا. لا أريدكِ أن تحترقي كما حدث لي».

وتَمُدُّ يدها داخِل حقيبة أدوات التجميل لتُخرِج شيئًا أصفر متألِّقًا قائلةً:

- «بروش الياقوت الأصفر هذا كان ملكًا لنجمة السينما ناتاشا رِن».

ثم تُخرِج بكلتا يديها قلبًا ورديًّا لامعًا يتدلَّى من سلسلةٍ طويلةٍ من الماسات الصغيرة، وتقول:

- «وهذه قلادة سبعمئة قيراط من الزُّمُرُّد المِصري كانت ملكًا لماري ملكة رومانيا ذات يوم».

كانت هيلين هوڤر بويل لتقول إن كومة الجواهر هذه مسكونة بأشباح كلِّ من كانوا يملكونها من قبل، كلِّ من كان ثريًّا ناجحًا بما فيه الكفاية لأن يُثبِت هذا. ولَّى جمالهم وذكاؤهم ومواهبهم، لكن هذه الخُردة

المزيَّنة ما زالت هنا تتحدَّى مرور الزمن. كلُّ النجاحات والإنجازات التي كانت هذه الجواهر تُمثِّلها تلاشَت.

بتصفيفة الشَّعر نفسها والماكياج نفسه وجلوسهما على هذه المسافة القريبة جدًّا، تبدو هيلين والمرأة كأختين، تبدوان كأُمٍّ وابنتها... قبل وبعد... الماضي والمُستَقبَل.

هناك المزيد، لكنني أخرج إلى السيَّارة في تلك اللحظة.

تقول مونا من مكانها على الأريكة الخلفيَّة:

- «هل وجدتماه؟».

وأجيبُ بالإيجاب، رغم أن هذا لا يُسدي تلك المرأة شيئًا مفيدًا.

الشيء الوحيد الذي أعطيناها إياه هو شَعرها الكبير ولربما داء القوباء الحلقيَّة كذلك.

يقول أويستر:

- «أرِنا الأغنيَّة. دعنا نرى السَّبب وراء هذه الرحلة كلها».

وأقولُ له إن هذا مستحيل، وأدُسُّ الورقة المطويَّة في فمي وأمضغُ وأمضغُ. تؤلمني قدمي فأخلعُ حذائي، وأمضغُ وأمضغُ. تغيب مونا في النوم، وأمضغُ وأمضغُ. ينظر أويستر من النافذة إلى عُشبٍ ما في مصرف، وأبتلعُ الورقة، ثم أغيبُ في النوم.

ولاحقًا، ونحن في السيَّارة في الطريق إلى البلدة التالية، إلى المكتبة التالية، وربما إلى الماكياج المعجزة التالي كذلك، أستيقظُ لأجد هيلين تقود منذ ثلاثمئة ميلٍ تقريبًا.

قد حلَّ الظلام تقريبًا، وتقول هيلين وهي تَنظُر عبر الزجاج أمامها:

- «إنني أُسجِّل المصروفات».

تعتدل مونا جالسةً وتهرش فروة رأسها وتَغرِس طرف بِنصَرها داخل رُكن عينها، ثم تسحبه بسرعةٍ وقد التصقت به قطعة من العماص، فتمسحها على سروالها الچينز، وتقول:

- «أين سنأكل؟».

فأقولُ لها أن تربط حزام مقعدها.

تُشَغِّل هيلين المصابيح الأماميَّة، وتفتح يدًا على اتِّساعها على عجلة القيادة وتَرمُق ظَهرها حيث خواتمها، وتقول:

- «بعد أن نَعثُر على «كتاب الظِّلال»، عندما نصير قادة أقوياء للعالم كله، بعد أن نُصبِح خالدين ونملك كلَّ شيءٍ في كوكب الأرض كله ويُحبُّنا الجميع، ستبقى مدينًا لي بمئتي دولار هي ثمن أدوات التجميل».

يبدو شكلها غريبًا الآن، تَصفيفة شعرها مختلفة.

ثم أرى أن قِرطيها -الكُتلتين الثقيلتين بلونَيْهما الوردي والأحمر، الصَّفِّير الوردي والياقوت- لم يعودا هناك.

الفصل الحادي والعشرون

لم يَحدُث كلُّ ذلك في ليلةٍ واحدة فقط، وإن كنت تَشعُر بأنها كذلك فعلًا. كان هذا كلَّ ليلة، عبر تكساس وأريزونا، مرورًا بنيڤادا، وخلال كاليفورنيا، وعبر أوريجون وواشنطن وآيداهو ومونتانا. كلُّ ليلةٍ نَقطَع فيها الطريق بالسيَّارة تُشبِه الأخرى أينما كنا.

كلُّ مكانٍ هو المكان نفسه في الظلام.

تقول هيلين هوڤر بويل:

- «ابني پاتريك لم يَمُت».

إنه ميت طِبقًا للسِّجِلَّات الطِّبِّيَّة، لكني لا أُعلِّق.

تقود هيلين السيَّارة، ومونا وأويستر نائمان في الأريكة الخلفيَّة، نائمان أو يُصغيان لما يُقال، وأنا جالِس في المقعد الأمامي إلى جوارها، أستنِد إلى بابي مُبتعِدًا عنها قَدر الإمكان. رأسي يتوسَّد ذراعي، وأُصغي دون أن أنظُر إليها.

وتتكلَّم هيلين دون أن تَنظُر إليَّ كذلك. كلانا يتطلَّع إلى الطريق أمامنا مباشرةً في ضوء المصابيح الأماميَّة التي تَندَفِع تحت مُقدِّمة السيَّارة.

- «پاتريك موجود في مركز نيو كونتينيوام الطِّبِّي، وأنا على ثقةٍ تامَّة بمجيء يومٍ سيتعافى فيه تمامًا».

دفتر التنظيم اليومي الخاص بها مُغلَّفٌ بالأحمر ومُستقرٌّ على المقعد الأمامي بيننا.

نَعبُر نورث داكوتا ومينيسوتا، وأسألها: كيف عثرت على أغنيَّة المَهد؟

وبظُفرٍ ورديٍّ تضغط زِرًّا في مكانٍ ما في ظلام السيَّارة لتُشغِّل مُثبِّت السرعة، وبشيءٍ آخَرٍ في الظلام تُشَغِّل الأضواء الأماميَّة العالية.

- «كنتُ أعمل مندوبة مبيعات لدى شركة سكين تون لمُستحضَرات التجميل، والمقطورة التي كنا نعيش فيها لم تكن مكانًا لطيفًا. أقصد أنا وزوجي».

اسمه چون بويل في السِّجِلَّات الطِّبِّيَّة.

- «تعرف ما يَحدُث عندما تُرزَق بطفلك الأول فيُهديك الناس الكثير من الألعاب والكُتب. لا أدري من أعطانا الكتاب حتى في الحقيقة. كان مجرَّد كتابٍ في كومةٍ من الكُتب».

كان هذا منذ عشرين عامًا تقريبًا طِبقًا للسِّجِلَّات الطِّبِّيَّة.

- «لستَ في حاجةٍ لأن أُخبِرك بما حدث، لكن چون كان يعتقد دائمًا أن الخطأ خطئي».

طِبقًا لسِجِلَّات الشُّرطة، كانت هناك سِتَّة بلاغات بوجود شجار عائلي في بيت الزوجين بويل الكائن في قِطعة الأرض رقم 175 بحديقة بوينا نوتشي للمنازل المقطورة خلال الأسابيع السِّتَّة التي تلت وفاة پاتريك رايموند بويل ذي الشهور السِّتَّة.

نَعبُر ويسكونسن ونبراسكا، وتقول هيلين:

- «كنتُ أذهب من بابٍ إلى بابٍ لبيع مُنتَجات سكين تون، لكني لم أعُد للعمل في الحال. رباه، لا بُدَّ أن عامًا ونِصفًا قد مرَّا بعد پاتريك... بعد النهار الذي وجدنا فيه پاتريك».

تقول هيلين لي إنها كانت تسير في أرض مشروع المنازل المقطورة الذي كانوا يعيشون فيه، حيث التقت امرأةً شابَّة لا تَختَلِف في شيءٍ عن المرأة التي ترتدي المريولة ذات الدجاجات الصفراء... زهور الجنازات الميتة نفسها التي جاءوا بها من المدافن... المَهد الخاوي نفسه.

تقول هيلين مبتسمةً:

- «كنتُ أربح الكثير من المال من مجرَّد بيع كِريمات الأساس ومُستحضَرات إخفاء عيوب البشرة، خصوصًا في نهاية الشهر عندما تكون النقود قليلة».

منذ عشرين عامًا كانت تلك المرأة الأخرى في مِثل عُمر هيلين، وقد أرتها غُرفة الرَّضيع وصُوره وهما تتكلَّمان. كان اسمها سينثيا مور، وكانت لديها عين مُسودَّة نتيجة لطمة.

- «ورأيتُ أن لديهم نُسخة من الكتاب نفسه الذي لدينا، «قصائد وأغانٍ من حول العالم»».

هذان الزوجان الآخَران احتفظا بالكتاب مفتوحًا على الصفحة ذاتها منذ ليلة وفاة طِفلهما. الكتاب وملاءة المَهد كانا يشيان بأنهما يُحاوِلان الحفاظ على كلِّ شيءٍ كما هو.

- «وطبعًا كانت الصفحة نفسها كما في نُسختنا من الكتاب».

كان چون بويل يشرب الكثير من البيرة كلَّ ليلة. قال إنه لا يريد إنجاب طِفلٍ آخَر لأنه لا يثق بها، وإذا كانت لا تدري الخطأ الذي ارتكبته، فالمُخاطَرة أعلى من اللازم.

يدي الموضوعة على المقعد الجِلدي الساخِن تُشعرني كأنني ألمس شخصًا آخَر.

نَعبُر كولورادو وكانساس وميزوري، وتقول هيلين:

- «تلك الأُم الأخرى في حديقة المنازل المقطورة، جاء يوم وجدتُ فيه مزادًا مُرتَجَلًا أمام منزلها. جميع أغراض رضيعها كانت مطويَّة في كوماتٍ على العُشب بسِعر رُبع دولار للقِطعة. كان الكتاب هناك فاشتريته، وسألتُ الرجل هناك عن سبب بيعها كل شيء، فاكتفى بأن هزَّ كتفيه».

طِبقًا للسِّجِلَّات الطِّبِّيَّة، فقد شربت سينثيا مور مُنظِّف بالوعاتٍ سائل وماتت بنزيف الدوالي المرِّيئيَّة والاختناق بعد ثلاثة شهورٍ من وفاة رضيعها دون سببٍ واضح.

- «كان چون يَشعُر بالقلق من الجراثيم، فأحرق جميع أغراض پاتريك. اشتريتُ كتاب القصائد بعشرة سنتات، وأذكرُ أنه كان يومًا صحوًا».

تُبيِّن سِجِلَّات الشُّرطة ثلاثة بلاغات أخرى عن شجار عائلي في قِطعة الأرض رقم 175 بحديقة بوينا نوتشي للمنازل المقطورة. بعد أسبوعٍ من انتحار سينثيا مور، عُثِرَ على چون بويل ميتًا بلا سببٍ واضح. طِبقًا للسِّجِلَّات الطِّبِّيَّة، فمن المُحتمَل أن تركيز الكحول العالي في دمه قد

تسبَّب في انقطاع التنفُّس أثناء النوم، ومن الأسباب المُحتمَلة الأخرى أنه اختنق بسبب نومه في وضعٍ خاطئ. من الوارِد أنه كان ثمِلًا جدًّا لدرجة أنه غاب عن الوعي في وضعٍ جعله عاجِزًا عن التقاط أنفاسه. في جميع الأحوال لم تكن هناك علامات على الجُثَّة، ولم يكن هناك سبب واضِح للموت في شهادة الوفاة.

نَعبُر إلينوي وإنديانا وأوهايو، وتقول هيلين:

- «لم أقتل چون مع سَبق الإصرار والترصُّد، بل كنتُ أشعر بالفضول فحسب».

تمامًا كما فعلتُ مع دنكان...

- «كنتُ أتحقَّق من صِحَّة نظريَّةٍ لا أكثر. ظلَّ چون يُرَدِّد أن شبح پاتريك معنا، وظللتُ أردِّد أن پاتريك لا يزال حيًّا في المستشفى».

تقول إن پاتريك لا يزال في المستشفى بعد مرور عشرين عامًا، ولا أُعلِّق على الرغم من جنون ما تقول. لا أتخيَّل كيف يبدو رضيع في غيبوبة أو مُتَّصل بأجهزة الإعاشة أو غيرها بعد عشرين عامًا.

تخيَّل أويستر يقضي معظم حياته وقد خرج منه أنبوب تغذية من ناحيةٍ وقسطرة من ناحيةٍ أخرى.

ثمَّة أشياء يُمكنك أن تفعلها بمن تُحِبُّهم أسوأ من قتلهم.

تَعتَدِل مونا جالسةً في الأريكة الخلفيَّة، وتفرد ذراعيها قائلةً:

- «في اليونان القديمة كانوا يكتبون أقوى اللعنات بمسامير من حطام السُّفُن الغارِقة. كان البَحَّارة الذين يموتون في البحر لا ينالون جنازة لائِقة، والإغريق كانوا يعرفون أن أرواح الموتى الذين لا يُدفَنون هي الأكثر قلَقًا وتدميرًا».

وتقول هيلين:

- «اخرسي!».

نَعبُر وِست ڤرچينيا وپنسلڤانيا ونيويورك، وتقول هيلين:

- «أكره من يَدَّعون أنهم يستطيعون رؤية الأشباح. ليس هناك شيء اسمه الأشباح. عندما تموت فإنك تصير ميتًا، وليس هناك عالم آخَر. من يَدَّعون استطاعتهم رؤية الأشباح يرغبون في جذب الانتباه إليهم لا أكثر. هؤلاء الذين يؤمنون بتناسُخ الأرواح يؤجِّلون حياتهم فقط».

وتبتسم وتُضيف:

- «ولحُسن حظِّي أني وجدتُ وسيلة لمعاقَبة هؤلاء وجني الكثير من المال في آنٍ واحد».

يرنُّ هاتفها المحمول، وتقول:

- «إذا كنت لا تُصدِّق ما قلته عن پاتريك، فيُمكنني أن أريك فاتورة المستشفى لهذا الشهر».

ويرنُّ هاتفها المحمول مرَّة أخرى.

نَعبُر ڤرمونت وهي تقول هذا. تقول أجزاء منه ونحن نَعبُر لويزيانا في الظلام، ثم أركانساس ومسيسيپي. كلُّ تلك الولايات الشرقيَّة نَعبُر اثنتين أو ثلاثًا منها في بعض الليالي.

تفتح هيلين الهاتف وتجيب:

- «هيلين تتكلَّم».

وتتفحَّصني بعينيها قائلةً:

- «طِفل خفي حبيس داخل جِدار غُرفة النوم؟ ويبكي طول الليل؟ حقًّا؟».

أجزاء أخرى من تلك القِصَّة لم أعرفها حتى عُدنا إلى الديار وأجريتُ بعض الأبحاث.

تضع هيلين الهاتف على صدرها، وتقول:

- «كلُّ ما أقوله لك غير قابلٍ للنَّشر إطلاقًا. إلى أن نَعثُر على «كتاب الظِّلال»، فلا يُمكننا تغيير ما حدث. سوف أستخدم تعويذة من ذلك الكتاب أضمنُ بها أن يتعافى پاتريك تمامًا».

الفصل الثاني والعشرون

نَعبُر الغرب الأوسط والراديو مفتوح على محطَّة AM ما، ويقول صوت رجلٍ إن الدكتورة سارة لونستاين كانت منارة للأمل والفضيلة في يباب الحياة العصريَّة. كانت الدكتورة سارة شخصيَّة أخلاقيَّة صارِمة تَرفُض أيَّ شيءٍ أقلَّ من السلوك الملتزِم المستقيم، كانت معقلًا للمعايير النزيهة، سِراجًا منيرًا يكشف عن شرور هذا العالم. سوف تظلُّ الدكتورة سارة- يقول الرجل- في قلوبنا وأرواحنا دائمًا، لأن روحها كانت شديدة القُوَّة شديدة الـ...

ويتوقَّف الصوت...

وتَضرِب مونا ظَهر المقعد، تَضرِبه وراء كُلَيَتي مباشرةً، وتقول:

- «ليس مُجدَّدًا. كُفَّ عن تفريغ مشاكلك الخاصَّة في الأبرياء».

فأقولُ لها أن تَكُفَّ عن إلقاء الاتِّهامات. لعلها البُقَع الشمسيَّة تحجِب موجات الراديو لا أكثر.

هؤلاء المُدمِنون للكلام... هؤلاء المرعوبون من الإصغاء...

لقد دارت الأغنيَّة في رأسي بسرعةٍ لم تجعلني ألحظها حتى. كنتُ

نِصف نائم. هكذا صار الأمر خارِج السيطرة إذن. يُمكنني أن أقتل وأنا نائم الآن!

بعد بضعة أميالٍ من الصَّمت، ما يُطلِق عليه صحافيُّو الراديو اسم الهواء الميت، يَخرُج صوت رجلٍ آخر من الراديو قائلًا كيف أن الدكتورة سارة لونستاين كانت بمثابة بوصلة الأخلاق التي كان ملايين من المُستَمِعين يقيسون حياتهم طِبقًا لها، كيف كانت سيف الله المُضطَرِم الذي أُرسِل إلينا لتوجيه المُذنِبين والأشرار من معبد الـ...

ويتوقَّف صوت الرجل الجديد...

وتَضرِب مونا ظَهر المقعد بقُوَّةٍ قائلةً:

- «هذا ليس مُضحِكًا! واعظو الراديو هؤلاء أناس حقيقيُّون!».

وأقولُ إنني لم أفعل شيئًا...

وتُقَهقِه هيلين وأويستر...

وتَعقِد مونا ذراعيها على صدرها وتُلقي بنفسها إلى الوراء في الأريكة الخلفيَّة، وتقول:

- «ليس لديك أيُّ احترام على الإطلاق. إنك تعبث بمليون عامٍ من القوَّة».

وتضع يديها على أويستر وتدفعه بعُنفٍ ليضرب الباب، وتقول له:

- «وأنت أيضًا. شخصيَّات الراديو البارِزة لا تقل أهمِّيَّةً عن الأبقار أو الخنازير».

والآن تَخرُج موسيقى راقصة من الراديو.

يرنُّ هاتف هيلين، فتفتحه وتضغطه على أذنها من فوق شَعرها، وتشير برأسها إلى الراديو مُحرِّكةً شفتيها بكلمة «اخفِض الصوت»، وتقول على الهاتف:

- «نعم. آها، نعم، أعرفُ من يكون. أخبِرني أين هو الآن، أقرب بُقعة يُمكنك تحديدها».

أخفِض صوت الراديو، بينما تُصغي هيلين لمُحدِّثها، ثم تقول:

- «لا. أريدُ ماسة مُزَخرَفة عيار خمسة وسبعين قيراطًا، اللون أزرق وأبيض. اتَّصل بمستر درِسكَر في چنيڤ. إنه يعرف الماسة التي أريدها بالضبط».

ترفع مونا حقيبتها من على الأرضيَّة وتُخرِج مجموعة من أقلام التخطيط المُلوَّنة وكتابًا سميكًا مُجلَّدًا بقماشٍ أخضر داكن مُطرَّز، وتفتح الكتاب في حِجرها وتشرع في الشخبطة فيه بقلمٍ أزرق، ثم تضع غطاء القلم وتبدأ في الشخبطة بآخَر أصفر.

وتقول هيلين:

- «لا يهم مستوى التأمين، سيتم الأمر خلال أقلِّ من ساعة».

وتُغلِق الهاتف وتَترُكه يَسقُط على المقعد إلى جوارها.

على المقعد الأمامي بيننا يستقرُّ دفتر التنظيم اليومي الخاص بها، فتفتحه وتُدوِّن فيه اسمًا وتاريخ اليوم.

الكتاب في حِجر مونا هو «كتاب المرايا». تقول مونا إن جميع السَّحرة الحقيقيِّين يملكون كتابًا مُشابِهًا. إنه أقرب إلى دفتر يوميَّات وكتاب وصفات يجمعون فيه ما يتعلَّمونه عن السِّحر والطقوس.

وتقرأ في الكتاب قائلةً:

- «على سبيل المثال، يقول ديموقريطس إن إحراق رأس حرباء في نارٍ يُغذّيها خشب البلُّوط يتسبَّب في عاصفةٍ رعديَّة».

وتميل إلى الأمام لتقول في أذني مباشرةً:

- «تعرف ديموقريطس، أليس كذلك؟ إنه مُختَرِع الديموقراطيَّة».

وأعُدُّ 1... أعُدُّ 2... أعُدُّ 3...

لإخراس أحدهم، طِبقًا لمونا، لجعله يتوقَّف عن الكلام، خُذ سمكة وخَيِّط فمها.

لعلاج ألم الأذن، طِبقًا لمونا، عليك استخدام مَنيِّ خنزيرٍ بَرِّي وهي تسيل من مِهبل أنثاه.

طِبقًا لمجموعة التعاويذ اليهوديَّة المعروفة باسم سِفِر ها-رازيم، عليك أن تَقتُل جروًا أسود قبل أن يرى نور النهار، ثم اكتب لعنتك على لوحٍ، وضَع اللوح داخل رأس الجرو، ثم أغلِق الفم بالشَّمع وخبِّئ الرأس وراء منزل الشخص المقصود باللعنة، ولن يَخلُد هذا الشخص إلى النوم أبدًا.

تقول مونا:

- «طِبقًا لثيوفراستوس، عليك أن تنزع زهرة الفاوانيا من التُّربة ليلًا فقط، لأنه إذا رآك نقَّار الخشب وأنت تفعل هذا، فسوف تَفقِد بصرك. وإذا رآك نقَّار الخشب وأنت تقطع الجذور، فسوف يتدلَّى شرجك».

وتقول هيلين:

- «أتمنَّى لو كانت معي سمكة!».

طِبقًا لمونا، لا يَجدُر بك أن تَقتُل الناس، لأن هذا يُبعِدك عن الإنسانيَّة. لتبرير القتل، فإنك تُحوِّل ضحيَّتك إلى عَدُوِّك. لتبرير أيِّ جريمة، فإنك تُحَوِّل ضحيَّتك إلى عَدُوِّك دائمًا.

بعد فترةٍ كافيةٍ سيصير جميع من في العالم أعداءك.

تقول مونا إنك تتغرَّب عن العالم أكثر فأكثر بعد ارتكاب كلِّ جريمة، وشيئًا فشيئًا ستتخيَّل أن العالم كله ضدك.

تقول مونا:

- «لم تبدأ الدكتورة سارة لونستاين بمُهاجَمة وتقريع كلٍّ من يتَّصلون ببرنامجها الإذاعي. في البدء كانت لديها مساحة زمنيَّة صغيرة وجمهور محدود، وبدا أنها تهتمُّ بمُساعَدة الناس فعلًا».

ولربما بعد سنواتٍ وسنواتٍ من تلقِّي المكالمات نفسها عن الحَمل غير المرغوب والطلاق والشِّجارات العائليَّة، ولربما لأن جمهورها قد نما وصار برنامجها يُذاع في فترة الذُّروة، ولربما لأنها أصبحت تكسب مالًا أكثر، ولربما لأن السُّلطة تُفسِد، لكنها لم تكن تلك الشخصيَّة بنت الوسخة دائمًا.

تقول مونا إن السبيل الوحيد للخروج من هذا هو الاستسلام وترك العالم يَقتُل هيلين ويَقتُلني لقاء جرائمنا... أو أن نَقتُل نفسينا.

أسألها إن كان ما تقوله هو مزيد من هراء سَحرة الويكا، فتجيب:

- «لا، في الحقيقة هذا كلام كارل ماركس».

وتقول مونا:

- «هذان هما السبيلان الوحيدان للعودة إلى الإنسانيَّة بعد أن تَقتُل شخصًا ما».

وتُواصِل الرسم في كتابها مضيفةً:

- «هذا هو السبيل الوحيد للعودة إلى مكانٍ لا يكون العالم فيه خَصمًا لك، حيث لن تكون وحيدًا تمامًا».

وتقول هيلين:

- «سمكة وخيط وإبرة!».

وأنا لستُ وحدي...

إن لديَّ هيلين...

لعل هذا هو السبب الذي يجعل كثيرين من القتلة المُتسلسِلين يعملون أزواجًا، فمن الجميل ألَّا تَشعُر بالوحدة في عالمٍ يعجُّ بالضحايا والأعداء، فلا عجب أن ڤالتراود ڤاجنر -ملاك الموت النمساويَّة- أقنعَت صديقاتها بأن يقتلنَ معها.

المبدأ طبيعيٌّ جدًّا...

أنا وأنتِ في مُواجَهة العالم...

جاري لوينجدن كان لديه أخوه ثاديوس. كينيث بيانكي كان لديه أنجلو بونو. لاري بيتاكر كان لديه روي نوريس. دوج كلارك كان لديه كارول بَندي. ديڤيد جور كان لديه فرِد ووترفيلد. جوين جراهام كان لديها كاثي وود. دوج جرتزلر كان لديه بيل ستيلمان. چو كالينچر كان لديه ابنه مايك. پات كيرني كان لديه ديڤ هيل. آندي كوكوراليس كان لديه أخوه توم. ليو ليك كان لديه تشارلز إنچي. هنري لوكاس كان لديه

أوتيس تول. ألبرت آنسلمي كان لديه چون سكاليس. آلن مايكل كان لديه كليمون چونسن. كلايد بارو كان لديه بوني پاركر. دوج بيمور كان لديه كيث كوزبي. إيان برادي كان لديه مايرا هيندلي. توم براون كان لديه ليو ماين. بن بروكس كان لديه فِرِد تريش. چون براون كان لديه سام كوتزي. بيل بِرك كان لديه بيل هاير. إركسن بوروز كان لديه لاري تاكلين. چوس باكس كان لديه ماريانو ماكو. بروس تشايلدز كان لديه هنري مكِنِي. ألتون كولمان كان لديه دِبِي براون. آن فرنش كان لديها ابنها بيل. فرانك چوزنبرج كان لديه أخوه پيتر. دلفينا جونزالز كان لديها أختها ماريا. الدكتور تيت هارِن كان لديه الدكتور توم آلجن. إميليا ساكس كان لديها آني والترز.

ثلاثة عشر في المئة من القتلة المُتسلسِلين المعروفين كانوا يعملون أزواجًا.

في سان كوينتن كان المحكوم عليه بالإعدام راندي كرافت -قاتل بطاقة النقاط- يلعب البريدچ مع دوج كلارك -قاتل الغروب- ولاري بيتاكر -قاتل الزَّرَّدِيَّة- وبيل بونين المُلقَّب بقاتل الطريق السريع. بين أربعتهم يُقدَّر عدد الضحايا بـ126 ضحيَّة.

وهيلين هوڤر بويل وأنا نعمل معًا...

قال بونين ذات مرَّةٍ لمُراسِلٍ صحافي:

- «لم أستطع التوقُّف عن القتل، وفي كلِّ مرَّةٍ صار الأمر أسهل».

ولا بُدَّ أن أتَّفق معه، فالقتل يتحوَّل إلى عادةٍ سيِّئة مع الوقت.

يقول الصوت على الراديو إن الدكتورة سارة لونستاين كانت ملاكًا

ذات قُوَّةٍ وتأثيرٍ بلا مُنازِع، كانت يد الله المجيدة، ضمير العالم من حولها، عالم الخطيئة والنوايا الوحشيَّة، عالم الـ...

كلما مات المزيد من الناس، كلما ظلَّت الأشياء كما هي.

يقول أويستر وهو يشير برأسه نحو الراديو:

- «هَلُمَّ، اثبت نفسك. اقتل ابن الوسخة هذا أيضًا».

وأعُدُّ 37... أعُدُّ 38... أعُدُّ 39...

لقد نزعنا السلاح من سبع نُسخ من كتاب القصائد منذ غادرنا الديار. الطبعة الأصليَّة كانت 500 نُسخَة، ما يعني أن 306 نُسخَة قد تم القضاء عليها، فتتبقَّى 194 نُسخة أخرى.

تقول الجريدة إن الرجل ذا معطف المطر الجِلديِّ الأسود، الرجل الذي دفعني على الرصيف، كان يتبرَّع بالدَّم شهريًّا، وإنه قضى ثلاث سنواتٍ في قُوَّات حِفظ السلام يحفُر آبار المياه للمجذومين، وإنه تبرَّع بجزءٍ من كبده لإنقاذ حياة فتاةٍ صغيرةٍ من بتسوانا أكلت حبَّة فِطرٍ سامَّة، وإنه كان يردُّ على الهاتف خلال حملات جمع التبرُّعات لعلاج مرضٍ يصيب بالشَّلل نسيتُ اسمه.

لكنه كان يستحق الموت، فقد نعتَني بالأحمق!

لقد دفعَني!

في الجريدة صورة لوالديٍّ جاري في الطابق الذي يعلوني يبكيان على تابوته.

لكن صوت الستريو عنده كان عاليًا جدًّا جدًّا!

تقول الجريدة إن مودل أزياء تظهر على أغلفة المجلَّات اسمها دِنِي ديتسترو عُثِرَ عليها ميتةً هذا الصباح في شقَّتها في الطابق العلوي الواقعة في واحدةٍ من بنايات وسط البلد.

ولسببٍ ما أتمنَّى أن ناش لم يُكلَّف بنقل هذه الجُثَّة.

ويشير أويستر إلى الراديو قائلًا:

- «هَلُمَّ يا بابا، اقتله، وإلا فكلامك كله هراء في هراء».

حقًّا، العالم كله ليس إلَّا مجموعة من أولاد الوسخة.

تفتح هيلين هاتفها وتتَّصل بالمكتبات في أوكلاهوما وفلوريدا، وتجد نُسخة أخرى من الكتاب في أورلاندو.

وتقرأ مونا من كتابها علينا كيف أن قدماء الإغريق كانوا يصنعون ألواح لعناتٍ اسمها الديفيكشَن.

وكان الإغريق يستخدِمون دُمى الكولوسي المصنوعة من البرونز أو الشَّمع أو الطَّمي، ويطعنونها بالمسامير أو يلوونها ويُشوِّهونها، أو يقطعون رؤوسها أو أيديها. كانوا يضعون شَعرًا من الضحيَّة أو لعنة مكتوبة على ورق البردي تُلَفُّ وتوضع داخل الدُّمية.

في مُتحف اللوفْر ثمَّة تمثال مِصري من القرن الثاني بَعد الميلاد، يُمثِّل امرأة عارية مُقيَّدة القدمين وقد غُرِسَت مسامير في عينيها وأذنيها وفمها وثدييها ويديها وقدميها وفَرجها وشرجها.

تُشَخبِط مونا في كتابها بقلمٍ برتقالي، وتقول:

- «أيًّا كان من صنع تلك الدُّمية كان ليُحبَّك أنت وهيلين».

كانت ألواح اللعنات عبارةً عن ورقةٍ رقيقة من النُّحاس أو الرَّصاص، أو الطَّمي أحيانًا. تكتب لعنتك عليها بمسمارٍ من حطام سفينةٍ غارِقة، ثم تطوي الورقة وتَغرِس المسمار فيها. عندما تكتب، فإنك تكتب السَّطر الأول من اليسار إلى اليمين، والتالي من اليمين إلى اليسار، والثالث من اليسار إلى اليمين، وهكذا. وإذا أمكن، تُطوى الورقة حول بضع شُعيراتٍ من رأس الضحيَّة، أو حول قصاصة من ثيابه، ثم إنك تُلقي اللعنة في بئرٍ أو بحيرةٍ أو البحر؛ أيُّ شيءٍ يحملها إلى العالم السُّفلي كي تقرأها الشياطين وتُنفِّذ أمرك.

ما زالت هيلين تتكلَّم على الهاتف، وتضعه على صدرها لحظةً وتقول:

- «كأنك تَطلُب شيئًا من على الإنترنت».

وأعُدُّ 346... أعُدُّ 347... أعُدُّ 348...

تقول مونا إن التاريخ الأدبي لدى الإغريق والرومان يقول إن هناك سَحرة ليليِّين وسَحرة نهاريِّين. النهاريُّون أخيار يرعون غيرهم، واللَّيليُّون يتَّسمون بالسِّرِّيَّة ويهدفون إلى تدمير الحضارة كلها.

وتقول مونا:

- «كلاكما من السَّحرة اللَّيليِّين بكلِّ تأكيد».

تقول مونا إن السِّحر كان جزءًا من الحياة اليوميَّة لأولئك القوم الذين قدَّموا لنا الديموقراطيَّة والعمارة. كان رجال الأعمال يُلقون لعناتٍ على بعضهم بعضًا، والجيران يلعنون جيرانهم، وبالقُرب من موقع الألعاب الأوليمپيَّة الأصليَّة عثر عُلماء الآثار على آبار قديمة مُكتظَّة بلعناتٍ ألقاها رياضيُّون على رياضيِّين آخَرين.

تقول مونا:

- «لم أخترع أيًّا من هذا الكلام».

التعاويذ الخاصَّة باجتذاب الحبيب كان اسمها أجوجاي في اليونانيَّة القديمة.

اللعنات الخاصَّة بتدمير علاقةٍ ما كان اسمها دياكوپوي.

تتكلَّم هيلين بصوتٍ أعلى على الهاتف قائلةً:

- «الدَّم يسيل على جدران المطبخ؟ أجل، لست مضطرًّا للعيش بهذا الوضع طبعًا».

ويقول أويستر على هاتفه:

- «أريدُ رقم قِسم الإعلانات المدفوعة بالتَّقسيط في جريدة *Miami Telegraph-Observer*».

ويُقاطِع الراديو كلَّ شيءٍ بكورَس من الأبواق الفرنسيَّة، وعلى خلفيَّةٍ من صوت أزرار جهاز تلقين يأتي صوت رجلٍ يقول:

- «عُثِر على المُشتبَه بكونه زعيم أكبر اتِّحادٍ لتُجَّار المُخدِّرات في أمريكا الجنوبية ميتًا في شقَّته في الطابق الأخير في واحدةٍ من بنايات ميامي. يُعتقَد أن جوستاف برِنان، الذي كان يبلغ من العُمر تسعة وثلاثين عامًا، هو المسؤول الرئيس عن مبيعاتٍ سنويَّةٍ للمخدِّرات تَبلُغ ثلاثة بلايين دولار تقريبًا. لم تجد الشُّرطة سببًا للوفاة، لكن هناك نيَّة لتشريح الجُثَّة».

وتَنظُر هلين إلى الراديو وتقول:

- «هل تسمعون هذا؟ إنه سُخف».

وترفع صوت الراديو مضيفة:

- «اسمعوا».

ويقول الصوت على الراديو:

- «... برِنان، الذي كان يعيش داخل قلعةٍ من الحَرس الشخصي المُسلَّح، كان خاضعًا بصِفةٍ مُستمرَّة لمُراقَبة الـFBI».

وتقول لي هيلين:

- «أما زالوا يستخدمون أجهزة التلقين هذه أصلًا؟».

والاسم الذي كتبته هيلين عندما تلقَّت تلك المُكالَمة -مُكالَمة الماسة الزرقاء البيضاء- في دفتر التنظيم اليومي هو جوستاف برِنان.

الفصل الثالث والعشرون

منذ قرونٍ كان البحَّارة الذين يَخرُجون في رحلاتٍ طويلة يتركون زوجًا من الخنازير على كلِّ جزيرةٍ مهجورةٍ في طريقهم، أو زوجًا من الماعز، وفي الحالتين كانت الجزيرة تخدم كمصدرٍ للَّحم في أيِّ زيارةٍ تالية. كانت تلك الجُزر مُحتفِظة في البداية بنقائها الطبيعي، وكانت وطنًا لسُلالاتٍ من الطيور بلا حيواناتٍ تَفترِسها، سُلالاتٍ لا تعيش في أيِّ مكانٍ آخَر على سطح الكوكب، وتطوَّرت النباتات هناك دون أشواكٍ أو سموم لغياب الأعداء، فصارت تلك الجُزر جنَّة حقيقيَّة.

وفي المرَّة التالية التي يزور فيها البحَّارة تلك الجُزر، كانوا لا يجدون شيئًا سوى قُطعان الخنازير أو الماعز.

أويستر هو من يحكي هذه القِصَّة.

كان البحَّارة يُطلِقون على هذا النشاط اسم «اللَّحم المبذور».

يقول أويستر:

- «هل يُذَكِّرك هذا بأيِّ شيء؟ قصَّة آدم وحوَّاء ربما؟».

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ويَنظُر من نافذة السيَّارة ويقول:

- «ألا تتساءل متى يعود الله حاملًا معه الكثير من صلصة الشواء؟».

في الخارِج ثمَّة بحيرة كبيرة يمتدُّ ماؤها إلى الأفق، ويقول أويستر إن لا شيء يَسكُنها إلَّا محار الزيبرا وسمك الأنقليس مصَّاص الحجر. رائحة الأسماك الكريهة تملأ الهواء.

مونا معها وسادة من الشَّعير واللاڤندر تضغطها على وجهها بيديها معًا، وعلى ظَهر اليدين تمتدُّ رسوم الحِنَّاء الحمراء بطول كلِّ إصبع، ثعابين ونباتات معترشة تلتوي وتتشابك معًا.

يرنُّ هاتفه المحمول، فيسحب أويستر الهوائي ويضع الهاتف على أذنه قائلًا:

- «مكتب ديمر وديڤيس وهوپ للمحاماة».

ويَدُسُّ إصبعًا في أنفه، ثم يُخرِجه ويَنظُر إليه، ويقول على الهاتف:

- «متى بدأ الإسهال بعد الأكل هناك؟».

يراني أنظرُ إليه، فيَنفُض إصبعه نحوي.

وتقول هيلين في هاتفها:

- «سُكَّان المنزل السابقون كانوا سعداءَ للغاية. إنه منزل جميل».

في صفحة الترفيه في الجريدة المحلِّيَّة، *Erie Register-Sentinel*، ثمَّة إعلان يقول عنوانه: **«الرجاء الانتباه... لمُرتادي نادي كَنتري هاوس للجولف»**، ويقول متنه: «هل أُصِبتم بعدوى في عَصَب العضلة الرُّكابِيَّة من حوض السباحة أو حمَّامات غُرفة خلع الملابس؟ إذا حدث هذا، فيُرجى الاتِّصال بالرقم التالي للمُشارَكة في دعوى جماعيَّة».

تعرف طبعًا أن الرقم هو رقم هاتف أويستر المحمول.

يقول أويستر إن في سبعينات القرن التاسع عشر، أراد رجل اسمه سپنسر بايرد أن يلعب دور الإله، عندما قرَّر أن أرخص أنواع الپروتين للأمريكان هو سمك الشَّبُّوط الأوروبي، وطيلة عشرين عامًا ظَلَّ يشحن أسماك الشَّبُّوط الصغيرة إلى كلِّ رُكنٍ من البلاد، وأقنع مئة سِكَّة حديد مُختلِفة بنقل الأسماك وإطلاقها في كلِّ مُسطَّحٍ مائي تَعبُره القطارات، بل إنه قام كذلك بتجهيز عربات قطار بخزَّانات خاصَّة تحمل شَحناتٍ تَبلُغ تسعة أطنان من الشَّبُّوط الصغير إلى كلِّ مُستَجمَع أمطار في أمريكا الشماليَّة.

يرنُّ هاتف هيلين فتفتحه. دفتر التنظيم اليومي مفتوح على المقعد بجوارها، وتقول:

- «وأين صاحِب السُّمو الملكي الآن بالتحديد؟».

وتُدَوِّن اسمًا تحت تاريخ اليوم في الدفتر، ثم تقول:

- «اطلُب من مستر درِسكَر أن يُجَهِّز لي زوج الأقراط الزُّمُرُّد».

في صفحة المنوَّعات في جريدةٍ أخرى، *Cleveland Herald-Monitor*، ثمَّة إعلان يقول عنوانه: **«الرجاء الانتباه... لمُرتادي سلسلة محال أپارل ديزاين للملابس»**، ويقول متنه: «إذا أُصِبتم بقوباء الأعضاء التناسليَّة من جرَّاء تجربة الملابس في هذا المكان، فيُرجى الاتِّصال بالرقم التالي للمُشارَكة في دعوى جماعيَّة».

ومرَّة أخرى هو الرقم نفسه، رقم أويستر.

يقول أويستر إن في تسعينات القرن التاسع عشر أراد رجل آخَر

أن يلعب دور الإله، إذ أطلق يوچين شيفلِن ستّينَ من طيور الزرزور الأوروبي، *Sturnus vulgaris*، في حديقة سنترال پارك في نيويورك، وبعد خمسين عامًا كان الطائر قد انتشر حتى سان فرانسسكو، واليوم هناك أكثر من مئتي مليون زرزور أوروبي في الولايات المتَّحدة، وكلُّ هذا لأن المدعو شيفلِن أراد أن يَضُمَّ العالم الجديد كلَّ طائرٍ ذكَرَه شيكسپير في كتاباته.

ويقول أويستر على هاتفه المحمول:

- «لا يا سيدي، لن يتم الإفصاح عن اسمك إطلاقًا».

تُغلِق هيلين هاتفها، وتضع يدها ذات القُفَّاز على فمها وأنفها قائلةً باشمئزاز:

- «ما هذه الرائحة الشنيعة؟».

فيضع أويستر هاتفه على صدره مجيبًا:

- «أسماك الألويف النَّافِقة».

يقول أويستر إنه منذ إعادة هندسة قناة وِلاند سنة 1921، للسَّماح بالمزيد من حركة المِلاحة حول شلَّالات نياجرا، غزت أسماك الجَلَكي جميع البحيرات الكُبرى. تمتصُّ هذه الطُّفيليّات الدَّم من الأسماك الأكبر حجمًا، مِثل التروتة والسلمون، وتقتلها، فتظلُّ الأسماك الأصغر دون ما يتغذَّى عليها ويحدث انفجار في تِعدادها، إلى أن تنفد العوالِق التي تُمَثِّل غذاءها وتموت بالملايين.

يقول أويستر:

- «أسماك الألويف الحمقاء الجَشِعة. هل تُذَكِّرك بجِنسٍ آخَر؟».

يقول:

- «إما أن يتعلَّم الجِنس كيف يتحكَّم في تِعداده، أو سيتولَّى الأمر شيء آخَر كالأمراض أو المجاعات أو الحروب».

يأتي صوت مونا مكتومًا من وراء الوسادة إذ تقول:

- «لا تقُل لهما. إنهما لن يفهما».

وتفتح هيلين حقيبتها على المقعد المجاوِر لها بيدٍ واحدةٍ وتُخرِج اسطوانة لامعة. يعمل مُكيِّف الهواء على أعلى درجة، وتَرُشُّ هيلين مُعطِّر الأنفاس على منديلٍ تضعه على أنفها، وتَرُشُّ مُعطِّر الأنفاس في فتحات المُكيِّف قائلةً:

- «ألهذا علاقة بأغنيَّة الاجتباء؟».

ودون أن ألتفت أسألُ أويستر:

- «هل تريد استخدام الأغنيَّة للتحكُّم في التَّعداد السُّكَّاني؟».

ويضحك ويجيب:

- «نوعًا!».

وتَخفِض مونا الوسادة إلى حِجرها قائلةً:

- «لهذا علاقة بـ»الجريموار»».

يَطلُب أويستر رقمًا آخَر على الهاتف ويقول:

- «علينا أن نتشارَكه إذا عثرنا عليه».

فأقولُ إننا سنُدمِّره.

وتقول هيلين:

- «بعد أن نقرأه».

ويقول أويستر على الهاتف:

- «نعم، سأنتظر».

ثم يقول لنا:

- «تقليديٌّ للغاية. إن لدينا هيكل السُّلطة في المُجتمَع الغربي كاملًا في هذه السيَّارة».

طِبقًا لأويستر، فإن كلَّ بابا يملك السُّلطة كلها، ومن ثم لا يرغب في أن يتبدَّل أيُّ شيء.

يقصِدني أنا...

وأعُدُّ 1... أعُدُّ 2... أعُدُّ 3...

ويقول أويستر إن كلَّ ماما تملك نزرًا يسيرًا من السُّلطة، لكنها تطمع في المزيد.

يقصِد هيلين...

وأعُدُّ 4... أعُدُّ 5... أعُدُّ 6...

والصغار يملكون مقدارًا قليلًا جدًّا من السُّلطة أو لا سُلطة على الإطلاق، فيُحاوِلون يائسين الحصول على أيِّ لمحةٍ منها.

أويستر ومونا...

وأعُدُّ 7... أعُدُّ 8... ويتكلَّم أويستر ويتكلَّم...

هؤلاء المرعوبون من الصَّمت... هؤلاء المُدمِنون للثَّرثرة...

يبتسم أويستر بنِصف فمه فقط قائلًا:

- «كلُّ جيلٍ يريد أن يكون الجيل الأخير».

ويقول على الهاتف:

- «نعم، أريدُ أن أنشُر إعلانًا مدفوعًا بالتَّقسيط. نعم، سأنتظر».

وتضع مونا الوسادة على وجهها مرَّة أخرى، وتتلوَّى الثعابين والنباتات المعترشة الحمراء على أصابعها.

يقول أويستر:

- «التشيتجراس والخردل والكرمة الشَّرق آسيويَّة، الشَّبُّوط الأوروبي والزرزور واللحم المبذور».

يَرمُق أويستر العالم خارِج نافذة السيَّارة ويقول:

- «ألم تتساءل من قبل إن كان آدم وحوَّاء قد طُرِدا من الجَنَّة لأنهما كانا كجَرْوَيْنِ غير قابِلَيْنِ للتعوُّد على الحياة داخِل البيت؟».

ويفتح النافذة، وتهبُّ الرائحة إلى داخِل السيَّارة، رائحة الأسماك الميتة النَّتِنة، ويصيح في الرياح:

- «لعل البَشر ليسوا إلَّا التماسيح الأليفة التي تخلَّص الله منها في المرحاض[1]».

(1) هناك أسطورة حضريَّة أمريكيَّة تقول إن هناك مجموعة كبيرة من التماسيح تعيش في شبكات الصرف في المدن.

الفصل الرابع والعشرون

عندما نَبلُغ المكتبة التالية، أطلبُ أن أنتظر في السيَّارة ريثما تَدخُل هيلين ومونا لإيجاد الكتاب. بعد دخولهما، أشرعُ في تصفُّح دفتر هيلين. ثمَّة اسم مُختَلِف مُدَوَّن تحت تاريخ كلِّ يومٍ تقريبًا، وبعض هذه الأسماء أعرِفه. هناك ديكتاتور من واحدةٍ من جُمهوريَّات الموز، وهناك أحد زُعماء الجريمة المُنظَّمة. كلُّ اسم مشطوب بعلامةٍ حمراء واحدة. دستة الأسماء الأخيرة أخُطُّها على قُصاصةٍ من الورق. بين الأسماء كتبت هيلين مُلاحَظاتها مع لقاءاتها بعُملائها، خَطُّ يدها مُنتَظِمٌ مضبوطٌ كالجواهر.

على الأريكة الخلفيَّة يستلقي أويستر إلى الوراء وقد طوى ذراعيه وراء ظَهره، وقدماه الحافيتان مُتقاطِعتان وقد أسندهما إلى مؤخِّرة المقعد الأمامي لتستقرَّا إلى جوار وجهي، وثمَّة خاتم فِضِّي حول واحد من إصبعيه الكبيرين. يكتسي باطِن القدمين بطبقةٍ مُتَّسِخَةٍ من الجِلد المتيبِّس الرمادي الذي تتخلَّله الشُّقوق، ويقول أويستر:

- «لن يروق ماما أنك تُفتِّش في قِمامتها الشخصيَّة».

أُطالِعُ محتويات الدفتر بالعكس، بدايةً من تاريخ اليوم وحتى ثلاث سنواتٍ مضت من الأسماء والاغتيالات، قبل أن تأتي هيلين ومونا قاطِعتين المرآب.

يرنُّ هاتف أويستر، ويُجيبه قائلًا:

- «مكتب دونر وديلر ودونز للمحاماة».

لم أجِد الفُرصة لمُطالَعة معظم الدفتر، أعوام وأعوام من الصَّفحات... وقُرب نهاية الدفتر ثمَّة أعوام وأعوام أخرى من الصَّفحات الخالية التي ما زالت تنتظر أن تملأها هيلين بمزيدٍ من الأسماء.

تتكلَّم هيلين على الهاتف وهي تدنو من السيَّارة:

- «لا، أريد الجوهرة الزَّبَرْجَدْ ذات الوجوه المُربَّعة التي كانت ملكًا للإمبراطور زوج».

تَجلِس مونا على الأريكة الخلفيَّة وتقول:

- «هل افتقدتمانا؟ أغنيَّة أخرى في المجاري الآن».

ويطوي أويستر ساقيه قائلًا على الهاتف:

- «وهل يَنزِف الطَّفح الجِلدي؟».

تُطَرقِع هيلين بأصابعها لي لأُناوِلها الدفتر، وتقول على الهاتف:

- «نعم، الجوهرة الزَّبَرْجَدْ المئتا قيراط. اتَّصِل بدرِسكَر في چنيف».

وتفتح الدفتر وتُدوِّن اسمًا تحت تاريخ اليوم.

تقول مونا:

- «كنت أفكِّر في شيء. هل تعتقدون أن «الجريموار» الأصلي يحوي تعويذة طيران؟ أتمنَّى هذا. أو تعويذة اختفاء؟».

وتُخرِج «كتاب المرايا» من حقيبتها وتشرع في التلوين فيه، وتقول:

- «أريدُ أن تكون لديَّ القُدرة على الكلام مع الحيوانات أيضًا. أوه، والتِّليكينيزِس، تحريك الأشياء عن بُعد بعقلي فقط».

تُشَغِّل هيلين المُحرِّك، وتقول بصوتٍ عالٍ ناظرةً في المرآة:

- «إنني أُخيِّط سمكتي!».

تضع هاتفها وقلمها في حقيبة اليد التي لا تزال تضمُّ الحجر الرمادي الصغير من حفل السَّحرة عند مونا، الحجر الذي أعطتها الطائفة إياه، عندما كان أويستر عاريًا، ورواسب عضوه الذَّكري الكلسيَّة يخترِقها خاتم فِضِّي.

ومونا في الليلة نفسها، عندما كانت تُوتَة... وأتخيَّلُ عضلتيَّ ظَهرها، وكيف تنقسِمان إلى فَلقتين بضَّتين بيضاوين من القِشدَة... وأعُدُّ 1... أعُدُّ 2... أعُدُّ 3...

في البلدة التالية، عِند المكتبة التالية، أطلبُ من هيلين ومونا البقاء في السيَّارة مع أويستر بينما أدخُل لأقتَنِص كتاب القصائد.

إنها مكتبة صغيرة في بلدةٍ صغيرة. نحن في منتصَف النهار، وأمين المكتبة جالِسٌ وراء مكتبه. الصُّحف الصادِرة حديثًا مُجمَّعة في مَلازِم ذات أغلفةٍ صُلبة، ويُمكنك أن تجلس إلى طاولةٍ كبيرة لتقرأها. جوستاف برِنان مذكورٌ في صُحف اليوم، وفي صُحف الأمس قائد ديني مجنون في الشرق الأوسط، ومنذ يومين مسجون محكوم عليه بالإعدام كان يلتمس استئنافًا جديدًا.

كلُّ من في دفتر هيلين ماتوا في الأيام نفسها الذي دُوِّنَت فيها أسماؤهم...

ثمَّة مقالات في الصُّحف عن شيءٍ أسوأ كذلك. دِني ديتسترو اليوم، ومنذ ثلاثة أيام سامانثا إڤيان، ودوت لاين منذ أسبوع. كلهنَّ فتيات في ريعان الشباب، كلهنَّ عارِضات أزياء، كلهنَّ عُثِرَ عليهنَّ ميتاتٍ دون سببٍ واضِحٍ للوفاة. قبلهنَّ كانت ميمي جونزالز التي وجدها صاحبها ميتةً في الفِراش دون علاماتٍ أو أيِّ شيءٍ آخَر على الجُثَّة. لا معلومات على الإطلاق، باستثناء ما ذكرَه تقرير الطِّب الشَّرعي بعد تشريح الجُثَّة عن وجود علاماتٍ على أن هناك من انتهك الجُثَّة جِنسِيًّا.

ناش...

تَدخُل هيلين قائلةً:

- «لماذا تأخَّرت؟ أنا جائعة».

قائمة الأسماء على الطاولة، وإلى جوارها مقال في صحيفة مع صورة لجوستاف برِنان، وأمامي مقال آخَر تظهر فيه صورة جنازة رجلٍ أدين بتُهمة التحرُّش بالأطفال كان اسمه مذكورًا في دفتر هيلين.

وبنظرةٍ واحدةٍ ترى هيلين كلَّ شيءٍ، فتقول:

- «لقد عرفتَ إذن».

وتَجلِس على حافة المائدة، فتشدُّ فخذاها تنورتها عن آخِرها، وتقول:

- «قُلتَ إنك تريد أن تعرف كيف تتحكَّم في قُدرتك. هذه هي الطريقة التي تصلُح لي».

تقول إن السِّر أن تُقرِّر الاحتراف. عندما تفعل شيئًا من أجل المال فقط، فإنك تتعلَّم ألَّا تفعله مجَّانًا.

- «أتحسب أن العاهرات يرغبن في مُمارَسة الجِنس بكثرة خارِج بيوت الدعارة؟».

تقول:

- «لماذا تعتقد أن مُقاولي البناء يعيشون دائمًا في منازل غير مُكتَمِلَة؟».

تقول:

- «لماذا تعتقد أن الأطبَّاء في صِحَّةٍ سيِّئة طيلة الوقت؟».

وتُلوِّح بيدها نحو باب المكتبة والمرآب، تقول:

- «السبب الوحيد لأني لم أقتُل مونا مئة مرَّةٍ أنني أقتُل شخصًا آخَر كلَّ يوم، وأجني أموالًا طائلة في الوقت نفسه».

وأسألها: وماذا عن فِكرة مونا؟ لماذا لا تستطيعين التحكُّم في قُدرتك بأن تُحبِّي الناس فعلًا فلا ترغبين في قتلهم بعدها؟

- «إنها ليست مسألة حُب أو كراهية».

تقول لي مُفسِّرَةً إنها مسألة سيطرة، فالناس لا يجلسون لقراءة قصيدة يَقتُلون بها أطفالهم عمدًا، بل يريدون أن يَخلُد الطِّفل إلى النوم لا أكثر، يريدون السيطرة على الموقف. مهما كنت واقعًا في غرام أحد، فإنك ما زلت ترغب في أن تجري الأشياء وِفقًا لإرادتك أنت.

المازوخيُّون يدفعون السَّاديِّين إلى التحرُّك. أكثر الأشخاص سلبيَّة هُم في الحقيقة من يبدأون بالعُدوان. كلُّ يومٍ تعيشه يعني المزيد من البؤس والموت للنباتات والحيوانات، ولبعض الناس حتى.

تقول هيلين:

- «السّلخانات، مَزارِع الماشية، أماكن العمل الشّاق. سواء راقَك هذا أم لا، فهذا ما تشتريه نقودك».

أقولُ لها إنها أصغَت إلى كلام أويستر أكثر من اللازم.

- «الفكرة أن تقتل عمدًا»، تقولها وتلتقط الجريدة التي تحوي صورة جوستاف برِنان وتقرِّبها من عينيها، وتضيف: «أن تقتل الغرباء عن عمدٍ كي لا تقتل أحبّاءك دون أن تقصد».

الهَدم البنّاء...

تقول:

- «أنا مُتعهِّدة مُستقِلّة».

إنها قاتلة مأجورة دوليَّة تتلقَّى أجرها ماساتٍ ضخمة.

- «الحكومات تفعلها كلَّ يوم».

أقولُ لها إن الحكومات تفعلها بعد سنواتٍ من التخطيط وفي توقيتٍ مُحدَّد، وفقط بعد تفكيرٍ عميقٍ ومُراجَعة جميع التفاصيل يتم اتِّخاذ القرار بأن هذا المُجرِم أو ذاك أخطر من أن يتم إطلاق سراحه، أو يجب قتله على سبيل الانتقام أو التحذير أو إعلان القوَّة حتى.

أوكاي، أعرفُ أن العمليَّة ليست مثاليَّة طبعًا، لكن القرارات لا تُتَّخَذ فيها اعتباطًا على الأقل.

تضع هيلين يدها على عينيها لتُغطِّيهما لحظات، ثم تَرفَعها وتَرمُقني قائلةً:

- «من تحسبه يتَّصل بي من أجل هذه العمليَّات في رأيك؟».

وزارة الخارجيَّة الأمريكيَّة؟

- «أحيانًا، لكنها غالبًا دُوَل أخرى، أيُّ دُوَلٍ أخرى، لكني لا أفعل أيَّ شيءٍ مجَّانًا».

من هنا تأتي الجواهر إذن؟

- «أمقتُ حقًّا المُساوَمة على أسعار الصَّرف. ألا تمقتها أنت؟ ولا تنسَ أن حيوانًا يموت كلما تناولت وجبة».

أويستر مرَّة أخرى. أرى الآن أن مُهِمَّتي ستكون إبقاءه بعيدًا عن هيلين.

أقولُ إن هذا يَختَلِف عن ذاك. البَشر أعلى من الحيوانات، والله وضع الحيوانات على هذا الكوكب كي تُطعِمنا وتَخدِمنا. البَشر كائنات نفيسة وذكيَّة وفريدة، والله أعطانا الحيوانات لتكون ملكًا لنا.

وتَرُدُّ هيلين:

- «لا عجب أنك تقول هذا، فأنت من الفريق الفائِز».

فأقولُ إن الهَدم البنَّاء لم يكن الحلَّ الذي أبحثُ عنه.

- «آسفة. إنها الوسيلة الوحيدة التي في جَعبتي».

تقول:

- «دعنا نجِد الكتاب وننزع منه صفحة الأغنيَّة، ثم نقتل طائرًا نادرًا جميلًا نأكله على الغداء».

في الطريق إلى الخارِج أسألُ أمين المكتبة عن نُسخَتهم من كتاب

الأغاني، لكن هناك من استعاره. التفاصيل الخاصَّة بأمين المكتبة أن لديه خُصلاتٍ ملساء من الأشقر المائل إلى الرمادي في شَعره المدهون بالجِل بكثافة تجعله كمِظلَّة جامِدة فوق وجهه، أو كوجه خوذةٍ ذي لونٍ أشقر يميل إلى الرمادي. يجلس أمين المكتبة على كرسيٍّ وراء شاشة كومپيوتر وتفوح منه رائحة دُخان السجائر، ويرتدي كنزة ذات ياقةٍ عاليةٍ ضيِّقة، عليها بطاقة بلاستيكيَّة تقول: «سايمون».

أقولُ له إن حياة كثيرين تعتمِد على عثوري على ذلك الكتاب.

ويقولُ:

- «هذا مؤسِف».

فأقولُ: لا. الحقيقة أن حياته هو فقط تعتمِد على عثوري على الكتاب.

ويَضرِب أمين المكتبة أزرار لوحة المفاتيح، ويقول إنه سيتَّصل بالشُّرطة.

- «مهلًا»، تقولها هيلين وتَفرِد يدها على المكتب، أصابعها تتألَّق بالزُّمُرُّد والياقوت والماسات السوداء، وتُخاطِبه قائلةً: «سايمون، انتقِ ما تشاء».

وتَرتَفِع شفة سايمون العُليا حتى أنفه، ويطرف بعينيه مرَّة، مرَّتين ببطءٍ، ويقول:

- «عزيزتي، يُمكنك الاحتفاظ بزجاجك الزائف الرديء الذي يرتديه المُخنَّثون».

ولا تتزحزح الابتسامة على وجه هيلين قَيد أُنمُلَة...

ترتفع عينا الرجل إلى أعلى، وترتخي عضلات وجهه ويديه، ويَسقُط

ذقنه على صدره، ويرتمي إلى الأمام على لوحة المفاتيح، ثم يلتوي وينزلق أرضًا من الكرسي.

الهَدم البنَّاء...

وتَمُدُّ هيلين يدها المُترَعة بالنفائِس لتدير شاشة الكومبيوتر مُغمغِمةً:

- «تبًّا».

يبدو نائمًا وهو ميتٌ على الأرض، وقد سقط على شَعره الضخم المدهون بالجِل.

تقول هيلين ناظرةً إلى الشاشة:

- «لقد أغلق الصفحة. أحتاجُ كلمة السِّر».

لا مشكلة. الأخ الأكبر يملأنا جميعًا بالكلام الفارغ. تخميني أن الأخ الميت كان يحسب نفسه بارِعًا خبيثًا كما يحسب الجميع أنفسهم بارِعين خُبثاء.

أقولُ لها أن تَكتُب: password.

الفصل الخامس والعشرون

تخلع مونا فردة الجورب من قدمي، فتُقَشِّر أنسجته المرِنة من الداخِل جِلدي الميت، وتتناثَر القشارة الدامية على الأرض. القدم مُتورِّمة لدرجةٍ جعلتها ملساء وقد صارت التجاعيد فيها كلها مشدودة. قدمي عبارة عن بالون مُنَقَّط بالأصفر والأحمر، وتَصُبُّ مونا الكحول عليها وقد طوت منشفة تحتها.

الألم لَحظيٌّ جدًّا، حتى إنك لا تستوعب إن كان الكحول ساخِنًا كأنه يغلي أو بارِدًا كالثَّلج. أجلسُ على الفِراش في غُرفة الموتِل وقد شَمَّرتُ ساق سروالي، وتَركَع مونا على رُكبتيها على السجَّادة عِند قدمي، وأقبِضُ بيديَّ بشِدَّة على ملاءة الفِراش ضاغِطًا على أسناني. ظَهري مُقوَّس، وتتشنَّج عضلات جِسمي كلها ثوانيَ قليلة تَمُرُّ ببطء. ملاءة الفِراش بارِدة وغارِقة في عَرقي.

ثمَّة أكياس من الأصفر والأحمر هي قروح تكاد تُغطِّي باطِن قدمي بالكامل. تحت طبقة الجِلد الميت، يُمكنك أن ترى شكلًا داكِن اللون جامِدًا داخِل كلِّ قَرْح.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تقول مونا:

- «علام كنت تمشي بالضبط؟».

إنها تُسخِّن مِلقطًا صغيرًا على لهب قدَّاحة أويستر البلاستيكيَّة.

أسألها عن الإعلانات التي يَنشُرها أويستر في الصُّحف. هل يعمل في مكتب محاماة فعلًا؟ ذلك الكلام عن تَفَشِّي فطريَّات البشرة والتسمُّم الغذائي، أهو حقيقي؟

يتقاطَر الكحول من قدمي ورديَّ اللون بما فيه من دم ذائِب على منشفة الموتيل المطويَّة. تضع مونا المِلقط على منشفةٍ مُبلَّلة وتبدأ في تسخين إبرة على القدَّاحة، ثم تلتقط رباطًا مطَّاطيًّا تلفُّه حول شَعرها لتصنع منه ذيل حصانٍ كثيف.

وتُجيب مونا:

- «يُطلِق أويستر على هذا اسم مُناهَضَة الإعلانات. أحيانًا يدفع له أصحاب الأعمال فاحشو الثَّراء كي يرفع الإعلانات من الصُّحف. يقول إن المبلغ الذي يدفعه كلٌّ منهم يَعكِس قَدر الحقيقة في ما يقوله الإعلان».

لم تَعُد قدمي بحجمها هذا صالحةً لأن أضعها في حذائي. في وقتٍ سابقٍ اليوم، ونحن في السيَّارة، طلبتُ من مونا أن تُلقي نظرةً عليها. هيلين وأويستر في الخارِج يبتاعان بعض أدوات التجميل، يتسوَّقان لنزع السِّلاح من ثلاث نُسخ من كتاب الأغاني في متجر كُتبٍ مُستعمَلة في نهاية الشارع اسمه بوك بازْن.

أقولُ إن ما يفعله أويستر ابتزاز، تشهير.

منتصَف الليل يدنو، ولا أرغب في معرِفة مكان هيلين وأويستر الآن حقًّا.

تقول مونا:

- «هو لا يقول إنه محامٍ، ولا يقول إن هناك قضيَّة، بل يَنشُر إعلانًا فحسب، بينما يملأ الآخَرون الفراغات. أويستر يقول إنه يزرع بِذرة الشَّكِّ في عقولهم فقط».

تقول:

- «أويستر يقول إن هذا عَدْل، لأن الإعلانات تَعدُك دائمًا بشيءٍ يجعلك سعيدًا».

في وَضعها هذا يُمكنك أن ترى النجوم السوداء الثلاث فوق عَظمة التَّرْقُوَة، ويُمكنك أن ترى داخِل بلوزتها -تحت بساط القلائِد والسلاسل- أنها لا ترتدي سوتيانًا، وأعُدُّ 1... أعُدُّ 2... أعُدُّ 3...

تقول مونا:

- «أعضاء آخَرون في الطائفة يفعلونها أيضًا، لكنها فكرة أويستر. يقول إن الخُطَّة هي تقويض وهم الأمن والراحة في حياة الناس».

تَشُقُّ قَرحًا بالإبرة، فيَسقُط منه شيء على المنشفة، قِطعة صغيرة من البلاستيك ذات لونٍ بُنِّي، مُغطَّاة بالقَيح عَفِن الرائحة والدَّم. تَقلِبها مونا مُستَخدِمَةً الإبرة وتتشرَّب المنشفة القَيح، وترفعها مونا بالمِلقط قائلةً بدهشة:

- «ما هذا؟».

إنه نموذج مصغَّر لبُرج كنيسة.

وأجيبُ بأنني لا أدري.

ينفتح فم مونا عن آخره ويندفع لسانها إلى الخارِج، ويتحرَّك حَلقها إلى أعلى تحت جِلد رقبتها كأنها على وشك التقيُّؤ، وتُحرِّك يدها كالمروحة أمام أنفها وهي تطرف بعينيها سريعًا. رائحة الصَّديد الأصفر بهذه القذارة فعلًا. تمسح مونا الإبرة على المنشفة، وبيدٍ تُمسِك أصابع قدمي، وتشقُّ قَرحًا آخَر فيُبَخُّ الصديد الأصفر كانفجارٍ صغير، وعلى المنشفة يهبط نِصف مدخنة مصنع.

تَرفَع مونا الشيء بالمِلقط وقد تغضَّنت ملامح وجهها بقُوَّةٍ حول أنفها، وتَنظُر إليها عن قُربٍ قائلةً:

- «هل ستُخبِرني بما يحدث؟».

وتشقُّ قَرحًا آخَر، فتَخرُج منه قُبَّة مسجدٍ مُغطَّاة بالدَّم والنَّز، ثم تُخرِج مونا طبق مائدةٍ دقيقًا من قدمي. حافة الطَّبق عليها ورود حمراء مرسومة باليد.

في الشارع خارِج الموتِل تزعق سارينة سيَّارة مطافئ.

من قَرحٍ آخر تَخرُج واجِهة مثلَّثة لمبنى بنك على الطراز الچورچي.

ومن القَرح التالي تَخرُج قُبَّة من مبنى مدرسةٍ ابتدائيَّة.

أتصبَّبُ عَرقًا وألتقطُ أنفاسًا عميقة سريعة، أقبِضُ على ملاءة الفراش الناعمة الغارِقة في العَرق وأصِرُّ بأسناني. أرفعُ عينيَّ إلى السَّقف، وأقولُ إن هناك من يقتل المودلات.

تُخرِج مونا من قدمي دُعامة حائِط دامية، وتتساءَل:

- «دهسًا؟».

فأقولُ لها إنني أقصُد مودلات الموضة، عارِضات الأزياء.

تُنَقِّب الإبرة في باطِن قدمي فتُخرِج هوائي تليفزيون، ويُخرِج المِلقط تمثال جارجويِل بشع الخِلقة، ثم ألواح قرميد، وألواح سَقف خشبيَّة، وألواح أردواز ومزاريب دقيقة الحجم.

تَرفَع مونا حافة المنشفة وتطويها لتكشِف عن الجانب النظيف، ثم تَصُبُّ المزيد من الكحول.

تَزعق سارينة سيَّارة مطافئ خارِج الموتيل، وتومض أضواؤها الحمراء والزرقاء عبر الستائر.

ولا يُمكنني التقاط نَفَسٍ كامِل الآن، وأشعُر بقدمي تشتعل نارًا.

أقولُ إننا نحتاج... إنني أحتاج... إننا نحتاج...

أقولُ إننا نحتاج إلى العودة إلى الديار في أقرب وقتٍ ممكن، لأنه إذا صَحَّ ما أفكِّر فيه، فعليَّ إيقاف الرجل الذي يَستَخدِم الأغنيَّة.

تُخرِج مونا بالمِلقط مِصراعًا بلاستيكيًّا أزرق وتضعه على المنشفة، ثم قِطعة من ستارة غُرفة نوم، وستائر صفراء لغُرفة طِفل. تُخرِج سياجًا طويلًا وتَصُبُّ المزيد من الكحول حتى يسيل نظيفًا على قدمي، وتُغطِّي أنفها بيدها.

تَزعق سيَّارة مطافئ أخرى وهي تَمُرُّ بنا، وتقول مونا:

– «هل تسمح أن أفتح التليفزيون لأرى ما يجري؟».

أشِدُّ فَكَّيَّ ورأسي مرفوع إلى السَّقف، وأقولُ إننا لا نستطيع... لا نستطيع...

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

إنني وحدي مع مونا الآن، وأقولُ لها إننا لا نستطيع الثِّقة بهيلين. إنها تريد «الجريموار» لأنها تريد التحكُّم في العالم فحسب. أقولُ إن علاج امتلاك قوَّةٍ أكثر من اللازم ليس المزيد من القوَّة. لا يُمكننا أن نسمح لهيلين بأن تضع يدها على «كتاب الظِّلال» الأصلي.

وببطءٍ شديدٍ يجعلني لا أراها تتحرَّك حتى، تسحب مونا عمودًا مُحزَّزًا على الطراز الإيوني من حُفرةٍ داميةٍ تحت إصبع قدمي الكبير. بطيئة هي كعقرب الساعات. لا أذكُر إن كان العمود من مُتحفٍ أو كنيسةٍ أو كُلِّيَّة. كلها بيوت مُفكَّكة ومؤسَّسات كالمزابِل.

إنها عالِمة آثار أكثر منها جَرَّاحة.

وتقول مونا:

- «طريفٌ ما تقول».

وتضع العمود بجوار الشظايا الأخرى على المنشفة، وتَعقِد حاجِبيها وهي تميل على قدمي بالمِلقط مرَّة أخرى، وتُردِف:

- «هيلين قالت الشيء نفسه عنك. تقول إنك تريد تدمير «الجريموار» فقط».

و«الجريموار» يجب تدميره فعلًا، فلا أحد يستطيع التحكُّم في قُوَّةٍ كهذه.

في التليفزيون مبنى قديم من القرميد يرتفع ثلاثة طوابِق والنيران تَنهَمِر من كُلِّ نافذةٍ فيه، ويُصوِّب رجال المطافئ خراطيمهم فتتفجَّر منها المياه وتبدو قناطِر بيضاء كالرِّيش. يَدخُل شابٌ يحمل ميكروفونًا اللقطة، ووراءه تقف هيلين وأويستر يُشاهِدان الحريق وقد دنا رأسها من

رأسه. يحمل أويستر كيس مُشترَيات بيدٍ، وتُطوِّق هيلين يده الأخرى بيدها.

ترفع مونا زجاجة الكحول لترى كم تبقَّى، وتقول:

- «أرغبُ حقًّا في أن أتمتَّع بالتقمُّص الوجداني، أن ألمس المريض مجرَّد لمسةٍ فيُشفَى».

وتقرأ المكتوب على الزجاجة، وتضيف:

- «تقول هيلين إننا نستطيع تحويل العالم إلى جنَّة».

أجلِسُ نِصف معتدلٍ على الفِراش مُتَّكئًا على مِرفقيَّ، وأقولُ إن هيلين تَقتُل الناس من أجل تيجانٍ ماسيَّة. هذا هو ما تفعله هيلين المُنقِذَة.

تَمسَح مونا الإبرة والمِلقط على المنشفة مُلوِّثةً إياها بالمزيد من الأحمر والأصفر، وتتشمَّم زجاجة الكحول قائلةً:

- «هيلين تَعتَقِد أنك تريد استغلال الكتاب في تحقيقٍ صحافيٍّ لا أكثر. تقول إنه بمجرَّد تدمير جميع التعاويذ -بما فيها تعويذتك- سيُمكنك أن تُفصِح عن كلِّ شيءٍ باعتبارك البطل».

أقولُ إن الأسلحة النوويَّة تُمَثِّل خطرًا يكفي ويزيد، والأسلحة الكيماويَّة. أقولُ إن السِّحر في أيدي البعض لن يجعل العالم مكانًا أفضل.

أقولُ لمونا إنني سأحتاج مُساعَدتها إذا كانت المواجَهة محتومة.

أقولُ إننا قد نضطرُّ لأن نَقتُل هيلين.

وتَهزُّ مونا رأسها فوق الأطلال الدامية على منشفة الموتِل، وتقول:

- «إذن فعلاجك للقتل الذي زاد عن حدِّه هو المزيد من القتل؟».

هيلين فقط، وربما ناش إذا صَحَّت نظريَّتي عن المودل الميتة. بعد أن نَقتُلهما، فسنستطيع العودة إلى حياتنا الطبيعيَّة.

في التليفزيون يقول الشَّاب الذي يحمل الميكروفون إن حريقًا خطيرًا من الدرجة الثالثة تسبَّب في شَلِّ حركة المرور في أغلب منطقة وسط البلد. يقول إن النيران تَلتَهِم البناية بالكامل، ويقول إنها واحدةٌ من مؤسَّسات المدينة المُميَّزة.

تقول مونا:

- «فِكرتك عن الحياة الطبيعيَّة لا تروق أويستر».

المؤسَّسة التي تَحترِق اسمها بوك بارْن، ولم أعُد أرى هيلين وأويستر وراء المذيع.

تقول مونا:

- «هل تتساءل لِمَ نأخُذ صَفَّ المُحقِّق في القِصص البوليسيَّة ونتمنَّى أن يربح؟».

تقول إن من المحتمَل أن السبب ليس مجرَّد الانتقام أو إيقاف سلسلة القتل. لعلنا نَرغَب في رؤية القاتِل وقد ثاب إلى الخَير. المُحقِّق هو مُنقِذ القاتل. تخيَّل المسيح يُطارِدك محاولًا الإمساك بك كي يُنقِذ روحك، أنه ليس ربًّا صبورًا حليمًا فقط، بل صيَّادًا مجتهدًا مثابرًا يُلاحِق الفريسة. إننا نريد أن يعترِف المُجرِم أثناء مُحاكَمته، نريده أن يكون مكشوفًا على الملأ وقد أحاط به من هُم مثله. المُحقِّق راعٍ، ونحن نروم عودة المُجرِم إلى القطيع، إلينا. إننا نُحبُّه، نَفتَقِده، ونريد أن نَحتَضِنه.

تقول مونا:

- «لعل هذا هو سبب زواج نساء كثيرات بنُزلاء السجون، إنهنَّ يرغبنَ في مداواتهم».

أقولُ لها إنه ليس هناك من يَفتَقِدني، فتَهِزُّ مونا رأسها وتقول:

- «أتدري؟ أنت وهيلين تُشبِهان أبويَّ كثيرًا».

مونا... تُوتَة... ابنتي...

وأرتمي على الفِراش ثانيةً وأسألها: كيف؟

فتجيب وهي تُخرِج إطار بابٍ من قدمي:

- «هذا الصباح فقط قالت لي هيلين إنها قد تضطرُّ لقتلك!».

يرنُّ جهاز الاستدعاء الذي أحمله برقمٍ لا أعرفه، وتقول الرسالة إن المسألة في غاية الأهمِّيَّة.

وتُخرِج مونا نافذة من الزجاج المُلوَّن من حُفرةٍ داميةٍ في قدمي، وتَرفَعها فيتخلَّل الضوء القادِم من السَّقف الأجزاء المُلوَّنة. تتطلَّع مونا إلى النافذة الدقيقة، وتقول:

- «أنا قلقةٌ من أويستر أكثر، فهو لا يقول الحقيقة دائمًا».

وفي تلك اللحظة يَنفتِح باب غُرفة الموتِل بعُنفٍ، ويتدفَّق إلى الغُرفة زعيق سيَّارات المطافئ، وتتردَّد الصرخات نفسها من التليفزيون. تومض الأضواء الحمراء والزرقاء عبر ستارة النافذة، وفي اللحظة نفسها يندفع أويستر وهيلين داخِل الغُرفة ضاحكَيْن لاهثَيْن. من يد أويستر يتدلَّى كيس فيه أدوات التجميل، ومن يد هيلين يتدلَّى حذاؤها عالي الكعبين، ومن كليهما تفوح رائحة السكوتش ويسكي والسجائر.

الفصل السادس والعشرون

تخيَّل وباءً يُصيبك من خلال أذنيك. هذا الأويستر وهراؤه وكلامه الأحمق الذي أشُكُّ كثيرًا في صِحَّته عن العُدوان على البيئة، معلوماته مُفعَمة بالڤيروسات. ما كان من قبل بالنِّسبة لي غابة استوائيَّة خضراء جميلة صار مأساة اللَّبلاب الإنجليزي الذي يَزحَف فيَخنُق جميع المخلوقات الأخرى حتى الموت. أسراب الزرزور ذات اللون الأسود اللامع والأغنيات ذات الوقع المخيف التي تَصْفِرُ بها تَسرِق أعشاش مئة نوعٍ آخَر من الطيور الوطنيَّة.

تخيَّل فكرةً تحتلُّ عقلك كما تحتلُّ الجيوش المُدن.

خارِج السيَّارة الآن تقبع أمريكا.

آهٍ أيتها السَّماوات الملأى بالزرزور، فوق موجاتٍ من حشيش الشِّفاء بلون الكهرمان

آهٍ أيتها الجبال المكسُوَّة بالعُشب الأرجواني، فوق السَّهل الذي يجتاحه الطاعون

أمريكا...

حِصار الأفكار، السيطرة الكاملة للحياة.

بعد أن تسمع أويستر، لا يعود كوب الحليب مجرَّد مشروبٍ لطيف تتناوله مع بسكويت الشوكولاتة، بل يُصبِح أبقارًا يُجبِرونها على البقاء حبلى ويَنفُخونها بالهرمونات، والعجول التي تولَد في النهاية لتعيش بضعة شهورٍ بائسة وقد تزاحمَت في الحظائر. شريحة اللحم تعني خنزيرًا مطعونًا يَنزِف وقد عُلِّق بحبلٍ من ساقٍ واحدةٍ ليموت صارخًا وهو يُقطَّع إلى لحمٍ ودُهن. حتى البيضة المسلوقة هي دجاجة أصيبت قدماها بالشَّلل من جرَّاء المعيشة في قفصٍ شديد الضِّيق لدرجةٍ لا تسمح لها بأن ترفع حتى جناحيها، شديد الضِّيق إلى حدٍّ يثير الجنون، ومن ثم تجد منقارها مقطوعًا كي لا تُهاجِم الدجاجات الأخرى الحبيسة معها على كلِّ جانِب. ريشها يحتكُّ طول الوقت بجدران القفص، ومنقارها مقطوع، وتضع بيضةً بعد بيضةٍ إلى أن يُستَنزَف الكالسيوم تمامًا من عظامها، فتتحطَّم تمامًا في السلخانة.

هذه هي دجاجات حساء الدجاج، والدجاجات التي تضع البيض، الدجاجات التي امتلأت بالكدمات والنُّدوب، فيُقَطَّع لحمها ويباع مطبوخًا لأن لا أحد سيقبل شرائها كاملةً. هذه هي دجاجات الكورن دوج والتشيكن ناجتس.

هذا ما يتكلَّم أويستر عنه، طاعون المعلومات. عندها أُشَغِّل الراديو بحثًا عن موسيقى الكَنتري أو الوسترِن، أو حتى كرة السَّلَّة، عن أيِّ شيءٍ

يتردَّد بصوتٍ عالٍ مُستَمِرٍّ يجعلني أتظاهَر بأن الساندويتش الذي تناوَلته على الإفطار مجرَّد ساندويتش تناوَلته على الإفطار، وأن الحيوان مجرَّد حيوان، وأن البيضة مجرَّد بيضة، وأن الجُبن ليس عبارةً عن عجولٍ صغيرة تُعاني، وأن الأكل هو حقِّي باعتباري إنسانًا.

ها هو الأخ الأكبر يُغنِّي ويَرقُص كي لا أبدأ في التفكير بنفسي ولنفسي.

في الجريدة المحليَّة اليوم هناك عارضة أزياء ميتة أخرى، وإعلان يقول عنوانه: «**الرجاء الانتباه... لمُرتادي مزرعة فولنج ستار للجِراء**»، ويقول متنه: «إذا كان كلبكم الجديد يصيب أيَّ طِفلٍ لديكم بعدوى داء الكَلَب، فقد تكونون مؤهَّلين للمُشارَكة في دعوى جماعيَّة».

نَقطَع الطريق عبر ما كان من قبل ريفًا طبيعيًّا جميلًا، وألتهمُ ما كان من قبل مجرَّد ساندويتش بيض، وأسألُ هيلين وأويستر عن سبب عدم اكتفائهما بشراء نُسخ الكتاب الثلاث التي كانت في مكتبة بوك بارْن، أو حتى سرقة الصفحة 27 من كلِّ نُسخةٍ وترك بقيَّة الكتاب. أقولُ إن سبب هذه الرحلة ألَّا يبدأ الناس في حرق الكُتب أصلًا.

تجيب هيلين وهي تقود السيَّارة:

- «استرخِ. كانت هناك ثلاث نُسخٍ في المكان، نعم، لكن المشكلة أنهم لم يكونوا يعرفون مكانها».

ويقول أويستر:

- «كانت كلها موضوعة في غير أماكنها».

كانت مونا قد أراحت رأسها في حِجره، وأخذ هو يحلُّ جدائل شَعرها إلى لفائف من الأسود والأحمر قائلًا:

- «إنها الطريقة الوحيدة التي تجعلها تغيب في النوم. ستنام إلى الأبد لو ظللتُ أفعل هذا».

لسببٍ ما تَخطُر زوجتي ببالي، زوجتي وابنتي...

جعلَتنا أصوات سيَّارات المطافئ نبقى مستيقظين طول الليل، وتقول هيلين:

- «كان المكان كجُحرٍ للجرذان».

يجدل أويستر قِطع الحضارة المكسورة في شَعر مونا، القِطع التي استخرجَتها من قدمي، الأعمدة والسلالم وموانع الصواعق. كان قد حلَّ مصيدة الأحلام التي تصنعها على طريقة الناڤاهو، وأخذ يُضَفِّر عملات «كتاب التغيُّرات» والخرز الزجاجي والأوتار وريش عيد الفِصح الأزرق والوردي في شَعرها.

تقول هيلين:

- «قضينا المساء كلَّه في البحث. بحثنا في كلِّ كتابٍ في قِسم الأطفال، ثم بحثنا في أقسام العلوم والديانات والفلسفة والشِّعر والحكايات الشَّعبيَّة وأدب الأعراق والروايات الخياليَّة».

ويقول أويستر:

- «كان الكتاب مُسَجَّلًا في قائمة الجَرد على الكومپيوتر لديهم، لكن مكانه غير معروف».

وهكذا أحرقا المكتبة كلها من أجل ثلاثة كُتب، أحرقا عشرات الآلاف من الكُتب كي يضمنا تدمير تلك النُّسخ الثلاث.

تقول هيلين:

- «بدا لنا أنه الحلُّ الواقعي الوحيد. أنت تعرف ما تستطيع تلك الكُتب أن تفعله».

لسببٍ ما تَخطُر سدوم وعمورة ببالي، وكيف كان الله ليعفو عن المدينة كلها لو ظَلَّ فيها شخص صالِح واحد.

ما يَحدُث هنا هو العكس تمامًا: آلافٌ يُقتَلون من أجل القضاء على قِلَّةٍ قليلة.

تخيَّل عصر ظلامٍ جديدًا، تخيَّل الكُتب إذ تَحتَرِق، والشرائط والأفلام والملفَّات والراديوهات والتليفزيونات، كلها يُغذِّي نيران المحرقة نفسها.

لا أدري الآن إن كنا نحول دون وجود هذا العالم أم نخلقه.

قالوا في التليفزيون إنهم عثروا على رجليٍّ أمنٍ ميتين بعد إخماد الحريق.

تقول هيلين:

- «في الحقيقة كانا ميتين قبل الحريق بفترةٍ طويلة، فقد احتجنا وقتًا لنَصُبَّ الجازولين».

هل نَقتُل الناس كي نُنقِذ أرواح الناس؟

هل نَحرِق الكُتب كي نُنقِذ الكُتب؟

أسألهم: ما الذي تحوَّلت إليه هذه الرحلة؟

ويجيب أويستر وهو يُدخِل بعضًا من شَعر مونا في عملةٍ من «كتاب التغيُّرات»:

- «ما كانته دائمًا، انتزاع القُوَّة».

ويضيف:

- «إنك ترغب في إبقاء العالم كما هو يا بابا، مع وجودك أنت فقط على قِمَّة السُّلطة».

يقول إن هيلين تريد العالم نفسه، لكن مع وجودها هي على القِمَّة. كلُّ جيلٍ يريد أن يكون الجيل الأخير. كلُّ جيل يَمقُت صرعة الموسيقى الجديدة التي لا يفهمها. إننا نكره التخلِّي عن زمام ثقافتنا، أن نسمع موسيقانا وهي تتردَّد في المصاعِد، أن نجد أغنية ثورتنا وقد تحوَّلت إلى موسيقى في خلفيَّة إعلانٍ تليفزيوني، أن نجد ملابسنا وتصفيفة شَعرنا وقد صارت قديمة فجأةً.

يقول أويستر:

- «أما أنا فمع البدء من جديد، على نظافة، دون بَشرٍ أو كُتبٍ، ولا أُناصِر أحدًا ليجلس على القِمَّة».

وهكذا يكون هو ومونا آدم وحوَّاء الجديدين؟

فيجيب وهو يزيح الشَّعر عن وجه مونا النائم:

- «كلا. نحن أيضًا سنرحل».

أسأله إن كان يكره الناس إلى حدٍّ أن يَقتُل الفتاة التي يُحبُّها.

أسأله: لِمَ لا يقتل نفسه فحسب؟

- «لا. إنني أحبُّ كلَّ شيءٍ كأيِّ شيءٍ آخَر، النباتات والحيوانات والناس، لكني لا أُصدِّق تلك الكذبة الكبيرة عن تمكُّننا من أن نُثمِر ونتكاثَر دون أن نُدمِّر أنفسنا».

أقولُ إنه خائِنٌ لجِنسه، فيقول أويستر ناظرًا من النافذة:

- «بل أنا مُناضِل. أغنية المَهد تلك نِعمة. لماذا تحسبها كُتِبَت في المقام الأول؟ تلك الأغنية سوف تُنقِذ الملايين من الموت البطيء الذي نتَّجه إليه جميعًا، سواء بسبب المرض أو المجاعة أو الجفاف أو الإشعاع الشمسي أو الحرب، بسبب كلِّ شيءٍ سنَبلُغه».

إذن فهو مُستَعِدٌّ لقتل نفسه ومونا؟ وماذا عن أبويه؟ هل سيَقتُلهما بدورهما؟ وماذا عن جميع الأطفال الصغار الذين عاشوا حياة شديدة القِصَر أو لا حياة على الإطلاق؟ ماذا عن كلِّ الناس الصالحين الذين يعملون بجدٍّ ويُحبُّون الأخضر ويُمارِسون إعادة التدوير؟ ماذا عن النباتيِّين؟ أليس هؤلاء أبرياء في رأيه؟

- «المسألة ليس لها علاقة بالأبرياء والمُذنِبين. الديناصورات لم تكن خيِّرة أو شرِّيرة، لكنها انقرضت جميعًا في النهاية».

هذا التفكير يجعل منه أدولف هتلر، چوزِف ستالين، قاتلًا مُتسلسِلًا، بل قاتلًا جماعيًّا.

ويضع أويستر نافذة من الزجاج الملوَّن في شَعر مونا، ويقول:

- «أريدُ أن أكون الشيء الذي قتل الديناصورات».

وأقولُ إنني لن أقطع ميلًا إضافيًّا واحدًا مع شخصٍ يَحلُم بأن يكون قاتلًا جماعيًّا.

ويقول أويستر:

- «وماذا عن الدكتورة سارة؟ ساعديني يا ماما. كم شخصًا آخَر قتله بابا حتى الآن؟».

فتقول هيلين:

- «إنني أُخيِّط سمكتي!».

أسمعُ صوت قدَّاحة أويستر، فألتفتُ إليه وأسأله إن كان يجب أن يُدخِّن الآن. إنني أحاولُ أن أتناول طعامي.

على أنني أجده يرفع كتاب مونا، «الأشغال اليدويَّة التقليديَّة لدى القبائل»، فوق لهب القدَّاحة مُشعِلًا فيه النار. نافذته مفتوحة بعض الشيء، ويُدَلِّي منها الكتاب لتُضرِم الرياح النار فيه قبل أن يُسقِطه.

التشيتجراس يُحبُّ النار.

يقول أويستر:

- «أحيانًا ما تكون الكُتب شرًّا مُستَطيرًا، وتُوتَة في حاجةٍ إلى ابتكار روحانيَّتها الخاصَّة».

ويرنُّ هاتف هيلين، ويرنُّ هاتف أويستر.

تتنهَّد مونا وتفرد ذراعيها. ما زالت عيناها مغلقتيْن، وما زال أويستر يجدل شَعرها، وما زال هاتفه يرنُّ، وتَدفِن هي رأسها في حِجره قائلةً:

- «ربما يحوي «الجريموار» تعويذة لإيقاف الانفجار السُّكَّاني».

تفتح هيلين دفتر التنظيم اليومي على تاريخ اليوم وتُدوِّن اسمًا، وتقول على الهاتف:

- «لا تُكلِّفوا أنفسكم عناء جلسةٍ لطرد الأرواح. يُمكننا عرض المنزل للبيع مرَّة أخرى في الحال».

وتقول مونا:

- «نحتاج تعويذة خِصاءٍ عالميَّة».

وأسألهم: ألا يخاف أحدكم هنا دخول جهنَّم؟

يُخرِج أويستر الهاتف من كيس الأدوية وهو لا يزال يرنُّ ويرنُّ، وتضع هيلين هاتفها على صدرها قائلةً:

- «إياك أن تحسب لحظةً واحدةً أن الحكومة لا تعمل بالفعل على أساليب جديدة لنشر العدوى وإيقاف الانفجار السُّكَّاني».

ويقول أويستر والهاتف يرنُّ ويرنُّ:

- «لقد خضع المسيح للعذاب على الصليب طيلة ستٍّ وثلاثين ساعةٍ تقريبًا من أجل إنقاذ العالم، وأنا على أتمِّ استعدادٍ للخضوع للعذاب إلى الأبد في جهنَّم خدمةً للقضيَّة نفسها».

والهاتف يرنُّ ويرنُّ...

وتقول هيلين على هاتفها:

- «حقًّا؟ رائحة الكبريت تفوح من غُرفة النوم؟».

هاتف أويستر يرنُّ ويرنُّ، ويقول هو:

- «من المُنقِذ الأفضل في رأيك إذن؟».

ويجيب الهاتف أخيرًا قائلًا:

- «مكتب دونبار ودوناواي ودوجان للمحاماة».

الفصل السابع والعشرون

تخيَّل لو استمرَّ حريق شيكاجو سنة 1871 ستَّةَ أشهُرٍ كاملة قبل أن يُلاحِظه أحد. تخيَّل لو دام فيضان جونزتاون سنة 1889 أو زلزال سان فرانسسكو سنة 1906 سِتَّةَ أشهُرٍ أو عامًا أو عامين قبل أن يُعيره أحد اهتمامًا.

البناء بالأخشاب، البناء فوق صدوع القِشرة الأرضيَّة، البناء في سهول الفيضانات... كلُّ حُقبةٍ تخلق كوارثها الطبيعيَّة الخاصَّة.

تخيَّل طوفانًا من الأخضر الداكِن يجتاح وسط أيِّ مدينةٍ كُبرى، تغرق فيه أبراج الشُّقق والمكاتب بوصةً بوصةً.

الآن، هنا والآن، أكتبُ من سياتل متأخِّرًا يومًا، أسبوعًا، شهرًا. من يدري كم من الوقت مرَّ بعد وقوع الحدث؟

حضرة الرقيب وأنا ما زلنا في حملة صيد السَّاحرات.

يُطلِق عُلماء النبات اسم هِدرا هيلكسياتل على هذا النوع الجديد من اللَّبلاب الإنجليزي. في أحد الأسابيع بدت الأُصُص المحيطة بملعب الأولمبيك بلازا مُتخَمة بعض الشيء باللَّبلاب الذي بدأ يُزاحِم أزهار

الثالوث، وغرس بعضه جذوره في واجِهة المبنى القرميديَّة وبدأ يزحف ببطء. كانت السماء تُمطِر كثيرًا ولم يُلاحِظ أحد، إلى أن وجد المقيمون في دار پارك للمسنِّين أبواب اللوبي وقد أغلقها اللَّبلاب تمامًا. في اليوم نفسه تهاوى الجِدار الجنوبي لمسرح فرمونت، المصنوع من القرميد والإسمنت ويبلغ سُمكه ثلاثة أقدام، فوق الجمهور الذي ملأ المسرح عن آخره، وفي اليوم نفسه انهار جزء من محطَّة الحافلات الواقعة تحت الأرض.

لا أحد يُمكنه التخمين بِدقَّة متى غرس الِهدرا هيلكسياتل جذورة للمرَّة الأولى، لكن بوسعك التخمين.

أطالِعُ أعدادًا سابقة من Seattle Times، وأجدُ في قسم الترفيه في عدد 5 مايو إعلانًا يحتل ثلاثة أعمدة يقول عنوانه: **«الرجاء الانتباه... لمُرتادي مطعم أوراكل للسوشي»**، ويقول متنه «إذا أُصِبتهم بحَكَّةٍ شرجيَّة قويَّة تسببَّت فيها طفيليات الأمعاء نتيجةً لتناوُل الطعام في هذا المكان، فقد تكونون مؤهَّلين للمشارَكة في دعوى جماعيَّة»، ثم رقم هاتف.

أجلسُ هنا مع حضرة الرقيب وأطلبُ الرقم، فيجيبني صوت رجلٍ قائلًا:

- «مكتب دنتون وديملر وديك للمحاماة».

وأقولُ: أويستر؟

أقولُ: أين أنت يا ابن الزَّانية؟!

وينغلِق الخط.

هنا والآن، إذ أكتبُ هذه الكلمات في سياتل في مطعمٍ صغير خارِج المتاريس المحيطة بمبنى وزارة الأشغال العامَّة، تأتي نادلة وتقول لنا:

- «لا يُمكنهم قتل اللَّبلاب الآن».

وتَصُبُّ لنا المزيد من القهوة، وتَنظُر من النافذة نحو الجدران التي تُشَقِّقها عروق رماديَّة غليظة، وتضيف:

- «إنه الشيء الوحيد الذي يجعل هذا الجزء من المدينة متماسكًا الآن».

داخِل شبكة الأفرُع والأوراق الكثيفة ترى قِطع القرميد وقد التوَت وتغيرَّت أماكنها، بينما تُحَطِّم الشقوق الإسمنت فيما بينها. النوافذ معتصَرة تمامًا وقد تكسَّر زجاجها، وصارت الأبواب غير قابلِة للفتح بعد أن اعوجَّت أُطُرها. تُحلِّق الطيور من وإلى الجروف الخضراء، تَلتَهِم بذور اللَّبلاب وتتبرَّزها في كلِّ مكان. على بُعِد مُربَّع سكنيٍّ واحد الشوارع عبارة عن أوديِة ضيقِّة من الأخضر، الأسفلت والأرصفة مدفونة في الأخضر.

أطلقت عليه الصُّحف اسم الخطر الأخضر، مُعادِل النحل القاتل، الجحيم الأخضر.

صامتٌ وغير قابلٍ للإيقاف. إنها نهاية الحضارة بالتصوير البطيء.

تقول النادلة إنه كلما قام عُمَّال المدينة بقَصِّ اللَّبلاب أو إحراقه بقاذفات اللهب أو رشِّ السُّم عليه -وحتى في المرَّة التي أطلقوا عليه فيها قطعانًا من الماعز القزمة كي تأكله- ازداد نموُّه أكثر. الآن تتسبَّب الجذور في انهيار الأنفاق وقَطع الكابلات والمواسير تحت الأرض.

يَطلُب حضرة الرقيب رقم الهاتف في إعلان مطعم السوشي مرَّة ومرَّة، لكن بلا رد.

تَرمُق النادلة أصابع اللَّبلاب التي بدأت الزحف نحو المطعم بالفعل. خلال أسبوعٍ ستكون بلا وظيفة.

تقول:

- «لقد وعدَنا الحَرس الوطني باحتواء الموقف. سمعتُ أن اللَّبلاب أصابهم في بورتلاند أيضًا، وفي سان فرانسسكو».

وتتنهَّد وتُرِدف:

- «لا شكَّ أننا في معركةٍ خاسِرة».

الفصل الثامن والعشرون

يَفتَح الرجل بابه، ليَجِدني وهيلين واقِفَيْن في شُرفة منزله الأماميَّة، أنا أحملُ حقيبة أدوات التجميل الخاصَّة بهيلين وأقفُ وراءها بنِصف خطوةٍ، بينما تشير هيلين بظُفر سبَّابتها الوردي وتقول:

- «يا إلهي!».

تضع دفتر التنظيم اليومي تحت إبطها، وتتراجع خطوة إلى الوراء قائلةً:

- «يرغب زوجي في أن يَقُصَّ عليك شهادته على وعد سيِّدنا يسوع المسيح».

بذلة هيلين صفراء، لكنه ليس صفار عشب الحوذان، بل أقرب إلى الحوذان المصنوع من اللونين الذَّهبي والليموني على يد كارل فابرچيه[1].

يحمل الرجل في يده زجاجة بيرة، ويرتدي زوجًا من الجوارب

(1) پيتر كارل فابرچيه، جواهرجي روسي اشتهر بصُنع بيضات فابرچيه التي كانت تُشبِه بيض عيد الفِصح وتُصنَع من الأحجار الكريمة.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الرماديَّة بلا حذاء. معطف الحمَّام الذي يرتديه مفتوح من الأمام، وتحته يرتدي تيشيرت أبيض وسروالًا داخليًّا عليه رسوم تُمَثِّل عربات سباق.

يجرع الرجل البيرة وقد أمالَ رأسه إلى الوراء حتى لم يتبقَّ سوى الرغوة فقط في الزجاجة. عربات السباق الصغيرة لها إطارات بيضاويَّة مندفعة إلى الأمام دلالةً على السرعة، ويتجشَّأ الرجل ويقول:

- «هل أنتما جادَّان؟».

لديه شَعر أسود يتدلَّى فوق جبهةٍ مُجعَّدةٍ كوحش فرانكنشتاين، وعينان حزينتان مُنتَفِختان كعينيِّ كلب صيد.

أمُدُّ يدي لأصافِحه قائلًا: مستر سييرا؟ نحن هنا لنتشارَك معك بهجة الحُب الإلهي.

ويقول الرجل عابسًا:

- «من أين تعرف اسمي؟».

ويُضيِّق عينيه ويسأل:

- «هل أرسلتكما بوني لتتكلَّما معي؟».

وتميل هيلين لتتطلَّع إلى غُرفة المعيشة، ثم تفتح حقيبتها وتُخرِج زوجًا من القُفَّازات البيضاء تَدُسُّ أصابعها داخله، ثم تُغلِق زرًّا صغيرًا عند طرف كلِّ قُفَّاز، وتقول:

- «هل تسمح لنا بالدخول؟».

كان من المُفترَض أن تكون المسألة أسهل من هذا.

الخُطَّة «ب»: إذا وجدنا رجلًا في المنزل، نستخدِم الخُطَّة «ب».

يضع رجل عربات السباق زجاجة البيرة في فمه، ويجرع منها بقُوَّةٍ تجعل وجنتيه بشعرهما القصير الخشن تُمتَصَّان إلى الداخل حولها. يميل برأسه إلى الوراء ويَبتَلِع ما تبقَّى في الزجاجة، ثم يتنحَّى جانبًا ويقول:

- «حسن، اجلسا».

ويَنظُر إلى الزجاجة الفارغة في يده قائلًا:

- «هل تريد بيرة؟».

نخطو إلى الداخِل ويَدخُل هو المطبخ، ونسمع صوت زجاجة بيرة تُفتَح.

في غُرفة المعيشة كلها ليس هناك سوى مقعد للاضطجاع وتليفزيون نقَّال صغير موضوع فوق سَبَت لزجاجات الحليب، وعبر بابٍ زجاجيٍّ مُنزَلِق يُمكنك أن ترى فناءً صغيرًا ارتصَّت عند طرفه البعيد مزهريَّات خضراء مليئة حتى الحافة بماء المطر، وقد بدأ ما فيها من زهورٍ سوداء مُتعفِّنة في السقوط خارِجها. هناك ورود بُنيَّة بالية على عِصِيٍّ سوداء أحاط بها العَفن الرمادي الزَّغِب، وحول واحدةٍ من المزهريَّات رُبِطَ شريط عريض من الساتان الأسود.

في غُرفة المعيشة ثمَّة سجَّادة ذات وبرٍ أشعث لا يزال يلوح عليها أثر أريكةٍ كانت موجودة ها هنا فيما سبق، والأثر الذي خلَّفته خزانة للآنية الصيني، والانبعاجات الصغيرة التي تركتها أرجُل الكراسي والموائد. ثمَّة مُربَّع مُسطَّح كبير يتساوى فيه الوَبَر، فأشعرُ أن شكله مألوف للغاية.

يُلَوِّح رجل عربات السباق بيده نحو المقعد قائلًا:

- «اجلس».

ويجرع من زجاجة البيرة، ثم يقول:

- «اجلس، ولنتكلَّم عن الله وحقيقته».

المُربَّع المُسطَّح الكبير في السجَّادة كان يقع تحت قفصٍ للعب الأطفال.

أسأله إن كان يسمح بأن تدخل زوجتي الحمَّام، فيرفع رأسه ناظرًا إلى هيلين، ثم يَهرُش مؤخِّرة عنقه بيده ويُشير بيده الأخرى مجيبًا:

- «بالطبع. إنه في نهاية الرواق».

تَرمُق هيلين البيرة التي انسكبت على السجَّادة وتَشكُره، ثم تأخذ دفتر التنظيم اليومي من تحت ذراعها وتُناوِلني إياه قائلةً:

- «ها هي نُسخة من الإنجيل إذا احتجتها».

كتابها المليء بالأهداف السياسيَّة ومبيعات العقارات. رائع.

لا يزال الكتاب يحمل دِفء إبطها.

تغيب هيلين في نهاية الرواق، وأسمع صوت مروحة الحمَّام تعمل وصوت بابٍ يُغلَق في مكانٍ ما.

ويشير لي رجل عربات السباق أن أجلس، فأجلس.

يقف على مقربةٍ شديدةٍ مني، فأخشى أن أفتح دفتر التنظيم اليومي ليرى أنه ليس إنجيلًا. تفوح منه رائحة العَرق والبيرة، وعربات السباق الصغيرة على مستوى نظري وقد اتَّخذت إطاراتها شكلًا بيضاويًّا كأنها تنطلق مُسرِعةً. يجرع الرجل من الزجاجة ثانيةً ويقول:

- «كلِّمني عن الله».

رائحته تفوح من المقعد الدافئ المكسو بالمخمل الذَّهبي، الذي اكتسبَت ذراعاه لونًا بُنِّيًا داكنًا من جرَّاء الغبار. أقولُ إن الله كينونة أخلاقيَّة صارِمة تَرفُض أيَّ شيءٍ أقلَّ من السلوك الملتزِم المستقيم، إنه معقل للمعايير النزيهة، سِراج منير يكشف عن شرور هذا العالم. سوف يَظُلُّ الله في قلوبنا وأرواحنا دائمًا لأن روحه شديدة القُوَّة شديدة الـ...

- «هراء!»، يقولها الرجل مُقاطِعًا، ويَلتفِت ليَنظُر من باب الفناء الصغير الزجاجي الذي انعكست عليه عيناه فقط، بينما غاب فَكُّه المحاط بالشَّعر القصير الخشن في الظِّل.

بأفضل ما أستطيع تقليد وُعَّاظ الراديو أقولُ إن الله هو بوصلة الأخلاق التي يقيس ملايين الناس حياتهم طِبقًا لها، كيف أنه سيفٌ مُضطَرِمٌ أُرسِل إلينا لتوجيه المُذنِبين والأشرار من معبد الـ...

- «هراء!»، يصيح الرجل في انعكاسه على الباب الزجاجي، ويتناثر رذاذ البيرة من وجهه المعكوس.

تقف هيلين عِند مدخل الرواق وقد وضعت قبضتها على فمها وعضَّت مَفصِل إصبعها لتكتُم ضحكاتها، وتنظُر إليَّ وتهزُّ كتفيها، قبل أن تغيب مرَّة أخرى في الرواق.

من مكاني في المقعد المخملي الذَّهبي أقولُ إن الله كملاكٍ ذي قوَّةٍ وتأثيرٍ بلا مُنازِع، إنه ضمير العالم من حوله، عالم الخطيئة والنوايا الوحشيَّة، عالم الـ...

- «هراء»، يقولها الرجل بصوتٍ أقرب إلى همسةٍ وقد أخفى بخار

أنفاسه انعكاسه على الزجاج، ثم يلتفت إليَّ مشيرًا بيده التي تحمل زجاجة البيرة، ويقول:

- «اقرأ لي من إنجيلك شيئًا يُصلِح كلَّ شيء».

دفتر التنظيم اليومي الخاص بهيلين مُجلَّد بالأحمر، وأفتحه جزئيًّا وأنظرُ فيه، بينما يقول الرجل:

- «اقرأ لي كيف أُثبِت للشُّرطة أنني لم أقتُل أحدًا».

أجدُ في الدفتر اسم ريني أوتول تحت تاريخ 2 يونيو، وأيًّا كان فقد مات. تحت تاريخ 10 سبتمبر أجد سامارا أومپيرسي، وتحت تاريخ 17 أغسطس أجدُ أن هيلين قد أنهت اتِّفاقًا ببيع منزلٍ كائن في جاردنر هيل رود وقتلت ملك جمهوريَّة تونجل الطاغية.

- «اقرأ!»، يصيح رجل عربات السباق، وتفور البيرة من يده لتَسقُط على السجَّادة. «اقرأ لي الفترة التي تقول كيف أخسر كلَّ شيءٍ في ليلةٍ واحدةٍ فقط ويقول الناس إن الذَّنب ذَنبي».

أختلسُ النظر إلى الكتاب، فلا أجد إلَّا المزيد من أسماء الموتى.

- «اقرأ»، يقولها الرجل ويجرع البيرة. «اقرأ أين يقول كيف تتَّهم زوجة زوجها بقتل طفليهما ويُصدِّقها الجميع».

في بدايات الكتاب بدأت الكتابة تتلاشى وصارت صعبة القراءة، الصفحات صُلبة مُلوَّثة بالبُقَع التي خلَّفها الذُّباب، وقبل ذلك كان أحدهم قد مزَّق الصفحات الأقدم.

يقول الرجل وهو يَرُجُّ زجاجة البيرة في وجهي:

- «لقد طلبتُ من الله أن يَرزُقني بعائلة، وكنت أذهب إلى الكنيسة».

أقولُ إن من المُحتمَل أنه لم يبدأ بمُهاجَمة وتقريع كلِّ من يتوجَّهون له بالدعاء، ولربما بعد سنواتٍ وسنواتٍ من تلقِّي الأدعية نفسها عن الحَمل غير المرغوب والطلاق والشِّجارات العائليَّة، ولربما لأن عدد أتباعه قد نما وصار المزيد من الناس يجنحون إليه بمَطالبهم، ولربما لأنه صار يتلقَّى من الناس حمدًا وثناءً أكثر، ولربما لأن السُّلطة تُفسِد، لكنه لم يكن هكذا طيلة الوقت.

ويقول رجل عربات السباق:

- «اسمع، لديَّ موعد في المحكمة خلال يومين ليُقَرِّروا إن كنت مُتَّهَمًا بالقتل. أخبِرني إذن كيف سيُنقِذني الله».

أنفاسه لا شيء إلَّا البيرة، ويقول:

- «أخبِرني!».

كانت مونا لتَطلُب مني أن أقول الحقيقة، أن أُنقِذ هذا الرجل، أن أُنقِذ نفسي وهيلين، أن يجتمع شملنا مرَّة أخرى بالإنسانيَّة. قد يعود هذا الرجل وزوجته إلى بعضهما بعضًا، لكن القصيدة ستكون مشاعًا حينئذٍ ويموت الملايين بينما يعيش البقيَّة في عالمٍ من الصَّمت لا يسمعون إلَّا ما يعدُّونه آمنًا فقط، يَسِدُّون آذانهم ويَحرِقون الكُتب والأفلام والموسيقى.

في مكانٍ ما يُشَدُّ سيفون وتُغلَق مروحة حمَّام ويُفتَح باب.

يضع الرجل البيرة في فمه وتتكاثف الرغوة داخل الزجاجة، وتظهر هيلين عند مدخل الرواق.

تؤلمني قدمي، وأسأل الرجل إن كان قد فكَّر في مُمارَسة هواية.

شيء يقتل به الوقت في السجن ربما!

الهَدم البنَّاء...

أنا متأكِّد أن هيلين ستوافق على هذه التضحية. أنها ستدين رجلًا بريئًا واحدًا كي لا يموت الملايين.

كلُّ حيوان تجارب يموت لإنقاذ عشرة من مرضى السرطان.

ويقول رجل عربات السباق:

- «أريدكما أن تُغادِرا».

وإذ نقطع الطريق إلى السيَّارة، أُناوِل هيلين دفترها قائلًا: ها هو إنجيلك.

يتصاعَد رنين جهاز الاستدعاء، وأجدُ رقمًا لا أعرفه.

اسودَّ قفَّاز هيلين الأبيض من التُّراب، وتقول إنها مزَّقت الصفحة 27 من الكتاب وألقتها من نافذة غُرفة الرَّضيع. السماء تُمطِر وستبلى الورقة.

أقولُ إن هذا لا يكفي، فقد يجدها طِفلٌ ما. مجرَّد أنها مُمَزَّقة سيجعل شخصًا ما يرغب في تجميعها من جديد، كمُحقِّقٍ يتولَّى قضيَّة وفاة طِفلٍ مثلًا.

تقول هيلين:

- «كان الحمَّام كابوسًا حقيقيًّا».

ندور بالسيَّارة حول المُربَّع السَّكني ونركِنها. مونا تُشَخبِط في كتابها على الأريكة الخلفيَّة وأويستر على الهاتف. تنتظر هيلين بينما أعود إلى المنزل وأنحني عند الخلفيَّة والعشب المبتل يلعق حذائي، إلى أن أبلُغ النافذة التي تقول هيلين إنها نافذة غُرفة الطِّفل. النافذة لا تزال مفتوحة، والستائر الورديَّة تَخرُج منها بعض الشيء من أسفل.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

قِطع الورقة المُمَزَّقة مُتناثِرة في الوحل، فأشرع في جمعها كلها في يدي.

وراء الستائر في الغُرفة الخاوية يُمكنك أن تسمع صوت بابٍ يُفتَح، ثم يظهر شبح شخصٍ آتٍ من الرواق، وأجثمُ في الوحل تحت النافذة. أرى يد رجلٍ توضع على عتبة النافذة، وأحاوِل أن أُسطِّح نفسي على الجِدار تحتها قدر الإمكان، ومن مكانٍ أعلاي لا أراه، أسمع صوت رجلٍ يبكي.

ويتساقَط المطر بقُوَّةٍ أكبر...

يقف الرجل في النافذة واضعًا يديه على العتبة ويَنتَحِب بصوتٍ أعلى ورائحة البيرة تفوح من أنفاسه.

وأنا لا أستطيع الفرار أو حتى النهوض من مكاني، يداي تُطبِقان على أنفي وفمي، وأربضُ مُعتَصِرًا جسدي على قاعدة المنزل متواريًا. أتنفَّسُ من بين أصابعي، وبسرعة القشعريرة أبدأ في البكاء بدوري، أنتَحِبُ بقُوَّةٍ كالقيء وتتشنَّج معدتي، أعُضُّ على أسناني في راحتي ويتناثَر المخاط بين يديَّ.

يتنشَّق الرجل بقوَّة، ويتساقَط المطر بعُنفٍ أكبر ويتخلَّل الماء حذائي.

قِطع القصيدة المُمَزَّقة في يدي، وأحملُ معي سُلطة الحياة والموت، لكني لا أستطيع أن أفعل شيئًا، ليس بعدُ.

وربما لا يَدخُل المرء جهنَّم بسبب الأشياء التي يفعلها، بل ربما بسبب الأشياء التي لا يفعلها.

حذائي مليء بالماء البارد ويتوقَّف الألم في قدمي، وأمُدُّ يدًا لزجةً بالمخاط والدموع لأُغلِق جهاز الاستدعاء.

عندما نَعثُر على «الجريموار»، إذا كانت هناك وسيلة لإحياء الموتى، فلربما لن نُحرِقه.

ليس في الحال على الأقل.

الفصل التاسع والعشرون

لا يَذكُر تقرير الشُّرطة كيف كانت زوجتي چينا دافئةً عندما استيقظتُ في ذلك الصباح، كيف كان جسدها ناعمًا دافئًا تحت الأغطية، وكيف انقلبَت على ظَهرها وقد تبعثرَ شَعرها على الوسادة عندما تَقلَّبتُ إلى جوارها. كان رأسها مائلًا بعض الشيء على كتفها، ومن بشرتها الدافئة يفوح عَبَقُ الصباح كما يبدو نور الشمس إذ ينعكس على مفرش مائدةٍ أبيض في مطعمٍ أنيق بالقُرب من الشاطئ في شهر العسل.

جاءت أشعَّة الشمس عبر الستائر الزرقاء لتجعل بشرتها زرقاء وشفتيها زرقاوين، وكانت أهدابها تنسدل على عينيها، وعلى شفتيها ابتسامة لم تُبارِحهما.

لم يكن النوم قد فارقَني بعدُ، وضممتُ يدي على مؤخَّرة عُنقها وأعدتُ رأسها إلى الوراء، ومِلتُ لأُقَبِّلها.

كان عُنقها مُسترخيًّا وكتفاها ليِّنتين للغاية.

ولم أزل أُقَبِّل شفتيها المرتخيتين، ورفعتُ ثوب النوم عن خَصرها، فبدا أن ساقيها تتباعدان من تلقاء ذاتهما، وعندما مددتُ يدي إلى الداخِل وجدتها مُبتلَّةً.

تحت الأغطية، بعينين مُغلَقَتين، وضعتُ لساني داخِلها، وبأصابعي المُبتلَّة باعدتُ بين الشّفرين وبدأتُ ألعق في الأعماق. يَخرُج تيَّار الهواء مني ويَدخُلني، ومع كلِّ نَفَسٍ كنتُ أغوص بفمي فيها أكثر فأكثر.

للمرَّة الأولى تنام كاترين الليل بطوله ولا تبكي.

تسلَّق فمي إلى أعلى حيث سُرَّة چينا، ثم إلى نَهديها، ووضعتُ إصبعًا مُبتَلًّا في فمها، بينما داعبَت أصابعي الأخرى الحلمة، واحتوى فمي النَّهد الآخَر وتَحسَّس لساني الحلمة الأخرى.

يميل رأس چينا إلى الجانِب وألعقُ وراء أذنها، وأُباعِد بين ساقيها بوَركيَّ وأدخلها.

الابتسامة على شفتيها، والطريقة التي انفتح بها فمها في اللحظة الأخيرة وغاص رأسها في أعماق الوسادة... كانت ساكنة تمامًا، وكانت تلك أفضل مرَّة فعلًا منذ قبل مولد كاترين.

بعدها نهضتُ من الفِراش وأخذتُ حمَّامًا، ثم ارتديتُ ملابسي بكلِّ ما لديَّ من هدوءٍ، قبل أن أُغلِق باب غُرفة النوم ورائي برِفق. قبَّلتُ كاترين في غُرفتها على جانِب رأسها وتفقَّدتُ حفَّاضتها، بينما جاءت الشمس عبر الستائر الصفراء لتستقرَّ على ألعابها وكُتبها، فبدت مثاليَّة بحق.

وفكَّرتُ كم أنا سعيد...

لم يكن أحد في العالم محظوظًا مثلي في ذلك الصباح...

الآن أقود سيَّارة هيلين بينما تنام هي في المقعد المُجاوِر لي. الليلة نحن في أوهايو أو آيوا أو آيداهو، ومونا نائمة على الأريكة الخلفيَّة. يقوم شَعر هيلين الوردي مقام الوسادة على كتفي، بينما تتمدَّد مونا بين أقلامها

المُلوَّنة وكُتبها، ويغيب أويستر في النوم. هذه هي حياتي الآن، في السَّرَّاء والضَّرَّاء، في الفقر والثَّراء.

كان ذلك آخِر أيامي الحلوة حقًّا، ولم أعرف الحقيقة حتى عدتُ إلى المنزل من العمل في نهاية اليوم.

كانت چينا لا تزال نائمة في الوضع نفسه.

وصفَ تقرير الشُّرطة ما حدث بأنه جِماع بعد الوفاة.

ويَخطُر ناش ببالي...

كانت كاترين لا تزال ساكنة بدورها، وقد استحال الجانب السُّفلي من رأسها إلى لونٍ أحمر داكِن.

الزُّرقة الرُّمِّيَّة، الهيموجلوبين المُشبَّع بالأوكسچين.

لم أعرف ما فعلتُ حتى عدتُ إلى المنزل.

هنا، وسط رائحة الجِلد في سيَّارة هيلين الكبيرة، تعلو الشمس في الأفق. اللحظة ذاتها الآن كما كانت وقتها. السيَّارة مركونة تحت شجرةٍ في شارعٍ تصطفُّ الأشجار على جانِبيه في حيٍّ من المنازل الصغيرة. إنها شجرة مُزهِرَة ما، وطيلة الليل ظلَّت بتلات الزهور الورديَّة تتساقَط على السيَّارة وتَلتَصِق بها بفِعل الندى. تبدو سيَّارة هيلين وهي مُغطَّاة بالزهور كمِنصَّةٍ في استعراضٍ عسكري، وأختلسُ النظر إلى الخارج عبر بُقعةٍ في الزجاج الأمامي لا تُغَطِّيها الزهور.

يأتينا ضوء النهار ورديًّا عبر البتلات.

لون الورد يَغمُر هيلين ومونا وأويستر النِّيام.

يعمل زوجان عجوزان عِند نهاية المُربَّع السَّكني على شتلات الزهور بطول قاعدة منزلهما. يملأ العجوز صفيحة للرَّيِّ من صنبور الحديقة، بينما تنحني زوجته لتنزع الحشائش الضارَّة.

أُشغِّل جهاز الاستدعاء مرَّة أخرى، فيبدأ في الرنين في الحال، وتَنتَفِض هيلين مستيقظةً.

لا أعرف رقم الهاتف الظاهِر على جهاز الاستدعاء.

تَعتَدِل هيلين جالسةً وتَرمُقني وهي ترمش، ثم تَنظُر إلى الساعة الصغيرة اللامعة حول مِعصمها. على جانِب وجهها علامات حمراء عميقة من جرَّاء نومها على قِرطها الزُّمُرُّدِي، وتتطلَّع إلى طبقة الوردي التي تكسو النوافذ، ثم تَدُسُّ أظفارها الورديَّة في شَعرها وتفركه قائلةً:

- «أين نحن الآن؟».

ما زال البعض يعتقد أن المعرفة قوَّة.

وأقولُ لها إنني لا أدري.

الفصل الثلاثون

تقف مونا عند مِرفقي، وتفتح كُتيبًا دعائيًّا لامعًا وتَدُسُّه في وجهي قائلةً برجاء:

- «هل يُمكننا الذَّهاب؟ أرجوك، ساعتان فقط، أرجوك».

تُظهِر الصُّور في الكُتيِّب أناسًا يَصرُخون وقد رفعوا أيديهم في الهواء وهُم يركبون القطار الأفعواني، وأناسًا يقودون عرباتٍ صغيرة حول حلبةٍ مُحدَّدة بآثار الإطارات القديمة. مزيد منهم يأكلون غزل البنات ويركبون أحصنةً بلاستيكيَّة تدور في دوَّامة، وآخَرون مُثبَّتون في مقاعدهم على عجلة فيريس. بطول الكُتيِّب من أعلى كُتِبَت بحروفٍ أفقيَّة كبيرة عبارة «لافلاند، مكان العائلة»، وبدلًا من حروف الـA هناك أربعة وجوه ضاحِكةً لمُهَرِّجين هُم أب وأُم وابن وابنة.

لا يزال أمامنا أربعة وثمانون كتابًا علينا أن نَنزَع السِّلاح منها، ما يعني عشراتٍ من المكتبات الأخرى في جميع أرجاء البلاد. ثم إن علينا بعدها أن نَعثُر على كتاب «الجريموار» الأصلي، ناهيك بهؤلاء الذين سوف نُعيدهم من الموت (أو نخصيهم)، أو البَشر الذين يُفترَض أن نَقتُلهم جميعًا، حسب الشخص الذي تُلقي عليه السؤال.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

هناك الكثير مما علينا إصلاحه، أن نعود إلى الله كما تقول مونا، فقط على سبيل تصفية حساباتنا.

يقول كارل ماركس إننا جعلنا من كلِّ نباتٍ وحيوانٍ عَدُوًّا لنا لنُبرِّر قتله.

تقول صحيفة اليوم إن زوج واحدةٍ من عارِضات الأزياء الميتات مُحتَجَزٌ لأنهم يَشتَبِهون في أنه قتلها.

أقفُ الآن عِند هاتفٍ عمومي خارِج مكتبة بلدةٍ صغيرةٍ، بينما دخلت هيلين مع أويستر للتخلُّص من صفحة 27 أخرى، ويقول صوت رجلٍ على الهاتف:

- «قِسم جرائم القتل».

أسأله عمَّن يكون، فيجيب:

- «المُحقِّق بن دانتون، قِسم جرائم القتل. من المُتحدِّث؟».

مُحقِّق شُرطة. ستنعته مونا بأنه مُنقِذي الذي أُرسِل لإعادتي إلى قطيع الإنسانيَّة. هذا هو الرقم الذي ظلَّ يظهر على جهاز الاستدعاء طول الأيام الماضية.

مجدولةٌ في شَعرها طواحين الهواء وأرصفة القطارات وأبراج الراديو المكسورة، وتقول مونا:

- «ألقِ نظرة».

تُظهِر الصُّور أطفالًا صغارًا يُعانِقهم المُهرِّجون، وآباء يجولون متشابكي الأيدي ويركبون مراكب صغيرة في نفق الحُب.

تقول مونا:

- «ليس من المُحتَّم أن تكون الرحلة كلها عملًا فقط».

تَخرُج هيلين من المكتبة وتضع قدميها على درجات السلالم، فتَلتَفِت مونا وتهرع إليها قائلةً:

- «هيلين، لقد وافقَ مستر ستريتور».

وأضع سمَّاعة الهاتف العمومي على صدري وأقولُ إنني لم أوافِق على شيء.

أويستر وراء هيلين بخطوة.

وتَرفَع مونا الكُتَيِّب في وجه هيلين وتقول:

- «انظري كَمَّ المرح».

وعلى الهاتف يقول المُحقِّق دانتون:

- «من المُتحدِّث؟».

لا بأس بالتضحية برجل عربات السباق على سرواله الداخلي، ولا بأس بالتضحية بامرأة الدجاجات الصفراء على مريولتها، لا بأس بألَّا نُخبِرهما بالحقيقة، بأن نَترُكهما في معاناتهما، ولا بأس بالتضحية بأرمل عارِضة أزياءٍ ما، لكن التضحية بي لإنقاذ الملايين مسألة أخرى تمامًا.

أقولُ على الهاتف إن اسمي ستريتور، وإنه طلبني على جهاز الاستدعاء، فيقول:

- «مستر ستريتور، نريد منك أن تَمُرَّ علينا كي نطرح عليك بعض الأسئلة».

فأسأله: بخصوص ماذا؟

- «لِمَ لا نتكلَّم عن هذا وجهًا لوجه؟».

أسأله إن كان للأمر علاقة بموت أحدهم، فيقول:

- «متى يُمكنك المرور علينا؟».

أسأله إن كان للأمر علاقة بسلسلة من الموتى بلا سببٍ واضِحٍ للوفاة.

- «كلما أسرعت بالمجيء إلينا كان أفضل».

أسأله إن كان السَّبب أن واحدًا من الضحايا كان جاري في الطابق العُلوي، وأن ثلاثةً منهم مُحرِّرون في جريدتي، ويقول دانتون:

- «فعلًا؟».

أسأله إن كان السَّبب أني مررتُ بثلاث ضحايا آخَرين في الشارع قبل لحظاتٍ من سقوطهم موتى، فيقول:

- «هذا خبر جديد عليَّ».

أسأله إن كان السَّبب أني كنت أقف على مرمى حجرٍ من الشَّاب ذي السوالِف الذي مات في البار في ثيرد آڤنيو، فيقول:

- «آها، تقصد مارتي لاتانزي».

أسأله إن كان السَّبب أن هناك علاماتٍ على وقوع جماعٍ بعد الوفاة على جُثَث عارِضات الأزياء، تمامًا كما كانت جُثَّة زوجتي منذ عشرين عامًا، ولا شكَّ أن لديهم تسجيلًا لي وأنا أتكلَّم مع أمين مكتبة اسمه سايمون في اللحظة التي خَرَّ فيها ميتًا.

يُمكنك أن تسمع صوت قلمِ رصاص يَخُطُّ مُلاحَظاتٍ سريعةٍ على ورقة، وأسمعُ من يقول على مسافةٍ من الهاتف:

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

- «أبقِه على الخَط».

أسألُ إن كانت هذه حيلة للقبض عليَّ بتُهمة القتل، ويقول المُحقِّق دانتون:

- «لا تجعلني أُصدِر أمر ضبطٍ وإحضار».

كلما مات أناسٌ أكثر ظلَّ كلُّ شيءٍ كما هو.

أقولُ: مُحقِّق دانتون، هلَّا أخبَرتني بمكانك الحالي بالضبط؟

قد تكسر العِصِيُّ والحجارة عظامك، لكن ها نحن من جديد.

بسرعة الصرخة تدور الأغنيَّة في رأسي ويَصمُت الهاتف.

لقد قتلتُ مُنقِذي، المُحقِّق بن دانتون، وهأنذا أجنحُ بعيدًا عن بقيَّة الإنسانيَّة أكثر فأكثر.

الهَدم البنَّاء...

يَرُجُّ أويستر قدَّاحته البلاستيكيَّة ويَنقُر بها على راحة يده، ثم يُناوِلها لهيلين ويُراقِبها وهي تُخرِج ورقة مطويَّة من حقيبتها، فتُشعِل النار في الصفحة 27 فوق بالوعة المجاري.

تقرأ مونا في الكُتيِّب، وتُمسِك هيلين الورقة المُشتَعِلة قُرب طرفه، فيتمسَّك اللهب بصُور الأُسَر السعيدة المُبتَسِمة، وتَصرُخ مونا وتُسقِط الكُتيِّب. ما زالت هيلين تحمل الورقة المُشتَعِلة، وتَركُل الأُسَر المحروقة نحو البالوعة، وتتعاظَم النار في يدها وتتعاظَم، ويفوح منها الدُّخان في النسيم.

ولسببٍ ما أفكِّر في ناش وفتيله المُشتَعِل...

- «المرح ليس من شيَمي»، تقولها هيلين، وبيدها الأخرى تُجَلجِل بمفاتيح سيَّارتها في وجهي.

ثم يَحدُث كلُّ شيءٍ بسرعة. يُطوِّق أويستر رأس هيلين بيده من الخلف، وبسرعةٍ يُسقِطها على قدميها وهي ترفع ذراعيها لتجد توازُنها، ويختطِف أغنيَّة المَهد من يدها. تَسقُط هيلين على رُكبتيها بعيدًا عن مُتناوَل يده، وتَخرُج منها صرخة قصيرة عندما تصدِم الرصيف الإسمنتي، وتتهاوى فوق البالوعة والمفاتيح لا تزال في يدها.

يَضرِب أويستر الورقة المُشتَعِلة على فخذه، ويحملها بيديه وعيناه تجريان جيئةً وذهابًا على السطور، بينما ترتفع النار من أسفل، ثم تَبلُغ يديه معًا ويُلقي الورقة صارخًا: «لا!»، ويَدُسُّ أصابعه في فمه.

تتراجَع مونا إلى الخلف ويداها على أذنيها وعيناها مُغلَقَتان عن آخِرهما.

هيلين على يديها ورُكبتاها فوق البالوعة بالقُرب من الأُسَر المحروقة، وترفع عينيها إلى أويستر الذي صار في عداد الموتى، تصفيفة شعرها تالفة تمامًا والشَّعر الوردي يتدلَّى فوق عينيها، جوربها النايلون مُمزَّق ورُكبتاها داميتان.

وتَصرُخ مونا:

- «لا تَقتُليه! أرجوكِ لا تَقتُليه! لا تَقتُليه!».

ويَسقُط أويستر على رُكبتيه مُحاوِلًا الإمساك بالورقة المُشتَعِلة على الرصيف.

وببطء، ببطءٍ كبطءِ عقرب الساعات، تنهض هيلين وقد احمرَّ

وجهها، لكنه ليس احمرار الياقوت البورمي، بل أقرب إلى احمرار الدَّم الذي يسيل من رُكبتيها.

أويستر راكِعٌ على رُكبتيه، هيلين واقفةٌ فوقه، مونا تضع يديها على أذنيها وقد أغلقت عينيها عن آخِرهما، أويستر يُفتِّش بين الرماد، هيلين تنزف، وأنا أراقِب ما يحدث من كابينة الهاتف... ويطير سَرب من طيور الزرزور من فوق سطح المكتبة.

أويستر، الابن الشِّرِّير الكريه العنيف الذي كانت هيلين لتحظى به لو كان ما زال لديها ابن.

لُعبة السيطرة القديمة نفسها.

- «افعليها»، يقولها أويستر وهو يرفع عينيه لتلتقيا بعينيِّ هيلين، ويبتسم بنِصف فمه فقط. «لقد قتلتِ ابنك الحقيقي ويُمكنك أن تقتليني».

وتهوي هيلين بصفعتين عنيفتين على وجهه دون أن تتخلَّى عن المفاتيح في يدها، وبعد لحظةٍ يسيل المزيد من الدَّم.

طُفيلٌ مُشوَّهٌ آخَر، صرصورٌ آخَر اتَّخذ شكل خزانة ملابس.

وتَنتَقِل عينا هيلين بسرعةٍ من أويستر الذي ينزف وجهه إلى سَرب طيور الزرزور الذي يحوم فوقنا، ويبدأ السَّرب في السقوط طائرًا وراء الآخَر. يلمع الرِّيش الأسود بلونٍ أزرق زيتي، والعيون الميتة خرزٌ أسود. يضع أويستر يديه المليئتين بالدَّم على وجهه، وما زالت عينا هيلين مرفوعتين إلى السماء، وتَهِسُّ الأجساد اللامعة وتَرتَطِم بالأرض الإسمنتيَّة حولنا.

الهَدم البنَّاء.

الفصل الحادي والثلاثون

تتوقَّف هيلين على جانِب الطريق السريع على بُعد ميلٍ خارِج البلدة وتُشَغِّل ضوء الطوارئ المُتقطِّع. يداها المُغطَّاتان بزوج القُفَّازات المصنوع من جِلد العِجل موضوعتان على عجلة القيادة، وترمقهما دون سواهما قائلةً:

- «انزل».

على الزجاج الأمامي ثمَّة قطرات صغيرة من الماء تُشبِه العدسات اللاصقة وقد بدأ المطر في السقوط.

- «ليكن»، يقولها أويستر، ويفتح الباب المجاوِر له بعُنف. «أليس هذا ما يفعله الناس مع الكلاب غير القابلة للتعوُّد على الحياة داخل البيت؟».

الدَّم يُلَطِّخ يديه ووجهه بالأحمر، وجه الشيطان. يَلتَصِق شَعره الأشقر المنفوش بجبهته أحمر صُلبًا كقرنيِّ الشيطان. لِحيته القصيرة حمراء. وسط كلِّ هذا الاحمرار عيناه فقط بيضاوان، لكنه ليس بياض راية الاستسلام، بل أقرب إلى بياض البيض المسلوق، والدجاجات العاجِزة في الأقفاص، والبؤس والمعاناة والموت في مصانع الطعام.

- «تمامًا كما طُرِدَ آدم وحوَّاء من جنَّة عدن».

يقف أويستر على جانِب الطريق السريع المُغطَّى بالحصى، ويميل ليَرمُق مونا التي لا تزال جالسةً على الأريكة الخلفيَّة، ويقول:

- «هل أنتِ آتية يا حوَّاء؟».

إنها ليست مسألة حُب، بل سيطرة.

تَغرُب الشمس وراء أويستر، ووراء أويستر الأشواك الرُّوسيَّة والوَزَّال السكوتلندي والكرمة الشَّرق آسيويَّة، والعالم كله في فوضى.

في شَعر مونا ضُفِّرَت أطلال الحضارة الغربيَّة وقِطع مصيدة الأحلام وعملات «كتاب التغيُّرات»، وترمق أظفارها السوداء في حِجرها وتُغَمغِم:

- «أويستر، ما فعلته خطأ».

ويَمُدُّ أويستر إليها داخِل السيَّارة يدًا حمراء تجلَّط عليها الدَّم قائلًا:

- «تُوتَة، على الرغم من جميع أعشابك ونيَّاتكِ الطيِّبة، فلن تنجح هذه الرحلة. تعالي معي».

تضغط مونا أسنانها وتلتفت إليه بحدَّةٍ وتقول:

- «لقد تخلَّصتَ من كتاب الأشغال اليدويَّة الهنديَّة. هذا الكتاب كان مُهمًّا جدًّا لي».

لا يزال البعض يعتقد أن المعرفة قوَّة.

يقول أويستر وهو يُمَسِّد شَعرها فيلتصق بيده الدامية:

- «تُوتَة يا عزيزتي، هذا الكتاب كان تافهًا».

- «ليكن»، تقولها مونا، وتبتعد عنه عاقِدةً ذارعيها على صدرها، فيُردِّد أويستر الكلمة نفسها، ويصفق باب السيَّارة لتَترُك يده لطخة حمراء على النافذة.

يتراجع أويستر ويداه ما زالتا ممدودتين على جانبيه، ويَهِزُّ رأسه قائلًا:

- «انسي أمري إذن. ما أنا إلَّا أحد التماسيح الأليفة التي تخلَّص الله منها في المرحاض».

تُعيد هيلين ذراع الحركة إلى وضع القيادة، وتضغط زِرًّا ما فيوصَد باب أويستر.

ومن خارِج السيَّارة الموصَدة يأتي صوت أويستر مكتومًا مُشَوَّشًا إذ يصيح:

- «يُمكنك التخلُّص مني في المرحاض، لكني سأظلُّ ألتهم الخراء، وسأستمرُّ في النُّمو».

تُشَغِّل هيلين إشارة الدوران وتبدأ في العودة إلى الطريق، ويصيح أويستر:

- «يُمكنك أن تنسيني...».

وجهه شيطاني أحمر، أسنانه كبيرة بيضاء، ويصرخ:

- «... لكن هذا لا يعني أنني غير موجودا».

لسببٍ ما تَخطُر ببالي عُثَّة الغَجر الأولى التي طارت من نافذةٍ في مدفورد، ماساتشوستس، سنة 1860.

تتحرَّك هيلين بالسيَّارة وتلمس عينها بإصبعٍ واحد، وعندما تضع يدها

على عجلة القيادة مرَّة أخرى أجد أن إصبع القُفَّاز تلوَّث باللون البُنِّي الداكِن وابتلَّ.

في السَّرَّاء والضَّرَّاء، في الفقر والثَّراء، هذه هي حياتها الآن.

وتَدفِن مونا يديها في وجهها وتنفجر في البكاء.

وأعُدُّ 1... أعُدُّ 2... أعُدُّ 3... وأُشَغِّل الراديو.

الفصل الثاني والثلاثون

اسم البلدة هو ستون ريڤر على الخريطة... ستون ريڤر، نبراسكا، لكن عندما نَبلُغها -حضرة الرقيب وأنا- نجد أن اللافتة التي تُوضِّح تعداد سُكَّان البلدة قد كُتِبَ عليها اسم «شيڤاپورام».

نبراسكا.

تعداد السُّكَّان 17 ألفًا.

في منتصف الشارع ثمَّة بقرة ذات لونين أبيض وبُنِّي تسدُّ خطوط عبور المشاة وعلينا أن ندور من حولها، فالبقرة لا تتحرَّك قيد أنملة وهي لا تزال تَجترُّ طعامها.

وسط البلد عبارة عن مُربَّعين سكنيَّين من المباني المُشيَّدة بالطوب الأحمر. يومض ضوء إشارة المرور الأصفر فوق نقطة التقاطُع الرئيسة، وتَحُكُّ بقرة سوداء جانِبها بعمود لافتة التوقُّف، بينما تلتهم بقرة بيضاء زهور الزينيا من أُصص موضوع على عتبة نافذة أمام مكتب البريد، وتضطجع بقرة أخرى على الرصيف أمام قِسم الشُّرطة مُغلِقةً إياه.

رائحة الكاري والبتشولي في الهواء. يرتدي نائب المأمور خُفًّا في

قدميه، ويُلصِق كلٌّ من نائب المأمور وساعي البريد والنادلة في المقهى والسَّاقي في الحانة نُقطة سوداء بين عينيه، تلك التي تُسَمَّى بيندي.

يقول حضرة الرقيب:

- «إنه احتفال ديني. لقد اعتنقت البلدة كلها الهندوسيَّة».

طِبقًا لعدد هذا الأسبوع من Psychic Wonders Bulletin، فإن كلَّ هذا بسبب بقرة يهوذا المُتكلِّمة.

الحيلة التي تُمارَس في أيِّ سلخانة هي أن تخدع الأبقار كي تتسلَّق المُنحدَر الذي يقود إلى طابِق الذَّبح. الأبقار التي تُشحَن من المَزارع تكون خائفةً مُرتَبِكةً بعد حشرها معًا طيلة ساعاتٍ أو أيامٍ في الشاحنات، قبل أن يُلقوا بها مع الأبقار الأخرى في المعْلَف خارِج السلخانة وقد ظلَّت مُستيقظة تشعر بالعطش طول الرحلة.

وكي تجعلها تتسلَّق المُنحدَر، فإنك تستعين ببقرة يهوذا. هذا هو الاسم الذي يُطلِقونه على تلك البقرة حقًّا، فهي بقرة تعيش في السلخانة، تَختَلِط بالأبقار الأخرى المحكوم عليها بالموت ثم تقودها عبر المُنحدَر إلى طابِق الذَّبح، لأن الأبقار الخائفة لن تتزحزح من مكانها أبدًا ما لم تكن بقرة يهوذا تلك في المُقدِّمة.

وفي اللحظة الأخيرة، قبل أن تهوي الفأس أو السِّكِّين أو يخترق الخابور المعدني الجمجمة، تتنحَّى بقرة يهوذا جانِبًا. إنها تنجو دائمًا من الذَّبح لتقود قطيعًا آخَر من الأبقار إلى موته، وتُمارِس هذا العمل طيلة حياتها.

كان هذا -طِبقًا للعدد الجديد من Psychic Wonders Bulletin-

حتى جاء يوم كفَّت فيه بقرة يهوذا في مصنع ستون ريڤر لتعليب اللحوم عن مُمارَسة عملها المعتاد.

توقَّفت بقرة يهوذا فجأةً لتسدَّ مدخل طابق الذَّبح، ورفضت أن تبتعد وتَترُك القطيع وراءها يموت. كان جميع عاملي السلخانة يُراقِبون عندما جلست بقرة يهوذا على قائمتيها الخلفيتَّين عند المدخل كما تجلس الكلاب، وتطلَّعت إلى الجميع بعينيها البُنيَّتَين... وتكلَّمت.

تكلَّمت بقرة يهوذا، فقالت:

- «فلتنبذوا عادة أكل اللحوم».

كانت تتكلَّم بصوت امرأة شابَّة، بينما كان صَفُّ الأبقار الأخرى من ورائها ينتظر مُتَمَلمِلًا.

وفغر عُمَّال السلخانة أفواههم بسرعةٍ جعلت السجائر تَسقُط منها على الأرض الدامية، وازدرد واحد من الرجال التبغ الذي يمضغه، بينما صرخت امرأة من بين أصابعها.

وجلست بقرة يهوذا هناك، ورفعت واحدةً من قائمتيها الأماميتَّين لتشير بالحافِر نحو العُمَّال وتقول:

- «الطريق إلى الموكشا لا يمرُّ بآلام ومعاناة المخلوقات الأخرى».

يقول عدد Psychic Wonders Bulletin إن الموكشا كلمة سنسكريتيَّة تعني «التَّحرير»، نهاية دورة التجسُّد الكارميَّة.

أخذت بقرة يهوذا تتكلَّم مدَّة بَعد الظُّهر كلها. قالت إن البَشر دمَّروا العالم الطبيعي، وإنه ينبغي عليهم التوقُّف عن إبادة الأجناس الأخرى، وإن على الإنسان أن يضع حدًّا لأعداده، وأن يضع نظامًا مُحدَّدًا يجعل

نسبة صغيرة فقط من مساحة الكوكب ملكًا له. يستطيع البَشر أن يعيشوا كما شاءوا ما داموا لا يُمَثِّلون أغلبيةَ الكائنات على سطح الكوكب.

علَّمتهم البقرة أغنيةً هندوسيةً، وجعلَت طاقم العُمَّال كله يُغنِّي معها وهي تؤرجِح حافِرها مع إيقاع الأغنيةَ.

وأجابت البقرة على جميع أسئلتهم عن طبيعة الحياة والموت.

وظلَّت بقرة يهوذا تُدَنِدن وتُدَنِدن وتُدَنِدن...

والآن، هنا والآن، ها أنذا مع حضرة الرقيب وقد جئنا بعد وقوع الحدث، نصطاد السَّحرة. نتطلَّع إلى الأبقار التي تم إطلاق سراحها في ذلك اليوم من مصنع تعليب اللحوم، الذي يقبع الآن خاويًا هادئًا على أطراف البلدة. يقوم أحدهم بطلاء المبنى باللون الوردي مُحوِّلًا إياه إلى أشرام، بينما زرع البعض عددًا من الخضراوات في المِعْلَف.

لم تَنِبس بقرة يهوذا ببنت شفة منذ ذلك الحين، وتكتفي بأكل الحشائش من حدائق البيوت والشُّرب من أوعية الماء الموضوعة للطيور، وقد علَّقوا سلاسل من زهور الربيع حول عُنقها.

يقول حضرة الرقيب:

- «إنهما يَستخدِمان تعويذة الاحتلال».

نقف في الشارع انتظارًا لمرور خنزير ضخم بطيء الحركة من أمام سيَّارتنا، بينما تقف خنازير ودجاجات أخرى في الظِّل تحت مِظلَّة متجر الخردوات.

تُتيح لك تعويذة الاحتلال تسليط وعيك داخِل جسم كائنٍ آخَر.

أُحَملِقُ فيه طويلًا، وأقولُ إن القِطَّ يعيب على الفأر.

ويقول حضرة الرقيب:

- «البَشر، الحيوانات... يُمكنك أن تضع نفسك داخِل أيّ جسمٍ حيٍّ تقريبًا».

وأقولُ: نعم، حَدِّث ولا حرج.

نَمُرُّ بالرجل الذي يطلي الأشرام الوردي، ويقول سيادة الرقيب:

- «إذا طلبت رأيي، فالتجسُّد ليس إلَّا نوعًا من المُمَاطَلَة».

وأقولُ: نعم، نعم، نعم، لقد أخبرَني بهذا من قبل.

ويَمُدُّ حضرة الرقيب يده المعروقة ذات الجِلد المُجَعَّد والشُّعيرات الشائبة عبر المقعد الأمامي ليضعها على يدي، فأجدُ ملمس أصابعه باردًا من جرّاء تحسُّسه مسدَّسه، ويعتصر يدي قائلًا:

- «أما زلت تُحبُّني؟».

وأسأله إن كان لديَّ خيار.

الفصل الثالث والثلاثون

تتدافَع الجموع وتتزاحَم حولنا، النساء في بلوزات بحمَّالةٍ عُنق واحدةٍ والرجال بقُبَّعات رعاة البقر. يَلتَهِم الناس التفاح المُغَلَّف بالكراميل المُثبَّت على عِصِيٍّ صغيرة والثلج المكشوط في قراطيسٍ ورقيَّة. الغبار في كلِّ مكان، ويدوس أحدهم على قدم هيلين، فتسحبها قائلةً:

- «مهما زاد عدد الذين أقتلهم، فهو لا يكفي أبدًا».

وأقولُ: دعينا لا نتكلَّم عن العمل.

تتقاطَع الكابلات السوداء السميكة وتتشابَك على الأرض، وفي الظُّلمة وراء الأنوار تحرق المُحرِّكات الديزل لتوليد الكهرباء. يُمكنك أن تشمَّ رائحة وقود الديزل مُمتَزِجةً برائحة الأطعمة المُحمَّرة والقيء والسُّكَّر البودرة.

هذا ما يعدُّونه مَرَحًا في أيامنا هذه.

تَمرُق بنا صرخة ولمحة من مونا. إنها مركبة ملاهٍ عليها لافتة نيون وَضَّاءة تقول: «الأخطبوط»، والمركبة عبارة عن أذرُعٍ معدنيَّةٍ سوداء ملتوية تدور حول مِحوَر وتغوص إلى أسفل ثم تَرتَفِع إلى أعلى في الوقت نفسه.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

في طرف كلِّ ذراعٍ هناك مقعد، ويدور كلُّ مقعدٍ حول مِحوَره الخاص. تَمرُق بنا الصرخة مرَّة أخرى ومعها راية من الشَّعر الأسود والأحمر، وتُحلِّق في خَطٍّ مستقيمٍ من جانِب عُنق مونا حظَّاظاتها وسلاسلها الفِضِّيَّة وقد قبضت بيديها على القضيب الواقي المُثبَّت عبر حِجرها.

تطير أطلال الحضارة الغربيَّة -الطوابي والأبراج والمداخِن- من شَعر مونا، وتندفع عملة من «كتاب التغيُّرات» مارَّة بنا بسرعة الرَّصاصة.

تُراقِبها هيلين قائلةً:

- «أعتقد أن مونا قد نالت تعويذة الطيران التي ترغب فيها».

يرتفع رنين جهاز الاستدعاء من جديد برقم مُحقِّق الشُّرطة نفسه.

ها هو مُنقِذٌ جديد بدأ يتعقَّبني بالفعل.

كلما مات أناسٌ أكثر ظلَّ كلُّ شيءٍ على حاله.

وأُغلِق جهاز الاستدعاء.

وتقول هيلين وهي تُراقِب مونا الصارخة:

- «أخبار سيِّئة؟».

وأجيب إنه ليس بالشيء المُهِم.

تَمشي هيلين، التي ترتدي حذاءً ورديَّ اللونِ عاليَ الكَعبَين، بخطواتٍ غير مُتَّزنةٍ على الطِّين ونُشارة الخشب التي تكسو الأرض، وتخطو فوق كابلات الكهرباء السوداء.

وأمُدُّ يدي إليها قائلًا:

- «تعالي».

وتُمسِك هيلين يدي، ولا أُطلِق سراحها، ولا يبدو أنها تُمانِع، ونمشي متعانقيَّ اليدين، وإنه لشعورٌ حُلوٌ فعلًا.

لم تَعُد يدها مُرصَّعةً بالكثير من الخواتم الكبيرة كما كانت من قبل، فلا تُؤلِمني يدي بالقَدر الذي تحسبه.

تَشُقُّ مركبات الكرنڤال الهواء حولنا بأضواء من بَياض الماس واخضرار الزُّمُرُّد واحمرار الياقوت، أضواء من الفيروزي والأزرق الياقوتي، أضواءٍ من الأصفر على أغصان الأُتْرُج والبرتقالي في الكهرمان، وتُدَوِّي موسيقى الروك من السمَّاعات العملاقة المُثبَّتة على الأعمدة المنتشرة في كلِّ مكان.

هؤلاء المُدمِنون للروك... هؤلاء المرعوبون من السُّكون...

أسألُ هيلين: متى كانت آخِر مرَّةٍ ركبت فيها عجلة فيريس؟

في كلِّ مكانٍ رجال ونساء مُتعانِقي الأيدي يتبادَلون القُبلات، يُطعِمون بعضهم بعضًا خيوطًا من غزل البنات، يمشون جنبًا إلى جنبٍ وقد دَسَّ كلٌّ منهم يدًا في جيب سروال الآخَر الخلفي الضَّيِّق.

تُراقِب هيلين الجمهور وتسألني:

- «لا تُسئ فهمي، لكن متى كانت آخِر مرَّةٍ لك؟».

آخِر مرَّةٍ لأيِّ شيء؟

- «أنت تعرف».

لستُ متأكِّدًا أن آخِر مرَّة تُحسَب، لكنها كانت منذ نحو ثمانية عشر عامًا.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وتبتسم هيلين وتقول:

- «لا عجب أنك تمشي بطريقةٍ غريبة. عشرون عامًا بالنِّسبة لي منذ چون، والعَد مُستَمِر».

على الأرض، بين نُشارة الخشب والكابلات، ثمَّة صفحة من جريدةٍ في حالةٍ مُزرِية، فيها إعلان يحتلُّ ثلاثة أعمدة يقول عنوانه: «الرجاء الانتباه... لمُرتادي مكتب هيلين هوڤر بويل للعقارات»، ويقول متنه: «هل بيع لكم منزل مسكون عن طريق هذا المكتب؟ إذا حدث هذا، فيُرجى الاتصال بالرقم التالي لتكونوا جزءًا من دعوى جماعيَّة».

ثم رقم هاتف أويستر.

وأقولُ: باللهِ عليكِ يا هيلين، لماذا حكيتِ له كلَّ هذا؟

وتتطلَّع هيلين إلى الإعلان في الجريدة، وبحذائها الوردي تَعجِن الصفحة في الطِّين قائلةً:

- «للسَّبب نفسه الذي جعلني لا أقتله، لأنه أحيانًا ما يكون حَبُّوبًا».

إلى جوار الإعلان هناك صورة غَطَّاها الطِّين لعارِضة أزياء ميتةٍ أخرى.

ترفع هيلين عينيها إلى عجلة فيريس، الحلقة التي تدور بأنابيب من الفلورسنت الأبيض والأحمر حاملةً المقاعد المُتَأَرجِحَة المُكتَظَّة بالناس، وتقول:

- «يبدو أن ركوبها سيروقني».

يوقف رجلٌ العجلة وتتأرجح المقاعد في أماكنها، بينما أجلسُ وهيلين على الوسادة البلاستيكيَّة الحمراء، ثم يُثَبِّت الرجل قضيبًا واقيًا

عَبر حِجرينا، قبل أن يتراجع ويجذب رافعة، فيبدأ مُحَرِّك الديزل الكبير في العمل. تَهتَزُّ عجلة فيريس هزَّةً عنيفة كأنها ستتدحرج إلى الوراء، ثم أرتفعُ وهيلين إلى الظلام.

في منتصف المسافة إلى الليل أعلانا تتوقَّف العجلة، فيتأرجح مقعدنا وتتشبَّث هيلين بالقضيب الواقي، وفي تلك اللحظة يَنزلِق خاتم سوليتير من على أحد أصابعها ويَسقُط مُتألِّقًا عبر دعائم العجلة والأضواء، وعبر الوجوه والألوان، حتى يقع بين تروس الماكينة.

وتتطلَّع هيلين إلى حيث سقط الخاتم قائلةً:

- «لا بأس. كان ثمنه نحو خمسة وثلاثين ألف دولار لا أكثر».

فأقولُ إنه من الممكن أنه لم يتلف، فالماس قويُّ الاحتمال.

وتقول هيلين إن تلك هي المشكلة، فالأحجار الكريمة هي أقسى شيء على وجه الأرض، لكنها لا تزال قابلةً للكَسر. إنها تحتمل الضغط المستمر، لكن من شأن صدمةٍ حادَّةٍ مُفاجِئة أن تحيلها إلى حفنةٍ من التُّراب.

تأتي مونا جاريةً على نُشارة الخشب لتقف أسفلنا وتُلَوِّح بيديها هاتفةً:

- «ووهوووو! انطلقي يا هيلين!».

تَهتَزُّ العجلة لتبدأ في الدوران من جديد، ويميل المقعد فتكاد حقيبة هيلين تَنزلِق من يدها، إلَّا أنها تقبض عليها. لا يزال الحجر الرمادي موجودًا فيها، الحجر الذي تلقَّته هديَّةً من طائفة أويستر. لكن بدلًا من الحقيبة، يَنزلِق دفتر التنظيم اليومي عن المقعد ويَسقُط مُرَفرِفًا في الهواء ليَحُطَّ فوق نُشارة الخشب، فتَركُض مونا لتَلتَقِطه.

تَنفُض مونا الدفتر على فخذها من نُشارة الخشب، ثم تَرُجُّه في الهواء لتُرينا أنه سليم.

تقول هيلين:

- «الحمد لله على مونا».

فأقولُ: مونا قالت إنك تُزمِعين قتلي.

وتَرُدُّ هيلين:

- «وقالت لي إنك تريد أن تَقتُلني».

ويَنظُر كلانا إلى الآخَر...

وأقولُ: الحمد لله على مونا.

وتقول هيلين:

- «هلَّا اشتريت لي بعض الفُشار بالكراميل؟».

على الأرض، بعيدًا عنا، تجول مونا في صفحات الدفتر، حيث يحمل كلُّ يومٍ جديد اسم هدفٍ سياسيٍّ آخَر.

أنظرُ إلى أعلى، بعيدًا عن الأضواء المُلَوَّنة وقريبًا من سماء الليل، فأجدنا ندنو أكثر من النجوم. قالت مونا ذات مرَّةٍ إن أفضل ما في الحياة هو النجوم، فعلى الجانِب الآخَر، حيث يذهب الناس بعد أن تحين ساعتهم، لا تلوح النجوم.

فكِّر في أغوار الفضاء الخارجي، في البرد والصمت السَّرْمَدِيَّيْن، حيث تكفيني جنَّة الصَّمت كمكافأة.

أقولُ لهيلين إنني في حاجةٍ إلى العودة إلى الديار لأن هناك فوضى لا بُدَّ من تنظيفها، ويجب أن يَتِمَّ هذا سريعًا قبل أن تسوء الأمور أكثر.

عارِضات الأزياء الميتات... وناش... ومُحَقِّقو الشُّرطة... وكلُّ

شيء... لا أدري كيف وقعت يده على أغنيَّة المَهد حقًّا.

نرتفع إلى أعلى أكثر، بعيدًا عن الروائح وضجيج مُحَرِّك الديزل... نرتفع إلى الهدوء والبرد... تَصغُر مونا التي تتصفَّح دفتر هيلين... تَصغُر أكشاك الطعام والمراحيض النَّقَّالة... تتضاءل الصرخات وموسيقى الروك.

تتوقَّف العجلة بينما نحن في أعلى نُقطة، وتَخِفُّ أرجحة مقعدنا شيئًا فشيئًا إلى أن يَثبُت. على هذا الارتفاع يُداعِب النسيم شَعر هيلين الوردي ويُثيره. من هذا الارتفاع يبدو مشهد النيون والشَّحم والطِّين مثاليًّا... مثاليًّا وآمِنًا وسعيدًا... الموسيقى ليست إلَّا دوم دوم دوم بعيدة مكتومة.

هكذا نبدو -لا شكَّ- من منظورِ إلهي...

تَنظُر هيلين إلى أسفل حيث الألوان الدَّوَّارة وصرخات المرح، وتقول:

- «أنا مسرورة لأنك اكتشفت أمري. أعتقد أني كنتُ آملُ طول الوقت أن يكتشف أحدهم أمري، ومسرورة فعلًا أنه أنت».

أقولُ إن حياتها ليست بذلك السوء، فلديها جواهرها، ولديها پاتريك.

تقول:

- «ولو... من الجميل أن يكون هناك إنسان واحد يعرف أسرارك كلها».

البذلة التي ترتديها ذات لونٍ أزرق فاتِح، لكنها ليست زُرقة بيضة طائر أبي الحِنَّاء، بل هي زُرقة بيضة طائر أبي الحنَّاء عندما تَعثُر عليها ثم تَشعُر بالقلق من أنها لن تفقس لأن الطائر الذي بداخِلها ميت، ثم تَفقِس فعلًا ويَخرُج منها الطائر، فتَشعُر بالقلق مما ينبغي أن تفعله الآن.

أضعُ يدي على القضيب الواقي المُثبَّت عبر حِجرينا، وتضع هيلين يدها على يدي قائلةً:

- «مستر ستريتور، هل لديك اسم أول؟».

كارل...

أقولُ: كارل، اسمي كارل ستريتور.

وأسألها: لِمَ قلتِ إنني في منتصَف العُمر؟

وتضحك هيلين وتقول:

- «لأنك في منتصَف العُمر، وكذلك أنا».

وتَهتَزُّ العجلة مجدَّدًا وتبدأ في الحركة.

وأقولُ: عيناك... إنهما زرقاوان.

وهذه هي حياتي...

في الأسفل يرفع رجل الكرنڤال القضيب الواقي، وأمُدُّ يدي لهيلين وهي تهبط من المقعد. نُشارة الخشب ناعمة متناثرة في كلِّ مكان، ونتحرَّك مُتَعَثِّرَيْن في الزحام وقد طوَّق كلٌّ منا خصر الآخَر بذراعه، ونَبلُغ مونا لنجدها لا تزال تقرأ في دفتر التنظيم اليومي.

تقول هيلين:

- «حان وقت الفُشار بالكراميل. الحساب على كارل».

ولا يزال الكتاب مفتوحًا في يدها، وترفع مونا عينيها إلينا وقد فغرت فاها بعض الشيء، وبسرعة تطرف عيناها مرَّة، مرَّتين، ثلاثًا، وتتنهَّد وتقول:

- «أتعرفان «الجريموار» الذي نبحث عنه؟ أعتقدُ أننا عثرنا عليه!».

الفصل الرابع والثلاثون

يَكتُب بعض السَّحرة تعاويذهم بأبجدِيَّةٍ قديمة ورموزٍ سرِّيَّة مشفَّرة. طِبقًا لمونا، فإن بعضهم يَكتُب التعويذة بالمقلوب كي تكون قابلةً للقراءة في المرآة فقط، وبعضهم يَكتُبها بشكلٍ حلزوني يبدأ من منتصف الصفحة ويدور إلى الخارِج، ويَكتُب بعضهم ألواح اللعنات على طريقة قُدَماء الإغريق، التي يُكتَب أول سَطرٍ فيها من اليسار إلى اليمين، والثاني من اليمين إلى اليسار، والثالث من اليسار إلى اليمين، وهكذا دواليك. يُطلِقون على هذه الطريقة العتيقة في الكتابة اسم «البَطْرَفَة»، لأنها تُحاكي حركة الثَّور المربوط بحبلٍ إذ يتحرَّك جيئةً وذهابًا. لمُحاكاة حركة الثعبان، تقول مونا، يَكتُب البعض بحيث يتفرَّع كلُّ سَطرٍ في اتِّجاهٍ مُختَلِف.

القاعدة الوحيدة هي أن تكون التعويذة ملتوية، فكلما كانت التعويذة مخفيَّةً أكثر، ملتوية أكثر، كانت أقوى. بالنِّسبة للسَّحرة تكون الالتواءات نفسها سحريَّةً، كما أنهم يرسمون أو ينحتون الإله السَّاحر هيفايستس وقد التوت ساقاه عدَّة مرَّات.

كلما كانت التعويذة ملتويةً أحدثَت اضطرابًا في حياة الضحيَّة. سوف

تُربِكها، تُشَتِّت انتباهها، وستتعثَّر في مشيتها، وتُصاب بالدُّوار، ولا تستطيع التركيز في أيِّ شيء.

تمامًا كالأخ الأكبَر الذي يُغَنِّي ويَرقُص...

إننا في الموقَف الذي فُرِشَت أرضه بالحصى، في منتصَف الطريق بين الكرنڤال وسيَّارة هيلين، وتَحمِل مونا دفتر التنظيم اليومي بطريقةٍ تجعل أضواء الكرنڤال تَسقُط على صفحةٍ واحدةٍ وتتخَلَّلها. في البداية لا ترى إلَّا المُلاحَظات التي دوَّنتها هيلين لكلِّ يوم، واسم المدعو كاپتن أنتونيو كاپل، بالإضافة إلى عددٍ من المواعيد المُحدَّدة لعملاء مكتبها. ثم إنك، عندما تُلاحِظ الضوء المُلوَّن الذي يسري من الورقة، تبدأ في رؤية نَمَطٍ باهتٍ عليها... كلماتٍ حمراء، عباراتٍ صفراء، فقراتٍ زرقاء.

الكتاب في يد مونا، وتقول:

- «حِبر سرِّي».

الكلمات باهتة كعلامةٍ مائيَّة، ككتابةٍ شَبَحِيَّة.

وتقول مونا:

- «التجليد هو ما لفت انتباهي».

الغلاف من الجِلد الأحمر الداكِن، مُلَمَّع لكن يكاد يكون أسود من فرط الاستعمال.

وتقول مونا:

- «إنه جِلد بَشري».

تقول هيلين إن الكتاب كان في بيت بازل فرانكي. رأت أنه كتاب قديم جميل، وكانت صفحاته فارِغة، فاشترته مع بيت فرانكي.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

على الغلاف ثمَّة نجمة خُماسيَّة سوداء تشرحها مونا قائلةً:

- «بِنتاجرام. لكن قبل أن يكون هذا الجِلد غلاف كتاب، كان وشمًا على جسد أحدهم. هذا الجزء الممتلئ...».

وتلمس بُقعة على كعب الكتاب وتقول:

- «... إنها حلمة».

وتُغلِق الكتاب وترفعه لهيلين قائلةً:

- «تَحسَّسيه. إنه ينتمي إلى عصرٍ سحيق».

وتَفتَح هيلين حقيبتها لتُخرِج زوج القُفَّازات الأبيض ذا الزِّرِّ عِند كلِّ كُمٍّ، وتقول:

- «لا، احمليه أنتِ».

تَرمُق مونا الكتاب المفتوح في يدها، وتتصفَّحه قائلةً بحيرة:

- «لو عرفتُ الحِبر الذي استخدموه، سيُمكنني أن أقرأه».

إذا كان من الأمونيا أو الخَل، تقول مونا، فعليك أن تغليه مع الكرنب الأحمر وتمسح عليه بالمَرَق الناتِج عن الغَلْيِ ليَكتَسِب الحِبر اللون الرمادي.

إذا كان من المَنِيِّ، فيُمكنك قراءته تحت ضوء الفلورسنت.

أقولُ: هل استخدموا المَنِيَّ لكتابة التعاويذ فعلًا؟

وتقول مونا:

- «المَنِيُّ تصنع أقوى أنواع التعاويذ».

إذا كان مكتوبًا بمحلولٍ صافٍ من نِشاء الذُّرَة، فيُمكنها أن تمسح عليه باليود كي تَبرُز الحروف.

إذا كان عصير الليمون، فعليك تسخين الصفحات ليتحوَّل الحِبر إلى اللون البُنِّي.

تقول هيلين:

- «تَذَوَّقيه لتري إن كان المذاق لاذِعًا».

وتُغلِق مونا الكتاب بعُنفٍ قائلةً بحِدَّة:

- «إنه كتاب سِحر عُمره ألف عامٍ مُجلَّد بجِلدٍ بَشري مُحنَّط، ومن المُحتمَل أنه مكتوب بمَنِيٍّ شخصٍ أكَل الدُّود بقاياه منذ عصور. العقيه أنت!».

وتقول هيلين:

- «حسن، فهمت. حاولي على الأقل أن تُسرِعي وتُتَرجِميه».

وتقول مونا:

- «ليست أنا التي تحمله منذ عشرة أعوام، وليست أنا من خرَّبته بالكتابة فوق كلِّ شيء».

وتَمُدُّ يديها بالكتاب دافعةً إياه نحو هيلين وتقول:

- «هذا كتاب عتيق، مكتوب بصيغةٍ مُندَثِرةٍ من اليونانيَّة واللاتينيَّة، بالإضافة إلى عددٍ من حروف الأبجديَّات المَنسِيَّة. سأحتاج بعض الوقت».

- «خُذي»، تقولها هيلين وتَفتَح حقيبتها وتُخرِج ورقةً مُرَبَّعةً مَطوِيَّة وتضيف: «هذه نُسخة من أغنيَة المَهد. هناك رجل اسمه بازل فرانكي ترجمَ هذا القَدر. إذا كان يُمكنك مضاهاتها بالتعاويذ التي في الكتاب،

فيُمكنك عندئذٍ استخدامها كمفتاحٍ لترجمة كلِّ التعاويذ بتلك اللُّغة، تمامًا كحجر رشيد».

وتَمُدُّ مونا يدها لتَلتَقِط الورقة...

وأختَطِفها من يد هيلين سائلًا: لماذا فتحنا هذا الحوار أصلًا؟ لقد كانت فكرتي أن نُحرِق الكتاب.

أفتح الورقة المَطوِيَّة لأجد الصفحة 27 المسروقة من مكتبةٍ ما، وأقولُ إننا في حاجةٍ إلى التَّرَوِّي والتفكير.

ولهيلين أقولُ: متأكِّدة من أنك تريدين أن تفعلي هذا بمونا؟ لقد دمَّرت التعويذة حياتينا تقريبًا. أقولُ: كما أن ما تعرفه مونا سيعرفه أويستر لا محالة.

تضع هيلين أصابعها داخِل زوج القُفَّازات الأبيض وتُزَرِّر الكُمَّين، ثم تَمُدُّ يدها لمونا قائلةً:

- «هاتي الكتاب».

وتقول مونا:

- «يُمكنني أن أفعلها».

وتَهِزُّ هيلين يدها نحو مونا وتقول:

- «لا، هذا أفضل. مستر ستريتور على حق. سوف تَقلِب التعويذة حياتك».

هواء الليل يموج بالصرخات الخافتة البعيدة والألوان الساطعة.

وتقول مونا: «لا»، وتَعقِد ذراعيها حول الكتاب ضامَّةً إياه إلى صدرها.

وتقول هيلين:

- «أرأيتِ؟ لقد بدأ الجنون بالفعل. متى كان هناك احتمال لاقتناص شيءٍ من السُّلطة، فإنك تطمعين في المزيد في الحال».

وأقولُ لها أن تُعطِي الكتاب لهيلين.

وتدير مونا ظَهرها لنا قائلةً:

- «أنا التي عثرت عليه، وأنا الوحيدة التي تستطيع قراءته».

وتَلتَفِت لتَرمُقني من فوق كتفها وتقول:

- «أنت... أنت تريد تدميره فقط كي تبيع القِصَّة وتَنشُرها. تريد حلَّ كلِّ شيءٍ كي تستطيع الكلام عنها في أمان».

وتقول هيلين:

- «مونا، حبيبتي، لا تفعلي هذا».

وتَلتَفِت مونا لتَرمُق هيلين من فوق كتفها الأخرى وتقول:

- «وأنتِ تريدينه كي تَحكُمي العالم. دائمًا تُفَضِّلين المال في أيِّ مَوقِف».

وتدفع كتفيها إلى الأمام كأنها تلفُّ جسدها كله حول الكتاب، وتَنزِل ببصرها إليه قائلةً:

- «أنا الوحيدة التي تُقَدِّره حَقَّ قَدره».

وأقولُ لها أن تُصغي لهيلين.

وتقول مونا:

- «إنه واحد من كُتب الظِّلال، إنه «كتاب الظِّلال» الحقيقي، ومكانه

مع ساحرةٍ حقيقيَّة. دعاني أُترجِمه فقط، وسأُخبِركما بما أجده. هذا وعد».

أطوي ورقة أغنيَة المَهد وأضعها في جيبي الخلفي، وأدنو خطوةً من مونا، وأنظر لهيلين فتَهِزُّ رأسها إيجابًا.

ما زالت مونا تدير ظهرها لنا، وتقول:

- «سأعيد پاتريك، سأعيد جميع الأطفال الآخَرين».

وأُطوِّقها من خصرها من الخلف وأرفعها، وتَصرُخ مونا وتَركُل قصبتيَّ ساقيَّ بكعبيها وتتلوَّى من جانِبٍ إلى جانِبٍ وهي لا تزال مُتَمَسِّكَةً بالكتاب، وأدُسُّ يديَّ من تحت إبطيها حتى ألمسه، ألمس الجِلد البَشَرِيَّ الميت، ألمس الحلمة الميتة، وألمس حلمة مونا، وتَصرُخ مونا وتَنغَرِس أظفارها في يديَّ وفي الجِلد الرقيق بين أصابعي. تَغرِس أصابعها أكثر وأكثر في جِلد ظَهر يدي إلى أن أقبِض على معصميها وألوي ذراعيها إلى أعلى بعيدًا عن جانِبيها. يَسقُط الكتاب وتَركُله قدماها بعيدًا، ولا يُلاحِظنا أحد في المَوقَف المُظلِم مع الصرخات القادمة من بعيد.

هذه هي حياتي الآن... هذه هي الابنة التي كنتُ أعرف أني سأفقِدها يومًا ما... بسبب صاحبها، بسبب درجاتها في المدرسة، بسبب المُخدِّرات... لا فارِق، فدائمًا ما يَحدُث هذا الشَّرخ، ودائمًا ما يَندلِع هذا الصراع على القوَّة. مهما حسبت نفسك أبًا عظيمًا، سيأتي يوم تجد نفسك فيه هنا مكاني.

ثمَّة أشياء يُمكنك أن تفعلها بأحبَّائك أسوأ من أن تَقتُلهم.

يَسقُط الكتاب على الأرض ليتناثَر الحصى والتُّراب.

وأصرخُ في هيلين أن تأخذه.

أتراجعُ وهيلين في اللحظة التي تتحرَّر فيها مونا. تحمل هيلين الكتاب بينما أنظرُ حولي لأرى إن كان أحدهم قد لاحظَنا.

يداها قبضتان، وتميل مونا نحونا وشَعرها الأسود والأحمر يتدلَّى مبعثرًا على وجهها، سلاسلها وحظّاظاتها الفِضِّيَّة مُتشابِكة مع شَعرها، فستانها البرتقالي ملويٌّ بشِدَّة حول جسدها وقد تمزَّقت فتحة العُنق من ناحيةٍ لتكشف عن كتفها. كان صندلها قد طار من قدميها من فرط الركل، فتقف الآن حافية القدمين. تعكس عيناها أضواء الكرنڤال من وراء عُقَدِ الشَّعر الداكنة، والصرخات الآتية من بعيد كأنها صدى صرخاتها الذي يتردَّد ويتردَّد بلا نهاية.

تبدو شِرِّيرة... ساحِرة شِرِّيرة... مُشعوِذة... مُشَوَّهة... إنها لم تَعُد ابنتي... الآن هي شخص قد لا أفهمه أبدًا، شخص غريب عني.

ومن بين أسنانها تقول:

- «أستطيع أن أقتُلكما، أستطيع أن أفعلها».

وأُمَشِّطُ شَعري بأصابعي، وأعَدِّلُ ربطة عُنقي وأدُسُّ قميصي في السروال، وأعُدُّ 1... أعُدُّ 2... أعُدُّ 3... وأقولُ لها: لا، لكننا نستطيع أن نَقتُلها. أقولُ لها إنها مدينة لمسز بويل باعتذار.

هذا ما يعدُّونه الحُب الصَّارم هذه الأيام...

تقف هيلين حاملةً الكتاب بيديها المكسوَّتين بزوج القُفَّازات الأبيض وتَرمُق مونا.

ولا تقول مونا شيئًا...

يَبذُل كلٌّ من دخان ماكينات الديزل والصرخات وموسيقى الروك والأضواء المُلوَّنة قصارى جهده لمَلء الصَّمت، ولا تَنبِس النجوم في سماء الليل ببنت شفة.

وتَلتَفِت هيلين نحوي وتقول:

- «لا بأس. هيا بنا».

وتُخرِج مفاتيح سيَّارتها وتُناوِلها لي.

أستديرُ وهيلين ونمشي، وعندما أنظُر ورائي أجدُ مونا تضحك وقد وضعت وجهها في يديها.

تضحك!

وتَصمُت ضحكات مونا عندما ترى أني أراها، لكن ابتسامتها لا تتلاشى.

وأقولُ لها أن تمسح تلك الابتسامة السخيفة عن وجهها، وأسألها: بحقِّ الجحيم، ما الذي يدفعك إلى الابتسام؟

الفصل الخامس والثلاثون

أقودُ السيَّارة، وتجلس مونا على الأريكة الخلفيَّة عاقِدةً ذراعيها على صدرها، بينما تجلس هيلين على المقعد المُجاوِر لي و«الجريموار» مفتوح في حِجرها، ترفع كلَّ صفحةٍ على زجاج النافذة كي ترى نور الشمس عَبرها. على المقعد الأمامي بيننا يبدأ هاتفها المحمول في الرنين.

تقول هيلين إنها لا تزال تَحتَفِظ في منزلها بالمَراجِع التي وجدتها في بيت بازل فرانكي، التي تتضمَّن قواميس للتَّرجمة من اليونانيَّة واللاتينيَّة والسنسكريتيَّة. هناك كُتب عن الكتابة المسماريَّة القديمة وكلِّ اللُّغات الميتة. مؤكَّد أنها ستجد شيئًا في تلك الكُتب يُساعِدها على ترجمة «الجريموار». سوف تَستَخدِم تعويذة الاجتباء كمفتاحٍ للشَّفرة على طريقة حجر رشيد، ما قد يُمَكِّنها من ترجمة التعاويذ كلها.

ويرنُّ هاتف هيلين.

أرى مونا في المرآة تَدُسَّ إصبعها في أنفها ثم تُدَحرِج قِطعة المخاط الجامدة على ساق سروالها الجينز إلى أن تصير كُتلة سوداء صُلبة، ثم

ترفع عينيها المُسْتَقِرَّتَيْن في حِجرها ببطءٍ شديد حتى تُثَبِّتهما على مؤخِّرة رأس هيلين.

ويرنُّ هاتف هيلين.

وتَقذِف مونا بإصبعها كتلة المخاط لتَستَقِرَّ في شَعر هيلين الوردي.

ويرنُّ هاتف هيلين، ولا ترفع عينيها عن «الجريموار» وهي تدفع الهاتف عبر المقعد الأمامي حتى تضغطه في فخذي قائلةً:

- «قُل لهم إنني مشغولة».

قد يكون المُتَّصل وزارة الخارجيَّة بتكليفها التالي، وقد يكون حكومة دولةٍ أخرى تطلب منها تنفيذ عمليَّة سِرِّيَّة جديدة... زعيم تجارة مُخدِّرات ينبغي التخلُّص منه، أو مُجرِم مُحتَرِف حان وقت تقاعُده.

في حِجرها تفتح مونا «كتاب المرايا» الأخضر المُطَرَّز، دفتر السِّحر الذي تكتب فيه، وتبدأ في الخربشة فيه بأقلامها المُلوَّنة.

على الهاتف تُجيبني امرأة.

أقولُ لهيلين إنها واحدة من عملائها، وأضيفُ واضعًا الهاتف على صدري أنها تقول إن رأسًا مقطوعًا تدحرج على سلالم منزلها الجديد ليلة أمس.

ولا ترفع هيلين عينيها عن «الجريموار» وهي تجيب:

- «لا بُدَّ أنه المنزل ذو الغُرف الخمس المبني على الطِّراز الكولونيالي الهولندي في فيني درايف. هل اختفى الرأس قبل أن يَحُطَّ في البهو؟».

وأسألُ المرأة، ثم أقولُ لهيلين أن نعم، لقد اختفى الرأس في منتصَف السلالم تقريبًا. كان رأسًا داميًا بشعًا يبتسم ابتسامة خبيثة.

وتقول المرأة على الهاتف شيئًا أنقله إلى هيلين قائلًا إن الأسنان كانت مكسورة أيضًا. المرأة مستاءة جدًّا.

تُخَربِش مونا بقُوَّةٍ تجعل أقلامها المُلوَّنة تُصدِر صريرًا.

ولا ترفع هيلين عينيها عن «الجريموار» وهي تجيب:

- «لقد اختفى الرأس. انتهت المشكلة».

وتقول المرأة على الهاتف إن المشهد نفسه يتكرَّر كلَّ ليلة.

- «دعها تتَّصل بشركةٍ لإبادة الحشرات».

وترفع صفحة أخرى أمام نور الشمس وتقول:

- «قُل لها إنني غير موجودة».

الصورة التي ترسمها مونا في «كتاب المرايا» عبارة عن رجل وامرأة يَضرِبهما البَرق، ثم تدوسهما دبَّابة، ثم ينزفان حتى الموت من أعينهما وقد خرجت مادَّة الدماغ من آذانهما. ترتدي المرأة بذلة مُفَصَّلة والكثير من الجواهر، والرجل ربطة عُنق زرقاء.

وأعُدُّ 1... أعُدُّ 2... أعُدُّ 3...

وتأخذ مونا صورة الرجل والمرأة وتُمَزِّقها إلى شرائط رفيعة.

ويرنُّ الهاتف مرَّة أخرى، وأجيب.

ثم أضعُ الهاتف على صدري قائلًا لهيلين إنه رجل ما يقول إن الدِّماء تنزل من دُش حمَّامه.

ولا تُفارِق عينا هيلين «الجريموار» المرفوع إلى النافذة وهي تقول:

- «المنزل ذو غُرف النوم السِّت في پندر كورت».

وتقول مونا مُصحِّحةً:

- «پندر پلايس. المنزل في پندر كورت فيه اليد المقطوعة التي تزحف خارِجةً من ماكينة فرم النفايات».

وتفتح نافذة السيَّارة قليلًا وتبدأ في إلقاء شرائط الرجل والمرأة واحدًا تلو الآخَر.

تقول هيلين:

- «أنتِ تُفَكِّرين في اليد المقطوعة في پالم كورنرز. پندر پلايس فيه شبح الدوبرمان الذي يَعُضُّ».

أطلبُ من الرجل على الهاتف أن ينتظر، وأضغطُ زِرَّ الانتظار الأحمر.

وترفع مونا عينيها إلى أعلى بضيقٍ وتقول:

- «شبح الكلب في المنزل الإسپاني الواقِع على ناصية ميلستون بوليڤارد».

وتبدأ في كتابة شيءٍ بقلمها الأحمر الجاف، تَكتُب لتَخرُج الكلمات بشكلٍ حلزونيٍّ من مركز الصفحة.

وأَعُدُّ 9... أعُدُّ 10... أعُدُّ 11...

تُضَيِّق هيلين عينيها في مُحاوَلةٍ لقراءة السطور الباهتة في الصفحة التي فردَتها على النافذة، وتقول:

- «قُل له إنني تقاعَدتُ من العمل في العقارات».

وتَمُرُّ بطرف إصبعها على كلِّ كلمةٍ باهتةٍ وتقول:

- «سُكَّان المنزل في پندر كورت لديهم أبناء مُراهِقون، أليس كذلك؟».

أسألُ، فيُجيبني الرجل على الهاتف بالإيجاب، وتَلتَفِت هيلين لتَنظُر إلى مونا في المقعد الخلفي إذ تُلقِي كُتلة مخاطٍ أخرى على شَعرها، وتقول:

- «قُل له إن المغطس المليء بالدَّم هو أقلُّ مشاكله».

أسألها: ماذا لو واصلنا القيادة؟ يُمكننا زيارة بضع مكتباتٍ أخرى، ورؤية المزيد من المَعالِم، نذهب إلى كرنفالٍ آخَر مثلًا، أو نزور أثرًا وطنيًّا. يُمكننا أن نضحك ونسترخي قليلًا. لقد كنا عائلةً من قبل، ويُمكننا أن نعود عائلةً من جديد. إننا ما زلنا نُحب بعضنا بعضًا. أتكلَّم مجازًا، لكن ما رأيكما؟

تميل مونا إلى الأمام وتَنتَزِع بضع شُعيراتٍ من رأسي، ثم تميل وتَنتَزِع بضع شُعيراتٍ ورديَّةٍ من رأس هيلين.

وتتملَّص هيلين لتنحني فوق «الجريموار» قائلةً:

- «مونا، هذا مؤلم!».

أقولُ: في عائلتي، كنتُ ووالداي نُسَوِّي أيَّ خلافاتٍ بمباراةٍ مثيرة من لعبة الپارشيسي.

تطوي مونا الشَّعر البُنِّي والوردي داخل الورقة ذات الكتابة الحلزونيَّة، وأقولُ لها إنني لا أريدها أن ترتكب أخطائي نفسها. أنظرُ إليها في المرآة وأقولُ لها إنني قاطَعتُ والديَّ وأنا في سِنِّها تقريبًا، ولم أتكلَّم معهما منذ نحو عشرين عامًا.

وتَغرِس مونا دبُّوسًا في الورقة التي تَضُمُّ شَعرينا.

ويرنُّ هاتف هيلين ثانيةً، وهذه المرَّة يتكلَّم رجل، رجل شاب.

إنه أويستر، وقبل أن أغلِق الخَطَّ يقول:

- «أهلًا يا بابا. لا بُدَّ أن تقرأ صُحف الغد. لقد جهَّزتُ لك مفاجأة صغيرة».

يقول:

- «والآن دعني أُكلِّم تُوتَة».

وأقولُ إن اسمها مونا... مونا سابات.

وتقول هيلين وهي لا تزال ترفع صفحة الكتاب على النافذة مُحاوِلةً قراءة الكتابة السِّرِّيَّة:

- «اسمها مونا ستاينر في الحقيقة».

وتقول مونا:

- «أهذا أويستر؟».

وتَمُدُّ يديها من حول رأسي مُحاوِلةً اختطاف الهاتف من يدي وتَصرُخ:

- «دعني أُكلِمه! أويستر! أويستر! لقد عثرا على «الجريموار»!».

وأحاوِلُ توجيه السيَّارة التي تنحرف في كلِّ اتِّجاهٍ على الطريق السريع، وأقطعُ الاتِّصال.

الفصل السادس والثلاثون

بدلًا من البُقعة على سقف شقَّتي، هناك رُقعة كبيرة من اللون الأبيض. على بابي هناك رسالة من صاحِب العقار مُثبَّتة بدَبُّوس، وبدلًا من الضوضاء يسود الهدوء التام. السجَّادة مكسوَّة بقِطع البلاستيك الصغيرة، أبواب ودعائم جدرانٍ مكسورة. يُمكنك أن تسمع أزيز الشُّعيرات داخِل كلِّ مصباح، ويُمكنك أن تسمع تكَّات ساعتي.

فسد الحليب في ثلَّاجتي. كلُّ هذا الألم والمعاناة بلا طائِل. الجُبن انتفخ وانتشر فيه العَفَن الأزرق، واكتسب الهامبرجر داخِل غلافه البلاستيكي اللون الرمادي. البَيض يبدو سليمًا، لكنه ليس كذلك ولا يُمكن أن يكون بَعد كلِّ هذه المُدَّة. كلُّ المجهود والبؤس المبذولَيْن من أجل إنتاج هذا الطعام مصيرهما القمامة، مُساهَمات كلِّ تلك الأبقار والعجول لا فائدة منها.

تقول رسالة صاحِب العقار إن الرُّقعة البيضاء طبقة طلاءٍ أوليَّة، وعندما يَكُفُّ السَّقف عن التسريب سيدهنونه كله. تم ضبط الحرارة على أعلى درجةٍ كي تجف الطَّبقة الأوليَّة بسرعة. نِصف الماء في قاع المرحاض تبخَّر، والنباتات جافَّة كالورق. شبكة التصريف تحت حوض

المطبخ نِصف فارغة وقد بدأ غاز البالُوعات يتسرَّب منها إلى الداخِل من جديد. حياتي القديمة، كلُّ ما أعدُّه بيتي، تفوح منها رائحة كالخراء.

الغرض من طبقة الطلاء الأوليَّة أن تمنع تسرُّب ما تبقَّى من جاري في الشقَّة التي تعلوني عبر السَّقف.

في العالم الواسع لا تزال هناك تسع وثلاثون نُسخة من كتاب القصائد مجهولة المكان. إنها في المكتبات العامَّة أو مَتاجِر الكُتب أو البيوت، نحو بضع دستات.

هيلين في مكتبها اليوم. تركتها هناك وقد جلسَت إلى مكتبها والقواميس مفتوحة حولها، قواميس يونانيَّة ولاتينيَّة وسنسكريتيَّة وقواميس ترجمة. معها قارورة صغيرة من اليود تمسح منها بقِطعة قُطنٍ على الحِبر السِّري لتُحيل الكتابة الخفيَّة إلى اللون الأحمر.

تَستَخدِم هيلين القُطن لتمسح عصير الكرنب الأحمر على كلماتٍ خفيَّةٍ أخرى لتُحيل لونها إلى الأرجواني.

إلى جوار القوارير والقواميس والقُطن ثمَّة مصباح يدوي يمتدُّ سِلك منه إلى مَخرَج الكهرباء في الجِدار.

تقول هيلين:

- «فلوروسكوب. إنه مُستَأجَر».

وتضغط زِرًّا في جانِب المصباح وترفعه فوق «الجريموار» المفتوح وتَقلِب الصفحات إلى أن تأتي صفحة مليئة بكلماتٍ ورديَّةٍ مضيئة.

- «هذه التعويذة مكتوبة بالمَنِيِّ».

خَطُّ اليد يختلف من تعويذةٍ إلى أخرى.

لم تَنطِق مونا، الجالسة الآن في المكتب الخارجي، كلمةً واحدةً منذ الكرنڤال.

يُرَدِّد الماسح الرَّاداري كودًا بعد آخَر.

وتُنادي هيلين على مونا قائلةً:

- «ما المُرادِف المُناسِب للشيطان؟».

وتقول مونا:

- «هيلين هوڤر بويل!».

تَنظُر هيلين إليَّ وتقول:

- «هل رأيت صحيفة اليوم؟».

وتدفع بعض الكُتب إلى الجانِب لترفع الصحيفة من تحتها وتدور بعينيها في صفحاتها، ثم أرى الإعلان الذي يحتلُّ صفحة كاملة، ويقول عنوانه: «**الرجاء الانتباه... هل رأيتم هذا الرجل؟**».

معظم الصفحة عبارة عن صورةٍ قديمة لي، صورة زفافي التي أبتسمُ فيها مع چينا منذ أكثر من عشرين عامًا. لا بُدَّ أنها من إعلان زفافنا الذي نُشِر ذات يوم أحدٍ منذ ردحٍ من الزمن... إعلان إخلاصنا وحُبِّنا لبعضنا بعضًا على الملأ... عهودنا ونذورنا... قُوَّة الكلمات القديمة... حتى يُفَرِّقنا الموت.

يقول متن الإعلان: «تبحث الشُّرطة حاليًّا عن هذا الرجل لاستجوابه بخصوص علاقته بعددٍ كبير من حالات الوفاة التي وقعت مؤخَّرًا. إنه في الأربعين من عُمره، طوله خمسة أقدام وست بوصات، يزن مئة وثمانين رطلًا، ولديه شَعر بُنِّي وعينان خضراوان. إنه غير مُسَلَّح، لكن يُعَدُّ في غاية الخطورة».

الرجل الذي في الصورة شابٌّ بريء... إنه ليس أنا... والمرأة ميتة... كلاهما شبح.

مكتوب تحت الصورة: «ينتحل حاليًّا اسم كارل ستريتور، وعادةً ما يرتدي ربطة عُنق زرقاء».

وتحت هذا: «إذا كنتم تعرفون مكانه، فيُرجى الاتِّصال بـ911 وإبلاغ الشُّرطة».

لا أدري إن كان أويستر هو صاحِب الإعلان أم الشُّرطة.

تَرمُق هيلين الصورة وأرمُقها، وتقول:

- «زوجتك كانت جميلة جدًّا».

وأقولُ: نعم، كانت كذلك.

أصابع هيلين وبذلتها الصفراء ومكتبها العتيق المُزَخرَف المنقوش كلها مُلَطَّخة بالأحمر والأرجواني من جرَّاء اليود وعصارة الكرنب، وتفوح منها رائحة الأمونيا والخَل. تَحمِل الفلوروسكوب فوق الكتاب وتقرأ تعويذة المَنِيِّ العتيقة.

تقول:

- «وجدتُ تعويذة طيران هنا، وقد تكون واحدة من هذه تعويذة حُب».

تتصفَّح الكتاب، وفي صفحةٍ أشمُّ رائحة الكرنب كغازات البطن وفي أخرى رائحة الأمونيا كالبول.

تقول هيلين:

- «أغنيَّة المَهد، ها هي هنا. إنها أغنيَّة عتيقة من قبائل الزولو».

تتكلَّم مونا على الهاتف في المكتب الخارجي.

تضع هيلين يدها على ذراعي وتدفعني خطوةً إلى الوراء بعيدًا عن مكتبها قائلةً:

- «شاهِد هذا».

وتقف في مكانها بعينين مغلقتيْن وقد ضغطت يديها على صُدغيها.

وأسأل: ما الذي يُفترَض أن يَحدُث؟

وتضع مونا سمَّاعة الهاتف في المكتب الخارجي.

ويتحرَّك «الجريموار» الموضوع على مكتب هيلين. ترتفع زاوية منه إلى أعلى، ثم الزاوية المواجِهة، وتنغلق صفحاته من تلقاء ذاتها ثم تنفتح مرَّة أخرى، تنفتح وتنغلق أسرع وأسرع، إلى أن يرتفع عن المكتب. عيناها مغلقتان، وتُردِّد شفتا هيلين كلماتٍ صامتة، ويهتزُّ الكتاب وتُرَفرِف صفحاته وهو يحوم كطائر زرزورٍ داكِنٍ لامع قُرب السَّقف.

ويُصدِر الماسح الرَّاداري أصوات طقطقةٍ ويقول: «الوحدة ١٦، يُرجى التوجُّه إلى 5680 ويدن آفنيو، شمال شرق المدينة، مكتب هيلين هوفر بويل للعقارات، والقبض على رجلٍ بالِغ للاستجواب».

ويَصدِم «الجريموار» المكتب مُحدِثًا صوتًا عاليًا، ويتناثر اليود والأمونيا والخَل وعصير الكرنب في كلِّ مكان، وتَنزلِق الأوراق والكُتب على الأرض.

وتصرخ هيلين:

- «مونا!».

وأقولُ: لا تقتليها، أرجوكِ لا تقتليها.

وتقبض هيلين على يدي بيدها المُتَّسِخَة وتقول:

- «يجب أن تَخرُج من هنا. هل تَذكُر أين التقينا أول مرَّة؟».

وتهمس في أذني:

- «قابِلني هناك الليلة».

في شقَّتي امتلأ شريط آلة الرَّدِّ على المُكالَمات عن آخِره، والفواتير مُكَدَّسة في صندوق البريد لدرجةٍ تجعلني أضطر لأن أُخرِجها حَفرًا بسِكِّين الزُّبدة. مكتبة الرمحي أحمد

على طاولة المطبخ هناك مركز تسوُّق نِصف مُكتَمِل. يُمكنك أن تعرف بسهولةٍ أنه مركز تسوُّق دون الصورة على العُلبة، لأن المرائب مُشيَّدة والجدران في مكانها والنوافذ والأبواب في جانِبٍ واحد والزجاج مُرَكَّب بالفعل. ما زالت ألواح السَّطح ووحدات التسخين والتبريد الكبيرة في العُلبة، والخلفيَّة في كيسٍ بلاستيكي.

لا يَبلُغني أيُّ صوتٍ عبر جدران الشَّقَّة... الصَّمت مُطبِق.

بعد قضاء أسابيعِ على الطريق مع هيلين ومونا نسيتُ كم أن الصَّمت من ذهبٍ حقًّا.

أُشغِّل التليفزيون لأجده يَعرِض فيلمًا كوميديًّا بالأبيض والأسود عن رجلٍ يعود من الموت على هيئة بَغل. المُفتَرَض أن يُعلِّم شخصًا ما شيئًا ما كي يُنقِذ روحه. روح رجلٍ تحتلُّ جسد بَغل.

يشرع جهاز الاستدعاء في الرنين من جديد. رجال الشُّرطة، المُنقِذون، يَحُثُّونني على الخلاص.

سواء أكانت الشُّرطة أو مدير البناية، فلا بُدَّ أن هذا المكان تحت المُراقَبَة.

في كلِّ مكانٍ على الأرض بُعثِرَت شظايا مصنع أخشابٍ مسحوقة بالقدم، وأطلال محطَّة قطارٍ مُهَدَّمَة مُلوَّثة بقطرات الدَّم الجافَّة، وحول تلك بناية للمكاتب الطِّبِّيَّة وعيادات الأسنان تحوَّلت إلى مليون قِطعة، وحظيرة طائرات مسحوقة، ومرسى عبَّارات مُدَمَّر. الأطلال الدامية الباقية مما عملتُ بكلِّ جهدي على بنائه، مُتَناثِرة تُطَقطِق إذ أدوسها بحذائي. إنها ما تبقَّى من حياتي الطبيعيَّة.

أفتحُ الراديو ذا الساعة الموضوع إلى جوار الفِراش، وأجلسُ بقدمين مُتقاطِعَتَين على الأرض وأمُدُّ يدي لأكنس نحوي بقايا محطَّات الوقود والمدافن وأكشاك الهامبرجر والأديرة الإسپانيَّة. أُكوِّم القِطع المُغطَّاة بالدَّم والتُّراب بينما يَبُثُّ الراديو موسيقى السوينج، يَبُثُّ موسيقى الأغاني الشَّعبيَّة السِّلْتِيَّة والجانجستا راپ وموسيقى السيتار الهنديَّة، وتتكوَّم أمامي أجزاء من مصَحَّاتٍ وستوديوهات أفلام ومَصاعِد حبوب ومصافي نِفط، ويَبُثُّ الراديو موسيقى الإلكترونِك ترانس والرِّجي والڤالس، وتتكوَّم أمامي أجزاء من كاتدرائيَّاتٍ وسجونٍ وثُكناتٍ عسكريَّة.

بالفرشاة الصغيرة والصَّمغ ألصقُ معًا المَداخِن والمَناوِر والقباب والمَآذِن. القنوات الرومانسكيَّة تلتقي بشُقَق الآرت دِكو بأوكار تعاطي

الأفيون بصالونات الغرب الضَّاري بالقطارات الأفعوانيَّة بمكتبات البلدات الصغيرة بالبيوت بقاعات المُحاضَرات.

بعد قضاء أسابيع على الطريق مع هيلين ومونا، نسيتُ أن الكمال شديد الأهمِّيَّة.

على الكومپيوتر ثمَّة مُسَوَّدة من تحقيق موت الرُّضَّع في المَهد، الفصل الأخير. إنه التحقيق الذي يخشى كلُّ الآباء والأجداد قراءته، ويخشون ألَّا يقرأوه في الآن نفسه. ليست هناك معلومات جديدة حقًّا، لكن الفِكرة كانت أن نعرض لمحةً عن خمس عائلاتٍ فقدت كلٌّ واحدةٍ منها طِفلًا رضيعًا، ونعرض كيف يتعامل الناس مع موقفٍ كهذا، وكيف يُواصِلون حياتهم بعده.

كلُّ ما نعرفه فعلًا عن موت الرُّضَّع المفاجئ أنه بلا نمطٍ معيَّن، فمن الممكن أن يموت الرَّضيع وهو بين ذراعي أمه.

وما زال التحقيق غير مكتمل...

أفضل وسيلة لتبديد حياتك هي تدوين المُلاحَظات. أفضل وسيلة لتفادي العيش هي أن تكتفي بالمُراقَبة. ابحث عن التفاصيل، انقلها، لا تُشارِك، دَع الأخ الأكبر يَرقُص ويُغنِّي نيابةً عنك. كُن مُراسِلًا، كُن شاهِدًا جيِّدًا، عضوًا مُمتنًّا من الجمهور.

على الراديو تلتقي موسيقى الڤالس بالپَنك بالروك بالراپ بالأناشيد الچورچيَّة بالمقطوعات الكلاسيكيَّة.

على التليفزيون يَعرِض أحدهم على المُشاهِدين طريقة سَلْق السلمون، ويَعرِض آخَر سبب غرق البارِجة الألمانيَّة بسمارك.

ألصق شبابيك بارزة وخزائن بنوكٍ وقناطر ودعاماتٍ وسلالم ومَناوِر كنائس وأرضيَّاتٍ من الفُسَيْفَسَاء وجدرانًا واقية من الفولاذ وجمالونات نِصف مدعَّمةٍ بالخشب وأعمدة إيونيَّة ناتئة.

على الراديو موسيقى طبولٍ إفريقيَّةٍ وأغانٍ فرنسيَّة عاطفيَّة مُختَلِطة معًا، وعلى الأرض أمامي معابد صينيَّة مُتعَدِّدة الطوابق ومَزارع مكسيكيَّة وبيوت من كيپ كود مُختَلِطة معًا. على التليفزيون يَضرِب لاعب الجولف الكرة بالمضرب، وتفوز امرأة بعشرة آلاف دولار لأنها تحفظ السَّطر الأول من خطاب جتيسبرج لإبراهام لينكلن.

أول منزلٍ جمَّعته على الإطلاق كان يتألَّف من أربعة طوابِق وسقفٍ ذي منحدَرين وسُلَّمين، الأمامي للعائلة والخلفي للخدم. كانت فيه ثُرَيَّات من المعدن والزجاج ثُبِّتت بها مصابيح دقيقة الحجم. كان خشب الأرضيَّة في غُرفة الطعام من الپاركيه، وقد استغرق مني أسابيع من التقطيع ولَصْق كلِّ قِطعة، وكان هناك سقف في غُرفة الموسيقى كانت زوجتي چينا تسهر ليلةً بعد ليلةٍ لترسم عليه سُحُبًا وملائكةً. كانت هناك مدفأة في غُرفة الطعام، وقد صنعتُ النار فيها من الزجاج المُقَطَّع المضاء بوميضٍ مُتَقَطِّعٍ من ورائه. جهَّزنا المائدة بأطباق صغيرة للغاية كانت چينا تسهر ليلةً بعد ليلةٍ لترسم ورودًا حول حافة كلٍّ منها. في تلك الليالي كان كلانا -في غياب التليفزيون والراديو، وكاترين نائمة- يشعر بأهمِّيَّة شديدة لما نفعله. كان هذان هُما الاثنين في صورة الزِّفاف. كان المنزل هديَّة لكاترين في عيد ميلادها الثاني، وكان ينبغي أن يكون كلُّ شيءٍ مثاليًّا، أن يكون إثباتًا لذكائنا وموهبتنا، تحفة فنِّيَّة تعيش بعد رحيلنا.

تمتزج رائحة البرتقال والجازولين في الصَّمغ برائحة الغائِط،

وبأصابعي، بالقِشرة التي صنعها الصَّمغ، تَلتَصِق نوافذ وشُرُفات ومُكَيِّفات هواء، وبقميصي تَلتَصِق أبواب دوَّارة وسلالم كهربائيَّة وأشجار، وأرفعُ صوت الراديو.

كلُّ هذا الحُب والمجهود والوقت بلا طائل... حياتي كلها بلا طائل... كلُّ ما أملتُ أن يعيش بعدي خرَّبته.

في ذلك اليوم عدتُ إلى البيت بعد الظُّهر ووجدتهما. تركتُ الطعام في الثلَّاجة وتركتُ الملابس في الخزانات. في ذلك اليوم عدتُ إلى البيت وأدركتُ ما اقترفتُ، وكان هذا أول منزلٍ أدهسه. إنه إرثٌ بلا وريث، الثُّرَيَّات والنار الزجاجيَّة وأطباق الطعام.

وتركتُ ورائي أثرًا من الأبواب والأرفُف والكراسي والنوافذ والدَّم طول الطريق إلى المطار.

وبعد ذلك يختفي أثري...

والآن أجلسُ هنا وقد نفدت القِطع، كلُّ الجدران والأسطُح والدرابزينات، وما تبقَّى أمامي مُلتَصِقًا ببعضه بعضًا على الأرض هو فوضى دامية، شيء غير مثاليٍّ أو مُكتَمِل، لكن هذا ما صنعته من حياتي. صوابًا كان أم خطأً، فإنه لا يتبع خُطَّة كُبرى عظيمة.

كلُّ ما يُمكنك فِعله هو الأمل في أن يكشف نمط ما عن نفسه ذات يوم، وأحيانًا لا يتبدَّى هذا النمط أبدًا.

ومع ذلك، في وجود خُطَّةٍ، فإنك تحصل فقط على أفضل ما يُمكنك تخيُّله، لكني لطالما أملتُ في شيءٍ أفضل من ذلك.

يُدَوِّي انفجار من الأبواق الفرنسيَّة من الراديو، وصوت أزرار جهاز

تلقين، وصوت رجلٍ يقول إن الشُّرطة عثرت على عارِضة أزياءٍ أخرى ميتة. يعرض التليفزيون صورتها الباسمة، وقد اعتقلت الشُّرطة صاحِبًا آخَر مُشتبَهًا به، ويُبيِّن التشريح آثار جماعٍ بَعد الوفاة.

يرنُّ جهاز الاستدعاء مرَّة أخرى برقم مُنقِذي الجديد.

بيد مُتوَرِّمَةٍ بالستائر والأبواب البلاستيكيَّة أرفع سمَّاعة الهاتف، وتطلب أصابعي التي علقت بها المزاريب والبالُوعات الرقم الذي لا أستطيع نسيانه أبدًا.

يجيب رجل، وأقولُ: أبي. أبي، هذا أنا.

أقولُ له أين أعيش، أقولُ له الاسم الذي أستخدمه الآن، أقولُ له أين أعمل، وأقولُ له إنني أعرفُ كيف يبدو الأمر مع وفاة كاترين وچينا، لكني لم أفعلها... لقد فررتُ فقط.

يقول إنه يعرف، يقول إنه رأى صورة الزِّفاف في صحيفة اليوم، ويعرف من أكون الآن.

قبل أسبوعين مررتُ ببيته ورأيته يعمل مع أمِّي في الحديقة. كنتُ قد ركنت السيَّارة في نهاية الشارع تحت شجرة الكرز غزيرة الأوراق، وقد غطَّت البتلات الورديَّة سيَّارتي... سيَّارة هيلين. أقولُ إنه وأمِّي يبدوان بخير.

أقولُ له إنه أشتاق إليه أيضًا، إنني أحبُّه أيضًا، وإنني بخير.

أقولُ إنني لا أعرفُ ماذا سأفعل، لكن كلَّ شيءٍ سيكون على ما يرام.

وبَعد ذلك أُصغي فقط، أنتظرُ أن يَكُفَّ عن البكاء حتى أقولُ له إنني آسف.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الفصل السابع والثلاثون

منزل جارتولر في نور القمر، المنزل المشيَّد على الطراز الچورچي، ويَضُمُّ ثمان غُرف نومٍ وسبعة حمَّامات وأربع مدافئ، وكله أبيض وخالٍ تمامًا، يتردَّد فيه صدى كلِّ خطوةٍ أخطوها على الأرضيَّة المصقولة. المنزل مُظلِم بلا أضواء، بارد بلا أثاثٍ أو بُسُط.

تقول هيلين وهي تُشَغِّل مفتاح ضوءٍ داخِل باب:

- «هنا... يُمكننا أن نفعلها ها هنا حيث لا يرانا أحد».

السَّقف شديد العُلُوِّ كأنه السماء، ويأتي الضوء من ثُرَيَّا بعيدة بحجم بالون طقسٍ من الكريستال، ليحيل النوافذ الطويلة إلى مرايا ويُلقي ظِلَّينا وراءنا على الأرض الخشبيَّة. نحن في قاعة الحفلات التي تَبلُغ مساحتها 1500 قدمٍ مُرَبَّع.

أنا بلا عمل، والشُّرطة تُطارِدني، وشقَّتي كريهة الرائحة، وصورتي تحتلُّ صفحة كاملة في الجريدة، وقضيتُ اليوم مُختَبِئًا بين الشُّجيرات المحيطة بالباب الأمامي أنتظر في الظلام، أنتظرُ هيلين هوڤر بويل لتُخبِرني بما تُفَكِّر فيه.

تضع هيلين «الجريموار» تحت ذراعها وقد تلطَّخت صفحاته بالأرجواني والوردي، وتفتحه بين يديها وتُريني تعويذة كُتِبَت ترجمتُها الإنجليزيَّة بقلمٍ أسود تحت النَّص الأجنبي الأصلي غير المفهوم.

وتقول هيلين:

- «رَدِّدها».

التعويذة؟

- «رَدِّدها بصوتٍ عالٍ».

وأسألها: وما الذي سيَحدُث؟

وتقول هيلين:

- «احترِس من الثُّرَيَّا فقط».

وتبدأ في قراءة كلماتٍ فاترةٍ مُنتَظِمَة كأنها تَعُدُّ أرقامًا... تقرأ وتبدأ حقيبتها المُدَلَّاة عند خصرها في الطَّفو في الهواء، وتَرتَفِع الحقيبة أكثر فأكثر إلى أن تصير مشدودة من حزامها الجِلديِّ المُعلَّق على كتف هيلين فقط، وتطفو فوق رأسها كأنها بالون أصفر.

تُواصِل هيلين القراءة، وتطفو ربطة عُنقي أمامي، ترتفع كأنها ثعبان أزرق يَخرُج من سَلَّةٍ وتَمَسُّ أنفي. تبدأ حاشية تنورة هيلين في الارتفاع، وتَقبِض عليها وتُثبِّتها بين ساقيها بيدٍ واحدة. تُواصِل القراءة ويَرقُص رباط حذائي في الهواء، بينما يرتفع قِرطا هيلين ولآلئها وزُمُرُّدها إلى أعلى على جانِبَي أذنيها، وتطفو قلادتها حول وجهها، ثم فوق رأسها كهالةٍ من اللؤلؤ.

وتَرفَع هيلين عينيها إليَّ وتُواصِل القراءة...

ويرتفع معطفي الرياضي من تحت ذراعيَّ، وتزداد هيلين طولًا حتى تُصبِح عيناها في مستوى عينيَّ. ثم أجدني أنظر إليها من أسفل، وتتدلَّى قدماها وقد مالت أصابعها إلى أسفل دون أن تلمس الأرض، ثم تَسقُط فردة حذاءٍ صفراء ثم الأخرى وتتدحرجان على الأرض.

ما زالت كلماتها فاترة مُنتَظِمَة، وتَنظُر هيلين إليَّ من أعلى وتبتسم.

ثم أجد أن واحدةً من قدميَّ لا تلمس الأرض، وترتخي قدمي الأخرى، وأركلُ كما تفعل وأنت في مياهٍ عميقة مُحاوِلًا العثور على قاع حوض السباحة. أُلقي يديَّ إلى الأمام مُحاوِلًا التَّمَسُّك بشيءٍ ما، وأركلُ وترتفع قدماي في الهواء من ورائي إلى أن أجد نفسي أنظر من أعلى إلى أرضيَّة قاعة الحفلات على بُعد أربعة، ستة، ثمانية أقدام تحتي. أبتعدُ وأبتعدُ عن ظِلِّي أكثر فأكثر، ويتضاءل ظِلِّي أكثر فأكثر.

وتقول هيلين:

- «كارل، احترس».

ويَلتَفُّ شيء بارد قابل للكَسر حولي، وتتدلَّى قِطَعٌ حادَّةٌ من شيءٍ فضفاضٍ حول عُنقي وتَشتَبِك بشَعري.

وتقول هيلين:

- «كارل، إنها الثُّرَيَّا. احترس».

مؤخِّرتي مدفونة في الزجاج والكريستال، وأشعرُ بنَفسي ملفوفًا بأذرُع أخطبوطٍ راجِفٍ رنَّان. إنها الأذرُع الزجاجيَّة الباردة والشموع الزائفة. ذراعاي مُتَشابِكتان في السلاسل الكريستاليَّة، وقدماي كذلك. الكريستالات المكسوَّة بالغبار والشِّباك والعناكب الميتة تحيط بي،

ومصباح ساخِن يحرق كُمِّي. أصابُ بالذُّعر وأتمسَّك بذراعٍ كريستاليَّة مُتَأرجِحَة، وتَهتَزُّ الكتلة الهائلة كلها وتَرتَجُّ وتَرِنُّ بموسيقى كالأجراس. تَسقُط قِطَعٌ لامعةٌ على الأرض تحتنا، وتتأرجَح الثُّريَّا بأكملها أمامًا وخلفًا وأنا مُعَلَّقٌ بها.

وتقول هيلين:

- «توقَّف. سوف تُدَمِّرها!».

ثم أجدها إلى جواري مُحَلِّقَةً وراء ستار الكريستال اللامع مباشرةً وشفتاها تتحرَّكان بكلماتٍ هادئة، وتزيح أظفار هيلين الورديَّة الكريستالات، ثم تبتسم لي قائلةً:

- «دعنا نُعَدِّل وضعك أولًا».

الكتاب ليس معها، وتزيح هيلين الكريستالات جانِبًا وتسبح مُقتَرِبةً.

أتمسَّكُ بذراع الثُّريَّا الزجاجي بيديَّ معًا، وتَهتَزُّ المليون قِطعةٍ بضوءٍ مُتَقَطِّعٍ مع كلِّ نبضة من قلبي.

تقول هيلين وهي تحلُّ رباط فردة حذائي:

- «تظاهَر بأنك تحت الماء».

وتخلع فردة الحذاء عن قدمي وتُسقِطها، وبيدها المُتَّسِخَة تحل رباط الفردة الأخرى، بينما تتدحرج الأولى على الأرض.

وتقول هيلين وهي تضع ذراعيها تحت ذراعيَّ:

- «هَلُمَّ، اخلع سترتك».

وتُسقِط سترتي المُشتَبِكة بالثُّريَّا، ثم ربطة عُنقي، وتخلع سترتها وتَترُكها

تَسقُط. تُنير الثُّرَيَّا من حولنا بمليون قوس قزحٍ من الكريستال، ونَشعُر بدفئها الذي يَبُثُّه مئة مصباحٍ صغير، ونَشُمُّ رائحة التُّراب الذي أحرقته الحرارة. كلُّ شيءٍ مُبهِرٌ يتحرَّك بلا نهاية، ونحن هنا في مركزه الأجوف.

نطفو في لا شيء سوى النور والحرارة...

تُرَدِّد هيلين كلماتها الصامتة، وأشعرُ بقلبي وقد امتلأ بالماء الدافئ.

جواهر هيلين كلها مُتَّقِدَةٌ بالنور الساطع، وكلُّ ما تسمعه هو رنين كريستالات الثُّرَيَّا من حولنا. ندور أقل فأقل، وأبدأ في التخلِّي عن الذراع الزجاجيَّة. مليون نجمٍ ساطعٍ حولنا، ولا بُدَّ أن ما أشعر به الآن هو ما تَشعُر به الآلهة.

وهذه -أيضًا- هي حياتي...

أقولُ إنني أحتاجُ مكانًا للاختباء من الشُّرطة، فما زلتُ أجهل خطوتي التالية.

وتَبسُط هيلين يدها قائلةً:

- «تعال».

وأُمسِك يد هيلين، ولا تُطلِق سَراحَ يدي، وأُقَبِّلُها، وإنه لشعورٌ حُلوٌ حقًّا.

وتقول هيلين:

- «يُمكنك البقاء هنا في الوقت الحالي».

وبظُفرها الوردي تَنقُر كرةً زجاجيَّةً مضيئةً مُشَكَّلَةً بحيث تُلقي الضوء في ألف اتِّجاه، وتقول:

- «من الآن فصاعدًا يُمكننا أن نفعل أيَّ شيء، أيَّ شيء».

نتبادل القُبُلات، وتُقَشِّر قدماها جوربيَّ عن قدميَّ. نتبادل القُبُلات، وأفتحُ أزرار بلوزتها من الخلف. جورباي وبلوزتها وقميصي وجوربها الشَّفَّاف الطويل. بعض الأشياء يَسقُط على الأرض، ويَعلَق بعضها بالثُّرَيَّا.

قدمي المُتَوَرِّمة المُلَوَّثة، رُكبتا هيلين المُشوَّهتان من جرَّاء هجوم أويستر... ما من سبيلٍ لإخفاء تلك الأشياء عن بعضنا بعضًا.

لقد مرَّت عشرون عامًا كاملةً، لكن ها أنذا، في مكانٍ لم أحلُم أن أدخُله مرَّة أخرى، وأقولُ إنني وقعتُ في الحُب.

وهيلين تتوهَّج بحرارةٍ ناعمةٍ في مركز الضياء، وتبتسم وتميل برأسها إلى الخلف قائلةً:

- «وهو المطلوب».

أنا واقعٌ في حُبِّها... واقعٌ في حُبِّ هيلين هوڤر بويل.

ويَلحَق سروالي وتنُّورتها بكومة الملابس على الأرض، وينضمَّا إلى قِطع الكريستال والحذائين وكلِّ شيءٍ آخَر سقط، ليستقرَّا في مكانٍ ما بالقُرب من «الجريموار» الرابض هناك.

الفصل الثامن والثلاثون

أجدُ الأبواب موصدةً في مكتب هيلين بويل للعقارات، وعندما أَطرُق تصيح مونا من الداخِل قائلةً إن المكان مُغلَق.

وأصيح إنني لستُ عميلًا.

تَجلِس مونا في الداخل أمام الكومبيوتر وتكتُب شيئًا على لوحة المفاتيح، وبين كلِّ ضربتين تدور مونا ببصرها بين المفاتيح والشَّاشة التي احتلَّت أعلاها بحروفٍ كبيرة كلمة CV.

يقول الماسح الرَّادري إن هناك كود 9–12.

تجري أصابع مونا على لوحة المفاتيح، وتقول:

- «لا أدري لِمَ لا أتَّهِمك بالتَّهَجُّم عليَّ».

ربما لأنها تكترِث لأمري أنا وهيلين.

وتقول مونا:

- «لا، ليس هذا هو السَّبب».

وربما تَرفُض فَضح الأمر لأنها ما زالت راغِبةً في امتلاك «الجريموار».

ولا تَرُدُّ مونا، بل تدور في مقعدها وتَرفَع جانِب بلوزتها الفلَّاحي، لأرى أن جِلد ضلوعها تحت ذراعيها أبيض انتشرت فيه البُقَع الأرجوانيَّة.

الحُب الصَّارم...

وتصيح هيلين عبر الباب من الداخل:

- «ما مُرادِف كلمة «مُعَذَّب»؟».

الكُتُب المفتوحة تَحتَلُّ سطح المكتب بالكامل، وتحت المكتب ترتدي فردة حذاءٍ ورديَّةٍ وأخرى صفراء.

الأريكة الحريريَّة الورديَّة، ومكتب مونا المنقوش طراز لويس الرابع عشر، والمنضدة ذات السيقان على شكل الأسود، كل ذلك مُغَطًّى بطبقةٍ من الغبار. الزهور بُنِّيَّةٌ ذابِلةٌ في مائها الأسود العَفِن.

يقول الماسح الرَّاداري إن هناك كود 3-11.

أقولُ إنني آسف، انتزاع الكتاب منها عُنوةً لم يكن تصرُّفًا سليمًا. أرفعُ بأصابعي طيَّتَيَّ ساقَيِّ سروالي لأريها النُّدوب الأرجوانيَّة في قصبتيِّ الساقين، فتقول:

- «هذه نُقرة وهذه نُقرة. أنا كنتُ أدافع عن نفسي».

أضرِبُ الأرض بقدمي مرَّتين وأقولُ إن الالتهاب أفضل بكثيرٍ الآن، وأقولُ: شكرًا.

وتصيح هيلين من الداخل:

- «مونا، ما مُرادِف «مذبوح»؟».

وتقول مونا:

- «يجب أن نتكلَّم بعد أن تَخرُج من عندها».

في المكتب الداخلي تَدُسُّ هيلين وجهها في كتابٍ مفتوح. إنه قاموس للُّغة العِبْرِيَّة، وإلى جواره دليل إلى اللاتينيَّة الكلاسيكيَّة، وتحته كتاب عن اللُّغة الأراميَّة، وإلى جواره صفحة غير مطويَّةٍ تحوي أغنية المَهد. سَلَّة المُهمَلات الموضوعة إلى جوار المكتب مُكتَظَّة بأكواب القهوة الورقيَّة الفارِغة.

أقولُ: أهلًا.

وتَرفَع هيلين عينيها. ثمَّة بُقعة قهوة على طيَّة صدر سترتها الخضراء. «الجريموار» مفتوحٌ إلى جوار قاموس العِبْرِيَّة، وتطرف هيلين بعينيها مرَّة، مرَّتين، ثلاثًا، وتقول:

- «مستر ستريتور».

أسألها إن كانت تَرغَب في تناوُل الغداء. لا يزال عليَّ مُواجَهَة چون ناش، وكنتُ آمل أن تُساعِدني بشيءٍ يمنحني التفوُّق عليه، تعويذة اختفاءٍ مثلًا، أو تعويذة للتحكُّم في العقول، أي شيءٍ لا يضطرُّني لقَتلِه.

أدورُ حولها لأرى ما تُترجِمه، فتضع هيلين في الحال ورقة فوق «الجريموار» قائلةً باقتضاب:

- «أنا مشغولةٌ قليلًا اليوم».

تنتظر والقلم في يدها، وباليد الأخرى تُغلِق القاموس وتقول:

- «ألا يَجدُر بك أن تتوارى عن الأنظار؟».

أسألها: ما رأيكِ في دخول السينما؟

وتقول:

- «ليس هذا الأسبوع».

أسألها: ما رأيكِ أن أبتاع لنا تذكرتين للحفلة السيمفونيَّة؟

وتُلَوِّح هيلين بيدها بيننا في الهواء وتقول:

- «افعل ما تريد».

وأقولُ: عظيم، إنه موعدنا الغرامي الأول إذن.

تضع هيلين القلم في شَعرها الوردي وراء أذنها، وتَفتَح كتابًا آخَر تضعه فوق قاموس العِبْرِيَّة، وتضع إصبعها على كلمةٍ في القاموس وتَرمُقني قائلةً:

- «لا تحسب أنني لا أحبك. أنا فقط مشغولة جدًّا جدًّا هذه الفترة».

من «الجريموار» المفتوح يَبرُز اسم من تحت الحافة. على هامش الصفحة كُتِبَ اسم اليوم، ضحيَّة اغتيال اليوم.

الاسم المكتوب هو كارل ستريتور...

وتُغلِق هيلين «الجريموار» وتقول:

- «أنت تفهم طبعًا».

يقول الماسح الرَّاداري إن هناك كود 7-2.

أسألها إن كانت ستأتي لرؤيتي الليلة في منزل جارتولر. أقفُ عِند مدخل مكتبها وأقولُ إنني لا أطيق الانتظار حتى أكون معها من جديد، إنني أحتاجها.

وتبتسم هيلين وتقول:

- «وهو المطلوب».

في المكتب الخارجي تقبض مونا على مِعصمي، وتَلتَقِط حقيبتها وتلف الحزام على كتفها صائحةً:

- «هيلين، سأخرُج لتناوُل الغداء».

وتقول لي وهي تَفتَح الباب لنَخرُج:

- «يجب أن نتكلَّم، لكن في الخارِج».

نَقِفُ في المرآب إلى جوار سيَّارتي، وتَهزُّ مونا رأسها قائلةً:

- «ليس لديك أدنى فكرة عما يَحدُث، أليس كذلك؟».

أنا واقعٌ في الحُب، فاقتليني.

- «في حُبِّ هيلين؟»، تقولها وتُطَرقِع بأصابعها في وجهي هاتفةً: «ما تَشعُر به ليس حُبًّا»، وتتنهَّد وتقول: «هل سمعت بتعاويذ الحُب؟».

لسببٍ ما يَخطُر ببالي ناش الذي يُضاجِع جُثث الفاتِنات.

- «لقد وجدت هيلين تعويذة توقعك في حبائلها. أنت واقع تحت سيطرتها لا في غرامها».

فعلًا؟

تُحدِّق مونا في عينيَّ وتقول:

- «متى كانت آخِر مرَّةٍ فكَّرت فيها في حرق الكتاب؟».

وتُشير إلى الأرض وتقول:

- «هذا الذي تُطلِق عليه اسم الحُب هو وسيلتها للتحكُّم فيك».

تَقتَرِب منا سيَّارة وتتوقَّف، وبداخِلها أويستر. ينفض الشَّعر عن عينيه

ويَجلِس وراء عجلة القيادة يُراقِبنا. الشَّعر الأشقر المُبَعثَر يتفجَّر في كلِّ اتِّجاه، بينما تسري على وجنتيه نُدبتان عميقتان... طلاء الحرب الأحمر الداكِن.

يرنُّ هاتفه المحمول، ويُجيبه أويستر قائلًا:

- «مكتب دولاند وديمز ودوم للمحاماة».

انتزاع القُوَّة...

لكني أحبُّ هيلين...

- «لا»، تقولها مونا وهي تَرمُق أويستر. «لقد خدَعَتك، وأنت تحسب فقط أنك تُحِبُّها».

لكنه حُب...

وتقول مونا:

- «إنني أعرفُ هيلين قبلك بكثير».

وتطوي ذراعيها وتختلس النَّظَر إلى ساعة يدها، وتقول:

- «هذا ليس حُبًّا، بل تعويذة حُلوة صغيرة تجعل منك عَبدًا لها».

الفصل التاسع والثلاثون

يقول خبراء الحضارة الإغريقيَّة القديمة إن الناس في تلك العصور لم يعتبروا أن أفكارهم تأتي منهم، بل عندما كانت فكرة ما تَخطُر لواحدٍ من الإغريق، فإنه كان يتصوَّرها أمرًا يأتيه من أحد أرباب أو ربَّات الأوليمپ. يقول أپولو لهذا الإغريقي أو ذاك أن يكون شُجاعًا، وتقول له أثينا أن يقع في الحُب.

والآن يسمع الناس إعلانًا عن شرائح البطاطس بالكِريمة الحامضة، فَهرَعون لشرائها، مع فارِق أنهم يُطلِقون على هذا اسم الإرادة الحُرَّة الآن.

بين التليفزيون والراديو وتعاويذ هيلين هوڤر بويل السحريَّة، لم أعُد أدري ما أريد، ولا أدري حتى إن كنتُ أُصَدِّق نَفسي.

في تلك الليلة تَأخُذنا هيلين بالسيَّارة إلى متجر الأنتيكات، المخزن الكبير الذي شَوَّهت فيه الكثير من قِطع الأثاث. المكان مُظلِم ومُغلَق، لكنها تضع يدها على القِفل وتُرَدِّد كلماتٍ سريعة، فيَنفَتِح الباب على مِصراعيه، ولا نسمع إنذار السَّرِقَة أو أيَّ شيءٍ آخَر.

نجول في أغوار متاهة الأثاث القديم والثُّرَيَّات المُظلِمة المفصولة عن الكهرباء المعلَّقة فوق رأسينا، ويسطع نور القمر من فتحات الإضاءة في السَّقف.

تقول هيلين:

- «أرأيتَ السهولة؟ نستطيع أن نفعل أيَّ شيء».

لا، أقول، بل هي من تستطيع أن تفعل أيَّ شيء.

وتقول هيلين:

- «أما زلت تُحبُّني؟».

إذا كانت هذه رغبتها... لا أدري... كما تقول...

ترفع هيلين عينيها إلى الثُّرَيَّات فوقنا، أقفاص الكريستال والمعادن المُمَوَّهَة بالذَّهب، وتقول:

- «هل لديك وقت لمرَّة على السريع؟».

وأقولُ إنني لا أملك الخيار حقًّا، أليس كذلك؟

أجهلُ الآن الفارِق بين ما أريده وما أنا مدفوعٌ إلى أن أريده.

أجهلُ الفارِق بين ما أرغب فيه فعلًا وما أنا موهومٌ بأني أريده.

ما أتكلَّم عنه هو الإرادة الحُرَّة. هل نملكها حقًّا، أم أن الله يُقَدِّر ويُقَرِّر كلَّ ما نفعله ونقوله ونريده؟ هل نملك إرادةً حُرَّةً، أم أن الإعلام وثقافتنا يتحكَّمان فينا، في رغباتنا وأفعالنا، منذ لحظة الميلاد؟ هل لديَّ إرادة حُرَّة، أم أن عقلي خاضِعٌ لسيطرة تعويذة هيلين؟

تقف هيلين أمام خزانة ملابس طراز ريچنسي مصنوعة من خشب الجوز وعلى بابها مرآة ضخمة مشطوفة الحافة، وتتحسَّس النقوش قائلةً:

- «أريدك أن تكون خالدًا معي».

تمامًا كهذا الأثاث، نتنقَّل من حياةٍ إلى أخرى ونرى كلَّ أحبابنا يُوارِيهم الثَّرى، نعيش كالطُّفيليَّات، نُصبِح أنا وهيلين مثل هذه الخزانة، صراصير حضارتنا.

على سطح المرآة يظهر أثر التشويه الذي سببته هيلين بخاتمها الماسي عندما كانت لا تزال تكره تلك الخُردة الخالدة.

تخيَّل الخلود، حيث تبدو زيجة استمرَّت خمسين عامًا كعلاقة ليلةٍ واحدةٍ لا أكثر. تخيَّل رؤية صيحات الموضة تَظهَر وتَندَثِر. تخيَّل عالمًا أكثر ازدحامًا ويأسًا مع مرور كلِّ قرن. تخيَّل تغيير دينك ووطنك ونظامك الغذائي ومهنتك مرارًا وتكرارًا إلى أن يَفقِد كلُّ هذا كلَّ معنى. تخيَّل أن تجوب العالم كله من أقصاه إلى أقصاه آلاف المرَّات إلى أن تَشعُر بالملل من كلِّ بوصةٍ منه. تخيَّل مشاعرك، كلَّ الحُبِّ والكراهية والانتصارات والهزائم تتكرَّر وتتكرَّر إلى أن تتحوَّل الحياة إلى مسلسلٍ تليفزيونيٍّ ميلودرامي لا ينتهي أبدًا، إلى أن لا يكون لمولد وموت الآخرين أيُّ وقعٍ على مشاعرك على الإطلاق، تمامًا كما تتخلَّص من زهورك الذَّابلة في القمامة.

أقولُ لهيلين: أعتقد أننا خالدان بالفعل.

وتقول:

- «لديَّ القُدرة».

وتَفتَح حقيبة يدها وتُخرِج ورقة مطويَّة تفتحها قائلةً:

- «ماذا تعرف عن النَّظَرِ في البِلَّوْرَات السحريَّة؟».

لا أعرف ما أعرفه... لا أعرف الحقيقي من الزائف... أشُكُّ أنني أعرفُ أيَّ شيءٍ أصلًا... أخبِريني أنتِ.

وتَسحَب هيلين وشاحًا حريريًّا من حول عُنقها وتمسح به الغبار عن سَطح المرآة الضخمة المُثبَّتة على باب خزانة الملابس طراز ريچنسي، المُزَخرَفة بنقوشٍ من خشب الزيتون والأشغال المعدنيَّة المطليَّة بالذَّهب طراز الإمبراطوريَّة الثانية، طِبقًا لما تقوله البطاقة المُلصَقَة بها.

وتقول هيلين:

- «يَمسَح بعض السَّحرة المرآة بالزَّيت، ثم يُرَدِّدون التعويذة، فيُمكنهم رؤية المستقبَل في المرآة».

المستقبَل... رائع... التشيتجراس... الكرمة الشَّرق آسيويَّة... سمك البياض النِّيلي...

حاليًّا لستُ متأكِّدًا من أنني أستطيع قراءة الحاضِر حتى.

تَرفَع هيلين الورقة وتقرأ، وبالصوت الفاتِر الثَّابت الذي ردَّدت به تعويذة الطيران تُلقي بضعة سطورٍ سريعة، ثم تَخفِض الورقة وتقول:

- «مرآتي يا مرآتي، أخبِرينا كيف سيكون مستقبَلنا إذا أحبَّ أحدنا الآخَر واستخدمنا قُوانا الجديدة».

قُواها هي الجديدة...

تقول هيلين:

- «عبارة «مرآتي يا مرآتي» من عندي».

وتضع يدها على يدي وتعتصِرها، لكني لا أعتصِر يدها بدوري، وتقول هيلين:

- «جرَّبتُ هذه التعويذة في المكتب في مرآة الماكياج الصغيرة، لكني كنتُ كمن يُشاهِد التليفزيون تحت المِجهَر».

يتشوَّش انعكاسنا في المرآة وتتموَّج الأشكال معًا ويَمتَزِج الانعكاس بلونٍ رماديٍّ مُحايِد.

وتقول هيلين:

- «أخبِرينا، أرينا مستقبَلنا معًا».

وتَظهَر أشكال في قلب اللون الرمادي، ويَسبَح الضوء والظِّلال معًا.

وتقول هيلين:

- «هل ترى؟ ها نحن أولاء. نحن شابَّان من جديد. باستطاعتي أن أفعل هذا. إنك تبدو كما كنت في صورتك في الجريدة، صورة الزِّفاف».

كلُّ شيءٍ مُشَوَّش ولا أدري ماذا أرى.

وتُشير هيلين بذقنها إلى المرآة قائلةً:

- «وانظر. إننا نَحكُم العالم. لقد أسَّسنا سُلالتنا الحاكِمة».

وفي ذِهني أسمعُ أويستر -عليه اللعنة هو وكلامه الذي لا يَنقَطِع عن الانفجار السُّكَّاني- يقول: «لكن حتى الكثير لا يُشبِع أحدًا أبدًا».

السُّلطة، المال، الجِنس، الحُب... هل من الممكن أن نَشبَع من تلك الأشياء، أم أن الاستحواذ على القليل منها سيجعلنا نشتهي المزيد؟

لا أستطيع تَبيُّن أيِّ شيءٍ في ضباب المستقبَل، ولا أرى شيئًا غير لقطاتٍ من الماضي... أرى مشاكل أكثر، أناسًا أكثر، تنوُّعًا بيئيًّا أقل، معاناة أكثر.

تقول:

- «أرانا معًا إلى الأبد».

فأقولُ: إن كانت هذه رغبتكِ.

وتقول هيلين:

- «ما الذي يعنيه هذا؟».

أقولُ: أيًّا كان ما تُريدين أن يعنيه.

إنها هي التي تَجذِب الخيوط التي تُحَرِّكني بها كدُمية الماريونِت، وهي التي تَبذُر مَكائدها في كلِّ مكان... تَستَعمِرني... تَحتَلُّني. وسائل الإعلام بأنواعها، الثقافة العامَّة، وكلُّ شيءٍ آخَر يضع بيضه تحت جِلدي... الأخ الأكبر يُفعِمني بالاشتهاء.

بأمانة، هل أريدُ حقًّا منزلًا كبيرًا وسيَّارةً سريعةً وألف حسناءٍ أُمارِس معهنَّ الجِنس؟ هل أريدُ هذه الأشياء حقًّا، أم أنني -فقط- مُدرَّبٌ على أن أريدها؟

هل تلك الأشياء أفضل حقًّا من الأشياء التي أملكها بالفعل، أم أنني مُدَرَّبٌ على الشعور الدائم بعدم الرِّضا عن ما لديَّ؟ هل أنا واقعٌ تحت تأثير تعويذةٍ تجعلني أرى أن كلَّ شيءٍ ليس جيِّدًا بما فيه الكفاية؟

تتمازَج درجات الرمادي وتدور في دوَّاماتٍ لتصنع ما يُمكن أن يكون أيَّ صورةٍ في الدُّنيا. أيًّا كان ما يُخَبِّئه المستقبَل، فإنه سينتهي بخيبة الأمل لا محالة.

وتُمسِك هيلين يدي الأخرى. الآن كلتا يديَّ في يديها، وتَجذِبني إليها قائلةً:

- «انظُر إليَّ. هل قالت مونا لك شيئًا؟».

وأقولُ: أنتِ تُحِبِّين نفسكِ فقط، وأنا لا أريد أن أُسْتَغَلَّ بعد الآن.

الثُّرَيَّات فوقنا، فِضَّة تلمع في نور القمر.

وتسأل هيلين:

- «ماذا قالت مونا؟».

وأعُدُّ 1... أعُدُّ 2... أعُدُّ 3...

وتقول هيلين:

- «لا تفعل هذا. أنا أُحِبُّك».

وتَعتَصِر يدي وتقول بإصرار:

- «لا تُغلِق الدُّنيا على نفسك وتَترُكني في الخارِج».

وأعُدُّ 4... أعُدُّ 5... أعُدُّ 6...

وتقول هيلين:

- «تتصرَّف الآن كزوجي بالضَّبط، وكلُّ ما أريده هو أن أُسعِدك».

أقولُ: مُنتَهى السُّهولة، فقط ألقِ عليَّ تعويذة سعادة.

وتَرُدُّ هيلين:

- «ليست هناك تعاويذ للسعادة، لكن هناك أدوية ومُضادَّات اكتئاب».

لا أريد أن أواصل جعل العالم مكانًا أسوأ مما هو، أريد أن أُنَظِّفَ الفوضى التي تَسَبَّبنا فيها. الكثافة السُّكَّانِيَّة، البيئة، الأغنِيَّة... السحر نفسه الذي يُدَمِّر حياتي من المُفتَرَض أن يُصلِحها.

تقول هيلين:

- «لكن يُمكننا أن نفعل هذا بالمزيد من التعاويذ».

تعاويذ لإصلاح تعاويذ لإصلاح تعاويذ لإصلاح تعاويذ، وتزداد الحياة بؤسًا بطرائق لم تَخطُر لنا على بال. هذا هو المستقبَل الذي أراه في المرآة.

مستر يوچين شيفلِن وطيور الزرزور، سپنسر بايرد وسَمَك الشَّبُّوط... التاريخ حافِلٌ بالعباقِرة الذين حاوَلوا أن يُكَحِّلوا العين فأعموها.

أريدُ أن أحرِق «الجريموار».

أُخبِرها بما قالته لي مونا، كيف أنها ألقت عليَّ تعويذةً كي تجعلني عَبدًا لها مُتيَّمًا بها ما تَبَقّى من الدَّهر.

- «مونا كاذِبة».

لكن كيف أتأكَّد من ذلك؟ ومَن أُصَدِّق؟

لعل الرمادي في المرآة، المستقبَل، لا يبدو واضِحًا لي، لأن لا شيء واضِحًا أمامي الآن.

وتُسقِط هيلين يديَّ، وتُلَوِّح بذراعها نحو الخزانات الريچنسي والمكاتب الفدرالِست ومَشاجِب المعاطف من عصر النهضة الإيطاليَّة، وتقول:

- «إذن، ما دامَ الواقِع مجرَّد تأثير تعويذة، وأنك لا تريد ما تعتقد أنك تريده حقًّا...».

وتَدنو بوجهها من وجهي وتُتَابِع:

- «... إذا لم تكن تملك إرادتك الحُرَّة، فإنك لا تعرف ما تحسب أنك تعرفه، ولا تُحِبُّ ما تعتقد أنك تُحِبُّه. ما الفائدة من الحياة إذن؟».

لا شيء.

نَقِفُ في مكاننا وقِطع الأثاث شاهِدةٌ علينا.

فَكِّر في أغوار الفضاء الخارجي، في البرد والصَّمت السَّرْمَدِيَّيْن حيث تَنتَظِرك زوجتك وابنتك.

أطلبُ منها أن تُناوِلني هاتفها المحمول، وما زال اللون الرمادي يتبدَّل ويسيل في المرآة.

تَفتَح هيلين حقيبتها وتُخرِج الهاتف، فأفتحه وأطلُبُ 911.

يُجيبني صوت امرأة:

- «الشُّرطة أم المطافئ أم الإسعاف؟».

فأقولُ: الإسعاف.

- «موقعك الحالي؟».

وأُملي عليها عنوان البار في ثيرد آڤنيو حيث أُقابِل ناش، البار القريب من المستشفى.

- «ونوع حالة الطوارئ؟».

أربعون مُشَجِّعَة فِرَق رياضيَّة مُصابة بضَربة شمس، فريق كرة طائرة نسائي كامل في حاجةٍ إلى قُبلة الحياة، مجموعة من عارِضات الأزياء يحتجنَ فحصًا للثَّدي. أقولُ لها: إذا كان لديهم مُسعِف اسمه چون ناش، فيجب أن يُرسِلوه هو. أقولُ لها: إذا لم يَعثُروا على ناش، فليتجاهَلوا الأمر.

تأخذ هيلين الهاتف مني وتَرمُقني بعينين تطرفان ببطءٍ مرَّةً، مرَّتين، ثلاثًا، وتسأل:

- «ما الذي تُزمِع فعله؟».

ما تَبَقَّى لي. لعل الوسيلة الوحيدة للعثور على حُرِّيَّتي هي أن أفعل الأشياء التي لا أريد أن أفعلها... أوقِف ناش... أعتَرِف للشُّرطة... أتقَبَّل عقابي.

يجب أن أتمرَّد على نفسي.

هذا هو عكس البحث عن السعادة، فالآن عليَّ أن أفعل أكثر شيءٍ أخافه.

الفصل الأربعون

يجلس ناش إلى الطاولة في مؤخِّرة البار في ثيرد آڤنيو، يلتهم صلصة اللحم المفروم الحارَّة في وعاءٍ بلاستيكي. السَّاقي مُنبَطِحٌ إلى الأمام فوق المشرب وذراعاه ما زالتا تتأرجحان فوق الكراسي، ورجلان وامرأتان سقطوا على وجوههم على جانبي طاولة وسجائرهم تحترق في المطفأة حتى منتصفها فقط. رجلٌ آخَر ساقِط في مدخل الحمَّامات، وآخَر فوق طاولة البلياردو ويده لا تزال تقبض على العصا. وراء البار، في المطبخ، تتدفَّق موجات الإستاتيكيَّة من الراديو، وثمَّة رجل يرتدي مريولة مُلَطَّخَة بالدُّهون، انضمَّ وجهه إلى أقراص الهامبرجر على المشواة التي تُصدِر طقطقةً مستمرَّةً ودُخانًا، ويتصاعَد الدُّخان الدُّهني من وجه الرجل إلى السَّقف.

الشَّمعة على طاولة ناش هي مصدر الضوء الوحيد في المكان.

ويرفع ناش عينيه ولون الصلصة الأحمر يُحيط بفمه، ويقول:

- «خطرَ لي أنك ترغب في أن يَتِمَّ هذا على انفراد».

يرتدي اليونيفورم الأبيض، وعلى مقربةٍ هناك جُثَّة أخرى ترتدي يونيفورم مُماثِلًا، يُشير إليها ناش برأسه قائلًا:

- «زميلي».

يتحرَّك ذيل الحصان، شجرة النَّخيل السوداء الصغيرة، مُتَخَبِّطًا فوق رأسه مع حركته، وتسيل الصلصة الحمراء على صَدر يونيفورمه، ويقول:

- «خطوة تأخَّرت كثيرًا في الواقِع».

ينفتِح من ورائي باب الشارع، ويَدخُل رجل ثم يتوقَّف ويتطلَّع حوله مُلَوِّحًا بيده في الدخان الكثيف قائلًا بذهول:

- «ما هذا؟!».

وينغلِق باب الشارع من ورائه، ويَدُسُّ ناش إصبعين في جيبه الأمامي ويُخرِج بطاقة بيضاء تلوَّثت بالطعام الأحمر والأصفر، ويتلو منها تعويذة الاجتباء بأسلوبٍ فاترٍ مُنتَظِمٍ كأنه يَعُدُّ أرقامًا، مِثل هيلين.

ويختفي سواد بؤبؤي عيني الرجل الواقف عند باب الشارع، وتتداعى رُكبتاه من تحته ويَسقُط على الجانِب.

وأنا واقفٌ في مكاني...

يُعيد ناش البطاقة البيضاء إلى جيبه، ويقول:

- «ماذا كنا نقول؟».

أسأله: أين عثرت على الأغنيَّة؟

ويقول ناش:

- «خمِّن. عثرتُ عليها في المكان الوحيد الذي لا يُمكنك تدميرها فيه».

ويَرفَع زجاجة بيرة يُشير بعُنقها نحوي مُضيفًا:

- «فَكِّر... فَكِّر جيِّدًا».

سوف يَظَلُّ الكتاب، كتاب «قصائد وأغانٍ من حول العالم»، موجودًا دائمًا في مكانٍ ما ليَعثُر عليه الناس، يتوارى في وَضَحِ النهار، ويقول ناش إن هذا المكان الأوحد الذي لا يتيح لك التخلُّص منه أبدًا.

لسببٍ ما يَخطُر التشيتجراس على بالي، ومحار الزيبرا، وأويستر...

يَجرع ناش بعض البيرة، ثم يضع الزجاجة ويقول:

- «فَكِّر جيِّدًا».

أقولُ إن ما يفعله خطأ؛ عارِضات الأزياء والقتل وكلُّ هذا.

ويقول:

- «هل تَستَسلِم؟».

لا بُدَّ أنه يعرف أن ممارَسة الجِنس مع نساءٍ ميتات خطأ.

ويَرفَع ملعقته ويقول:

- «إنها مكتبة الكونجرس بَارَكَ الله فيها. أموال الضرائب التي تدفعها وقد آتت ثمارها».

تبًّا.

يَغرِس الملعقة في الصلصة، ثم يضعها في فمه ويقول:

- «ولا أريد منك محاضَرةً عن شرور النِّكروفيليا[1]، فأنت آخِر من يستطيع إلقاء تلك المحاضَرة. إنني أعرفُ من تكون».

---

(1) النكروفيليا أو جماع الأموات هو انجذاب جِنسي إلى الجُثَث، ويُصَنَّف على أنه أحد أنواع الانتكاس النوعي بحسب الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسيَّة.

ويَزدَرِد ويُكمِل:

- «وأنت ما زلت مطلوبًا للتحقيق».

ويَلعَق الصلصة حول فمه ويقول:

- «لقد رأيتُ شهادة وفاة زوجتك».

ويبتسم قائلًا:

- «آثار جماعٍ بعد الوفاة؟».

ويُشير ناش إلى مقعدٍ خالٍ، وأجلسُ.

ويميل ناش عبر المائدة قائلًا:

- «لا تَقُل لي إنها لم تكن أفضل مرَّةٍ مارست فيها الجِنس على الإطلاق».

ويُفَتِّت بعض البسكويت المملَّح في الوعاء ويقول:

- «لا يُمكنك أن تَقتُلني. أنا وأنت لا فارِق بيننا».

وأقولُ إن موقفي كان مُختَلِفًا، ذلك أن ڇينا كانت زوجتي.

- «زوجتك أو غير زوجتك. الميت ميت، وما فعلته ما زال نِكروفيليا».

ويُقَلِّب فُتات البسكويت المملَّح في الصلصة الحمراء ويقول:

- «قتلك إياي لن يختلف عن انتحارك».

وأقولُ له أن يَخرَس.

ويقول ناش بفمٍ مليء بالطعام:

- «اهدأ. لم أكتُب خطابًا لأحدٍ بخصوص هذا، فلستُ بهذا الغباء».

ويَجرُف المزيد من الصلصة داخِل فمه:

- «فكِّر. كلُّ ما عليه هو قراءة الخطاب، وأنا لستُ في حاجةٍ إلى مُنافَسَة».

دائِمُ الخِسَّة والفوضى، هذا هو العالم الذي أعيشُ فيه الآن. بهذا البُعد عن الله، هؤلاء هُم الناس الذين تبقَّوا لي. الجميع يريدون السُّلطة... مونا وهيلين وناش وأويستر. الوحيدون الذين يَعرِفونني يَكرَهونني، كلنا نكره بعضنا بعضًا، كلنا نخشى بعضنا بعضًا، والعالم كله عَدُوِّي.

يقول ناش:

- «أنا وأنت لا نستطيع الثِّقَة بأحد».

مرحبًا بك في الجحيم.

إذا كانت مونا على حقٍّ وكلمات كارل ماركس تَخرُج من بين شفتيها، فإن في قتل ناش إنقاذًا له، عودةً به إلى الله، ارتباطًا منه بالبَشَرِيَّة من خلال تكفيره عن خطاياه.

تلتقي عيناي بعينيه، وتبدأ شفتاه في الحركة ورائحة الصلصة تفوح من أنفاسه.

إنه يُرَدِّد أغنيَّة المَهد. بعُنفٍ كنباح الكلاب يُرَدِّد كلَّ كلمةٍ بحيث تَخرُج الصلصة في فُقَّاعاتٍ من فمه وتتطايَر في قطراتٍ من اللون الأحمر. ثم يتوقَّف ويَنظُر داخِل جيبه الأمامي، ويَدُسُّ يده ليُخرِج البطاقة البيضاء، وبإصبعين يَحمِلها ويبدأ في القراءة من جديد. البطاقة مُلَطَّخَة تمامًا، فيَمسَحها على مفرش الطاولة ويَشرَع في القراءة مرَّة أخرى.

للكلمات وَقعٌ ثقيلٌ قويٌّ... إنه صوت الهلاك...

تسترخي عيناي ويتحوَّل العالم إلى ضبابٍ رمادي، وترتخي عضلاتي كلها وتلين، وتَرتَفِع عيناي إلى أعلى في مِحجريهما وتبدأ رُكبتاي في التَّداعي.

هكذا تَشعُر إذن وأنت تموت، وأنت تُنقَذ...

لكن القتل صار الآن مجرَّد فِعلٍ لاإراديٍّ بالنِّسبة لي، صار الوسيلة التي أحِلُّ بها كلَّ مشكلة.

تتداعى رُكبتاي، وأصدِم الأرض على ثلاث مراحل: مؤخِّرتي، ثم ظَهري، ثم رأسي.

وبسرعة التَّجشُّؤ، بسرعة العطاس، بسرعة تثاؤبٍ قادمٍ من أعماقي، تتدفَّق كلمات الأغنيَّة في عقلي... طاقة الغضب المُتَفَجِّرَة في داخلي التي لا تخذلني أبدًا.

تَتَّضِح الرؤية من جديد، ومن مكاني على الأرض حيث سقطتُ على ظَهري أرى الدخان الرَّمادي المُشَبَّع بالدُّهون يِرتَفِع إلى سقف البار، وما زال بإمكانك أن تَسمَع صوت شواء وجه الطاهي في المطبخ.

وتَسقُط البطاقة من أصابع ناش على الطاولة، ويغيب بؤبؤا عينيه داخِل مِحجريهما، وترتخي كتفاه، ويَحُطُّ وجهه في وعاء الصلصة الحارَّة. يتناثَر الأحمر في كلِّ مكان، ويميل جسد ناش الثقيل كله إلى الجانِب، قبل أن يَسقُط ضارِبًا الأرض بعُنفٍ إلى جواري. عيناه تَنظُران في عينيَّ، ووجهه مُلوَّث بالصلصة، ويتدلَّى ذيل الحصان، شجرة النَّخيل السوداء الصغيرة، فوق وجنتيه وجبهته.

لقد أُنقِذَ، أما أنا فلا...

الدُّخان المُشَبَّع بالدُّهون فوقي، والمشواة تَئِزُّ وتُطَقطِق، وألتقِط بطاقة ناش البيضاء من على الأرض وأضعها فوق لهب الشَّمعة، مضيفًا إلى الدخان دُخانًا، وأُراقِبها إذ تَحترِق.

يُدَوِّي إنذار الحريق بصخبٍ يجعلني لا أسمع أفكاري... كأني أفكِّر أصلًا... كأني أستطيع التفكير أصلًا.

تملأني سارينة الحريق... يَحتَلُّ الأخ الأكبر عقلي كما تَحتَلُّ الجيوش المُدن.

وهكذا أجلِس مُنتَظِرًا أن تُنقِذني الشُّرطة، أن تُعيدني إلى الله وتَجمَعني بالإنسانيَّة من جديد، وتعوي السارينة مُغرِقَةً كلَّ صوتٍ آخَر.

وأشعرُ بالسعادة.

الفصل الحادي والأربعون

بَعد أن قبض عليَّ رجال الشُّرطة وتلوا عليَّ حقوقي، بَعد أن قيَّدوا يديَّ بالأصفاد وراء ظَهري واقتادوني إلى القِسم، بَعد أن وصل الشُّرطي الأول إلى مسرح الجريمة وتطلَّع إلى الجُثَثِ في كلِّ مكانٍ فردَّد: «بحقِّ المسيح على الصليب!»، بَعد أن رفعَ المُسعِفون الطاهي من على المشواة وألقوا نظرةً واحدةً على وجهه المطهي فتقيَّأوا في أيديهم المضمومة على أفواههم، بَعد أن أعطتني الشُّرطة المُكالَمة الهاتفيَّة الواحدة التي تَحِقُّ لي فاتَّصلتُ بهيلين وقُلتُ لها إنني آسفٌ لكن هذه هي النهاية وقد ألقت الشُّرطة القبض عليَّ، فطمأنتني وقالت إنها سوف تُنقِذني، بَعد أن أخذوا بصمات أصابعي والتقطوا صورتي، بَعد أن صادَروا مِحفظتي ومفاتيحي وساعتي ووضعوا ثيابي -معطفي الرياضي البُنِّي وربطة عُنقي الزرقاء- في كيسٍ بلاستيكيٍّ عليه بطاقة تَذكُر رقمي الجنائي، بَعد أن قادني شُرطِيٌّ عبر رواقٍ إسمنتيٍّ باردٍ وأدخلَني عاريًا تمامًا إلى غُرفةٍ إسمنتيَّةٍ باردة، بَعد أن تركني وحدي مع ضابطٍ عجوزٍ سمينٍ قصير الشَّعر له يدان كقُفَّازيّ حارِس مرمى في غُرفةٍ ليس فيها سوى مكتب وكيسٍ من الملابس وبرطمانٍ من الڤازلين، وبَعد أن يَنغَلِق الباب عليَّ مع الثور

الأشيب العجوز، يضع يديه في زوجٍ من القُفَّازات اللاتكس ويقول:

- «من فضلك أعطِ وجهك للحائط وانحنِ إلى الأمام، واستَخدِم يديك لفَتح فَلقتيِّ مؤخِّرتك».

وأقولُ: نعم؟!

ويَمسَح هذا العملاق العابِس إصبعين في برطمان الڤازلين ويقول:

- «إنه فحص لفتحات الجسم. والآن أعطِ وجهك للحائط».

وأعُدُّ 1... أعُدُّ 2... أعُدُّ 3...

وأعطي وجهي للحائط، وأنحني إلى الأمام، وأباعِد بين فَلقتيِّ مؤخِّرتي مُستَخدِمًا يديَّ.

وأعُدُّ 4... أعُدُّ 5... أعُدُّ 6...

أنا وفشلي في امتحان عِلم الأخلاق، تمامًا مثل ڤالتراود ڤاجنر وچيفري دامر، أنا قاتلٌ مُتسلسِل، وهكذا يبدأ عقابي. هذا هو الدليل على إرادتي الحُرَّة، وهذا هو سبيلي إلى الخلاص.

ويقول الضابط بصوتٍ خشنٍ من فرط التدخين:

- «إنه إجراء ثابِت نَتَّخذه مع جميع من نَشُكُّ في كونهم خَطِرين».

وأعُدُّ 7... أعُدُّ 8... أعُدُّ 9...

ويقول الضابط بخشونة:

- «ستَشعُر بضغطٍ بسيط، فاسترخِ».

وأعُدُّ 10... أعُدُّ 11... أعُدُّ...

وتبًّا...

تبًّا!

ويقول الضابط:

- «استرخِ».

تبًّا! تبًّا! تبًّا! تبًّا! تبًّا! تبًّا!

الألم أسوأ من تنقيب مِلقط مونا المُتَّقِد في قدمي، أسوأ من الكحول إذ يَغسِل دمي. أُطبِق على فَلقتيِّ مؤخِّرتي وأضغط على أسناني بعُنفٍ يكاد يُحَطِّمها والعَرق يجري على ساقيَّ ويَسقُط من جبهتي على أنفي. تتوقَّف أنفاسي ويتقاطَر العَرق إلى أسفل مباشرةً ويتناثَر بين قدميَّ الحافيتين المُتباعِدَتَيْن وقد انغرزَتا في الأرض.

يَتَلَوَّى شيء ضخم صُلب في داخلي حتى الأعماق، وأسمع الضابط يقول بصوته الشنيع:

- «نعم، استرخِ يا صاحبي».

وأعُدُّ 12... أعُدُّ 13...

ويتوقَّف الشيء الضخم الصلب عن التَّلَوِّي، ويتراجع ببطءٍ إلى الخارِج تقريبًا، ثم يتلوَّى في العُمق من جديد، ببطءٍ كعقرب الساعات أولًا، ثم أسرع، وتَختَرِقني أصابع الضابط اللَّزجة وتَتَراجَع، وتَختَرِقني وتَتَراجَع مرَّة بعد مرَّةٍ.

وبالقُرب من أذني أسمع صوته الخشن المصحوب بأنفاسه المُعَبَّقة بدخان السجائر يقول:

- «اسمع يا صاحبي، هل لديك وقت لمرَّة على السريع؟».

ويتشنَّج جسمي كله دُفعةً واحدةً...

ويقول الضابط:

- «لا، لا تُغلِقها هكذا!».

وأقولُ: حضرة الضابط، أرجوك، إنك لا تفهم. يُمكنني أن أقتُلك. أرجوك لا تفعل هذا.

ويقول الضابط:

- «اتركني لأحِلَّ أصفادك. هذه أنا، هيلين!».

هيلين؟

ويقول الضابط:

- «هيلين هوڤر بويل. هل تَذكُرني؟ منذ ليلتين كنت تفعل الشيء نفسه تقريبًا معي في الهواء».

هيلين؟

وما زال الشيء الضخم الصُّلب يتلوَّى في داخِلي.

ويقول الضابط:

- «إنها تعويذة احتلال. لقد تَرجَمتُها منذ ساعاتٍ قليلة. هذا الضابط فلان مسجونٌ الآن داخِل عقله الباطِن، بينما أتحكَّم أنا في جميع خلجاته».

يَدفَع نعل حذاء الضابط البارد مؤخِّرتي، ويَنسَحِب الإصبعان الضخمان الصُّلبان إلى الخارِج بحركةٍ عنيفة. بين قدميَّ بِركة من العَرق، وأعتدِل واقفًا وما زلتُ أضغط على أسناني.

يَرمُق الضابط إصبعيه ويقول:

- «حسبتُ أنني سأفقِدهما».

ويتشمَّمهما ويبدو الاشمئزاز على وجهه.

أقولُ وأنا ألتقِطُ أنفاسًا عميقةً بعينين مغلقتين: رائع، تتحكَّم فيَّ أولًا، والآن عليَّ أن أقلق من تحكُّمها في كلِّ مَن حولي.

ويقول الضابط:

- «كنتُ أتحكَّم في مونا طيلة الساعات الأخيرة من ظهيرة اليوم لأختَبِر التعويذة، كما أني عاقَبتها على إخافتك بإجراء بضعة تعديلاتٍ عليها».

ويضع يده بين قدميه قائلًا:

- «هذا مُذهِل. وجودي معك هكذا يجعلني أنتصب. قد يبدو كلامي معاديًا للمرأة، إلَّا أنني لطالما رغبتُ في أن يكون لي قضيب».

وأقولُ إنني لا أريد أن أسمع هذا.

وتقول هيلين من خلال فم الضابط:

- «أعتقدُ أنني بمجرَّد أن أضعك في تاكسي، سأمكثُ قليلًا في جسم هذا الرجل وأستمني، فقط على سبيل التجربة».

وأقولُ: إذا كنتِ تعتقدين أن هذا سيجعلني أقع في حُبِّك، ففكِّري مرَّة أخرى.

وتجري عَبرة على خَدِّ الضابط.

وأقفُ في مكاني عاريًا، وأقولُ: أنا لا أريدكِ، ولا أثِقُ بكِ.

وتقول هيلين بصوت الضابط الخشن:

- «أنت لا تريد أن تُحِبَّني لأني امرأة وأملك قوَّة أكثر منك».

وأقولُ: ارحلي يا هيلين، اغربي عن وجهي، أنا لا أريدكِ، بل أريدُ أن أدفع ثمن جرائمي. لقد تَعِبتُ من إلقاء اللوم كله على العالم لأُبَرِّر سلوكي الخاطئ.

والآن يبكي الضابط بحرارة، ويَدلِف ضابط آخَر إلى الغُرفة، ضابط شاب يَنقِل ناظِرَيه مني (وأنا عارٍ) إلى الضابط (وهو يبكي)، ويقول:

- «هل من مشكلة هنا يا حضرة الرقيب؟».

ويجيب الضابط العجوز وهو يُجَفِّف عينيه:

- «كلُّ شيءٍ في أروع حال. إننا نقضي وقتًا جميلًا».

ثم يرى الضابط أنه جفَّف عينيه ويده لا تزال في القُفَّاز الذي وضعه داخل مؤخِّرتي، فيخلعه مُطلِقًا صرخةً وجسده كله يَرتَعِش، ويُطَوِّح القُفَّاز اللَّزِج بعيدًا.

أقولُ للضابط الشَّاب إننا نتكلَّم فقط، فيرفع قبضته في وجهي قائلًا بحِدَّة:

- «أريدك أن تَخرَس».

ويَجلِس الضابط العجوز، حضرة الرقيب، على حافة المكتب ويضع ساقًا على ساق. يتنشَّق دموعه ويُلقي رأسه إلى الوراء كأنه يُلقي شَعره الطويل، ويقول:

- «نريد أن نكون وحدنا الآن إذا سمحت».

وأنا أنظُر إلى السَّقف.

ويلتقط حضرة الرقيب منديلًا ورقيًّا ويُجَفِّف عينيه.

ويلتفت الضابط الشَّاب بسرعة، ويُمسِكني من تحت فَكِّي ويَدفَعني لأرتَطِم بالحائط البارد فيَلتَصِق ظَهري وساقاي به، ويقول بخشونةٍ وقد ثَبَّت رأسي إلى الأعلى والخلف واعتصَر عُنقي:

- «إياكَ أن تُتعِب حضرة الرقيب، مفهوم؟».

ويَرمُقني حضرة الرقيب بابتسامةٍ ضعيفة، ويقول:

- «كما سمعته».

ويتنشَّق دموعه.

ويُفرِج الضابط الشَّاب عن عُنقي، ويتراجع نحو الباب قائلًا:

- «سأكونُ في الخارِج إذا احتجتَ... همم... أيَّ شيء».

- «شكرًا لك»، يقولها الضابط العجوز، ويعتصر يد الضابط الشَّاب. «أنت لطيفٌ جدًّا».

ويَسحَب الضابط الشَّاب يده بحِدَّة ويُغادِر الغُرفة.

هيلين داخِل هذا الرجل، تمامًا كما يَزرَع التليفزيون بذوره في أحشائك، كما يستولي التشيتجراس على الأراضي، كما تبقى أغنيَّةٌ ما في رأسك، كما تَسكُن الأشباح البيوت، كما تُعديك الجراثيم، كما يحتلُّ الأخ الأكبر كلَّ اهتمامك.

يَنهَض الضابط، تَنهَض هيلين، ويُداعِب جرابه ويُخرِج مسدَّسه ويَحمِله بيديه مُصَوِّبًا إياه نحوي، ويقول:

- «والآن أخرج ثيابك من الكيس والبسها».

ويتنشَّق دموعه ويَركُل كيس الملابس نحوي مُكَرِّرًا:

- «ارتدِ ثيابك عليك اللعنة. لقد جِئتُ لأُنقِذك».

ويرتجف المسدَّس في يده، ويقول حضرة الرقيب، تقول هيلين:

- «أريدك أن تَخرُج من هنا كي أستمني».

الفصل الثاني والأربعون

تمتزج الكلمات في كلِّ مكان... تمتزج الكلمات بأبيات الأغاني بالحوارات في سحابةٍ كثيفةٍ من شأنها أن تُحدِث تفاعُلًا مُتسلسِلًا. لعلَّ ما نَعدُّه أفعالًا إلهيَّةً هو مجرَّد التوليفة الصحيحة من كلام وسائل الإعلام الفارغ الذي يُنثَر ويُنشَر في الهواء. تتصادَم الكلمات الخطأ معًا لتتسبَّب في زلزال، وتمامًا كما تستدعي رقصات المطر العواصِف، من شأن التوليفة الصحيحة من الكلمات أن تُحدِث إعصارًا قِمعيًّا. قد يكون تَمازُج عشراتٍ من أغاني الإعلانات معًا السَّبب في ارتفاع حرارة الكوكب، ومن المحتمَل أن كلَّ تلك الحلقات المُعادَة مرارًا وتكرارًا من البرامج التليفزيونيَّة هي ما يتسبَّب في الأعاصير، والسرطان، والإيدز.

في التاكسي، في الطريق إلى مكتب هيلين بويل للعقارات، أرى العناوين الرئيسة في الصُّحف تمتزج بلافتاتٍ مكتوبةٍ بخَطِّ اليد، وتمتزج وُريقاتٌ مثبَّتة بدبابيس على أعمدة الهاتف بخطابات البريد، وأغاني فنَّاني الشوارع بموسيقى المَصاعِد بهتافات الباعة الجائلين ببرامج الراديو.

إننا نعيش في بُرج بابل... لا، بل في بُرج بَلْبَلَةٍ مائِل، في واقعٍ مهزوزٍ من الكلمات، وصفة حِمضٍ نَوَوِيٍّ للكوارث. مع دمار العالم

الطبيعي، يتبقَّى لنا هذا العالم الذي تسوده فوضى الكلام. الأخ الأكبر يُغَنِّي ويَرقُص، ونحن نتفرَّج. قد تَكسر العِصِيُّ والحجارة عظامنا، لكن دورنا يقتصِر على أن نكون الجمهور المُشاهِد المطيع، أن نشحذ انتباهنا وننتظر وقوع الكارثة التالية.

أجلسُ في التاكسي شاعرًا بمؤخِّرتي لا تزال زَلِقَةً مفلوقةً.

لا تزال هناك ثلاث وثلاثون نُسخة من كتاب الأغاني يجب أن نَعثُر عليها. يجب أن نذهب إلى مكتبة الكونجرس، يجب أن نُنَظِّفَ كلَّ تلك الأوساخ ونضمن إلَّا تقع الواقِعة.

يجب أن نُحَذِّر الناس. لقد انتهت حياتي الطبيعيَّة، وهذه هي حياتي الجديدة.

يتوقَّف التاكسي في المرآب، وأرى مونا عِند الباب الأمامي توصِده بحلقةٍ ضخمةٍ من المفاتيح. تراها، فتعتقد وهلةً أنها هيلين. مونا شَعرها الآن عبارة عن فُقَّاعةٍ ضخمةٍ من الأسود والأحمر، ترتدي بذلة بُنِّيَّةً، لكنه ليس بُنِّيَّ الشوكولاتة، بل أقرب إلى بُنِّيِّ كعكة شوكولاتة بالبندق مُقَدَّمَة على وسادةٍ من الساتان في فندقٍ فاخِر.

ثمَّة علبة على الأرض بجانِب قدميٍّ مونا، وفوق العلبة ثمَّة شيء أحمر... الكتاب، «الجريموار».

أقطعُ المرآب، وتُنادي مونا:

- «هيلين ليست هنا».

تقول مونا إنها سمعَت شيئًا على الماسح الرَّاداري عن العثور على الجميع موتى في بارٍ في ثيرد آفنيو والقبض عليَّ، وتضع العلبة في حقيبة سيَّارتها الخلفيَّة وتقول:

- «فَوَّتَّ مسز بويل للتَّوِّ. لقد غادرَت باكيةً منذ ثوانٍ».

رقيب الشُّرطة...

لا أرى سيَّارة هيلين الريلتور الكبيرة المُعَبَّقَة برائحة الجِلد في أيٍّ مكان.

تَنظُر مونا إلى حذائها البُنِّيِّ عالي الكعبين، إلى بذلتها المُفَصَّلَة المُبَطَّنَة المُهَندَمَة التي تبدو كبذلة دُميةٍ بأزرارها التوباز الضخمة، تَنظُر إلى تنُّورتها القصيرة، وتقول:

- «لا تسألني كيف حدث هذا!».

وترفع يديها التي طُلِيَت أظفارهما السوداء باللون الوردي وحُدِّدَت بالأبيض، وتقول:

- «من فضلك قُل مسز بويل إنني لا أحِبُّ أن يُختَطَف جسدي ويُفعَل به كلُّ هذا الخراء».

وتُشير إلى فُقَّاعة شَعرها الصُّلبة ووجنتيها المُحْمَرَّتَيْنِ وطلاء شفتيها الوردي، وتضيف:

- «هذا مُرادِف لاغتصاب الموضة!».

وتصفق غطاء حقيبة السيَّارة بأصابعها ذات اللون الوردي الجديد، وتُشير إلى قميصي قائلةً:

- «أكان لقاؤك بصديقك داميًا؟».

فأقولُ لها إن البُقع الحمراء ما هي إلَّا صلصة.

وأقولُ لها إنني رأيتُ «الجريموار»، رأيتُ الجِلد البَشري والنجمة الخماسيَّة، فتُجيب:

- «هيلين أعطَتني إياه».

وتفتح حقيبتها البُنِّيَّة الصغيرة قائلةً:

- «قالت إنها لم تَعُد تحتاجه. كما قُلتُ لك، كانت منزعجةً وتبكي».

وبظُفرين وردِيَّين تُخرِج ورقة مطويَّة من حقيبة يدها. إنها صفحة من «الجريموار»، الصفحة المكتوب فيها اسمي، وتمدُّها لي مونا وتقول:

- «اعتنِ بنفسك. أعتقدُ أن شخصًا ما في حكومةٍ ما يُريدك ميتًا».

وتمشي متعثِّرةً بكعبيها الطويلين، وتميل على السيَّارة وتقول:

- «أظنُّ أن تعويذة الحُب التي ألقتها هيلين لم تُؤتِ أُكلها. لكن صَدِّق أو لا تُصَدِّق، إننا نفعل هذا كي نُنقِذك».

أويستر مُستَرخٍ على الأريكة الخلفيَّة، ثابتٌ جدًّا كأنه ليس حيًّا، شَعره الأشقر منفوش، وما زال كيس دواء الهوبي معلَّقًا من عُنقه وقد سقطت منه بضع سجائر، وجهه شائهٌ بالنُّدوب الحمراء التي أحدَثتها مفاتيح هيلين في وجنتيه.

وأسأل مونا: هل هو ميت؟

وتُجيب:

- «في أحلامك! لا، سيكون بخير».

وتجلس وراء عجلة القيادة وتُشَغِّل السيَّارة قائلةً:

- «خيرٌ لك أن تُسرِع وتَعثُر على هيلين. أعتقدُ أنها قد تَفعَل شيئًا مُرَوِّعًا من فرط اليأس».

وتصفق باب السيَّارة وتبدأ في الخروج بها من حيث ركنَتها، وتصيح من النافذة:

- «ابحث عنها في مركز نيو كونتينيوام الطِّبِّي».

وتنطلق بالسيَّارة صائِحَةً بصوتٍ أعلى:

- «أتمنَّى فقط ألَّا تصل بَعد فوات الأوان».

الفصل الثالث والأربعون

تلمع الأرضيَّة في الغُرفة رقم 131 في مركز نيو كونتينيوام الطِّبِّي، ويُصدِر المشمَّع أصوات طقطقةٍ وفرقعةٍ إذ أخطو عليه عبر شظايا الفضِّيِّ والأحمر والأخضر والأصفر والأزرق، عبر القطرات الحمراء، عبر الماس والياقوت والزمرُّد. كلتا فردتيِّ حذاء هيلين -الورديَّة والصفراء- تَحَطَّمَ فيهما الكعبان تمامًا واستحالا إلى عجين، وقد أُلقيت الفردتان في منتصف الغُرفة.

تَقِف هيلين على الجانِب الآخَر من الغُرفة في ضوء مصباحٍ صغير، بالضبط عِند حافة ضوء يُصدِره مصباح على طاولة صغيرة، وتميل على كابينةٍ من الفولاذ المضاد للصَّدأ وقد فردَت يديها على المعدَن البارد وأراحَت خَدَّها عليه.

يُحَطِّم حذائي الألوان على الأرض ويَسحَقها، وتلتفت إليَّ هيلين.

ثمَّة لَطخة من الدَّم على طلاء شفتيها الوردي، وعلى الكابينة طُبِعَت قُبلة من الوردي والأحمر. كانت تميل على نافذةٍ رماديَّةٍ لا تُظهِر الكثير، لكن ما في داخِلها هو شيء أكثر ثباتًا وكمالًا من أن يكون حيًّا.

باتريك.

كان الصَّقيع حول حافة النافذة قد بدأ يذوب، فتقاطرَ الماء من الكابينة.

وتقول هيلين بصوتٍ باهتٍ ثقيل والدَّم يسيل من فمها:

- «أنت هنا».

مُجرَّد نظري إليها يجعل قدمي تؤلمني.

أقولُ إنني بخير، فتقول هيلين:

- «أنا سعيدة».

حقيبة أدوات التجميل مُلقاة على الأرض، وبين شظايا الألوان تناثرَت سلاسل وفصوص خواتم من الذَّهب والپلاتين، وتقول هيلين:

- «حاولتُ كسر القِطع الكبيرة».

وتَسعُل في يدها، ثم تقول:

- «وحاولتُ أن أمضُغ الباقي».

وتنفجِر في نوبة سعالٍ عنيفة إلى أن تمتلئ راحة يدها بالدَّم والشَّظايا البيضاء.

إلى جوار حقيبة أدوات التجميل زجاجة مسكوبة من مُنَظِّف البالُوعات السائل، يسيل ليصنع بِركةً من اللون الأخضر.

أسنانها مُحَطَّمة، عبارة عن فجواتٍ دامية، وتتجلَّى حُفَرٌ في فمها من الداخِل. تُسنِد رأسها إلى النافذة الرماديَّة فتكسو أنفاسها الزجاج بالضَّباب، وتضع يدها الدامية على جانِب تنُّورتها، وتقول:

- «لا أريدُ العودة إلى ما كان من قبل، إلى ما كانت عليه حياتي قبل أن ألتقيك».

وتمسح يدها الدامية على تنُّورتها مرَّة ومرَّة ومرَّة، وتقول:

- «حتى لو كنتُ أملك كلَّ السُّلطة في العالم».

أقولُ إننا يجب أن نذهب إلى مستشفى.

وتبتسم هيلين ابتسامةً قانيةً وتقول:

- «نحن في مستشفى».

تقول إن المسألة ليست شخصيَّة، لكنها كانت في حاجةٍ إلى أحد، أيِّ أحد. حتى لو كانت تستطيع إعادة پاتريك، فإنها لا تريد أن تُدَمِّر حياته بإطلاعه على أغنيَّة المَهد. حتى لو كان هذا يعني أن تعيش وحيدةً مرَّة أخرى، فإنها لا تريد أن يملك پاتريك تلك القوَّة أبدًا.

تقول وهي تتحسَّس الزجاج الرمادي بأظفار أصابعها الورديَّة:

- «انظر إليه. إنه مثالي».

تبتلع لعابها والدِّماء وقِطع الماس والأسنان وتتجعَّد سِحنتها على نحوٍ مريع، وتقبض يدها على معدتها وهي تميل على النافذة الرماديَّة، ويسيل الدَّم وسوائل أخرى من فمها على الكابينة المعدنيَّة.

بيدٍ ترتجف تفتح هيلين حقيبة يدها وتُخرِج طلاء شفاه تَمَسُّ به شفتيها، فيعود مُلَطَّخًا بالدَّم.

تقول إنها نزعَت قابِس وحدة التبريد العالي، وفصلَت الإنذار والبطَّاريَّات الاحتياطيَّة.

تقول إنها تريد أن تموت مع پاتريك.

تريد أن ينتهي كلُّ شيءٍ هنا... تعويذة الاجتباء... السُّلطة... الوحدة... تريد أن تُدَمِّر جميع الجواهر التي يحسب الناس أنها سوف تُنقِذهم، كلَّ الفُضالة التي تعيش دَهرًا بعد موت الموهبة والذَّكاء والجمال، كلَّ الخُردة الديكوريَّة التي تتخلَّف عن الإنجازات والنجاحات الحقيقيَّة. تريد أن تُدَمِّر كلَّ تلك الطُّفَيْلِيَّات الجميلة التي تُواصِل الحياة بعد وفاة المعيل البَشري.

تَسقُط الحقيبة من يدها، وعلى الأرض يتدحرَج الحجر الرمادي، ولسببٍ ما يَخطُر أويستر ببالي.

تتجشَّأ هيلين، فتُخرِج منديلًا ورقيًّا من الحقيبة وتضعه تحت فمها، وتَبصُق دمًّا وعُصارةً وقطعًا مكسورة من الزمرُّد. داخِل فمها تلمع كِسراتٌ من الياقوت الوردي والزمرُّد المِصري البرتقالي وقد انغرسَت في لحم اللِّثة الممزَّق، وفي سَقف فمها تعشَّقت شظايا من الزَّبرجد الأرجواني، وفي لسانها توتَّدت شذراتٌ من الماس الأسود.

وتبتسم هيلين وتقول:

- «أريدُ أن أكون مع عائلتي».

وتُكَوِّر المنديل الورقي وتدسُّه في كُمِّ سُترتها. أقراطها وخواتمها وقلاداتها كلها لم تَعُد موجودة.

التفاصيل الخاصَّة ببذلتها أنها بذلة ذات لونٍ ما وقد تلفَت تمامًا.

وتقول هيلين:

- «أرجوك، عانِقني».

داخِل النافذة الرمادية ينام الطِّفل المثالي منطويًا على جانِبه على وسادةٍ من البلاستيك الأبيض وإبهامه في فمه... مثاليٌّ وشاحِبٌ كالجليد الأزرق.

أُطَوِّق هيلين بذراعي، فتُجفِل.

تبدأ رُكبتاها في التداعي، فأُنزِلها إلى الأرض، وتُغلِق هيلين هوڤر بويل عينيها، وتقول:

- «شكرًا لك يا مستر ستريتور».

الحجر الرمادي في قبضتي، وأضرِبُ به على الزجاج الرمادي البارد، وبيدين تَنزِفان أرفعُ پاتريك البارد الشَّاحب. يُلَوِّث دمي پاتريك، وأضعه بين يدي هيلين، ثم أطوِّقُ هيلين بذراعيَّ.

دمي ودمها يختلطان...

بين ذراعيَّ تُغلِق هيلين عينيها وتَدفِن رأسها في حِجري، وتبتسم وتقول:

- «ألم يُراوِدك شعور بأن عثور مونا على «الجريموار» كان مصادفةً أكبر من اللازم؟».

وتفتح عينيها، وتكتسب نظرتها لي شيئًا من الخُبث، وتقول:

- «ألا تحسب أن هناك مُبالَغةً شديدة في أننا كنا نُسافِر والكتاب معنا طول الوقت؟».

تحتضن هيلين پاتريك وهي بين ذراعيَّ... ثم ترفع يدها وتَقرُص خَدِّي... تَرمُقني مُبتَسِمَةً بنِصف فَم، تَرمُقني والدَّم والعُصارة الخضراء بين شفتيها... وتَغمِز بعينها وتقول:

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

- «ضَحِكت عليك يا بابا!».

ويتشنَّج جسدي كله تمامًا ويتصبَّب عَرقًا...

وتقول هيلين:

- «هل كنت تحسب حقًّا أن ماما قد تنتحر بسببك أنت؟ وتُحَطِّم كلَّ جواهرها الثمينة؟ وتُذيب قِطعة اللحم المُجَمَّد هذه؟».

وتضحك والدَّم ومُنَظِّف البالُوعات يفوران في حَلقها، وتقول:

- «هل كنت تحسب فعلًا أن ماما قد تَمضُغ ماساتها لأنك لا تُحِبَّها؟».

وأقولُ: أويستر؟

- «بلحمه»، تقول هيلين، أو يقول أويستر بفم هيلين وصوت هيلين. «... أعني بلحم مسز بويل، لكني أراهِن أنك ولَجتها أيضًا».

ترفع هيلين پاتريك في يديها، طِفلها البارد الأبيض كالپورسلين، الجامِد الهشّ كالزجاج...

وتَقذِف الطِّفل الميت عبر الغُرفة ليصطدِم بالكابينة المعدنيَّة ويرتدَّ عنها إلى الأرض المكسوَّة بالمشمَّع ويدور. پاتريك... تنخلِع ذراعٌ مُجَمَّدَة... پاتريك... يرتطم الجِسم الدائر برُكن خزانةٍ معدنيَّة، وتنكسر الساقان... پاتريك... الدُّمية عديمة الذراعين والساقين... پاتريك... يَضرِب الحائط وينكسِر الرأس.

وتَغمِز هيلين وتقول:

- «لا تحسب أنك بهذه الأهمِّيَّة يا بابا».

وأقولُ: عليك لعنة الله.

يَحتَلُّ أويستر هيلين كما تَحتَلُّ الجيوش المُدن، كما احتلَّت هيلين حضرة الرقيب، كما يَحتَلُّك الماضي ووسائل الإعلام والعالم بأكمله.

تقول هيلين، يقول أويستر بفم هيلين:

- «كانت مونا تعلم بأمر «الجريموار» منذ أسابيع. لقد تعرَّفته منذ رأت دفتر ماما للمرَّة الأولى، لكنها لم تستطِع أن تُتَرجِمه».

يقول أويستر:

- «تَخَصُّصي هو الموسيقى، وتَخَصُّص مونا هو... الغباء هو تَخَصُّص مونا في الحقيقة».

بصوت هيلين يقول:

- «اليوم بَعد الظُّهر أفاقت مونا في صالون تجميل لتَجِدهم يَطلون أظفارها باللون الوردي، فعادت إلى المكتب بأقصى سرعةٍ لتجد مسز بويل نائمةً على مكتبها كأنها في غيبوبةٍ ما».

وترتجف هيلين وتقبض على بطنها وتقول:

- «أمام مسز بويل كانت تعويذة مترجَمة اسمها تعويذة الاحتلال. في الواقع كانت التعاويذ كلها مترجَمةً».

تقول هيلين، يقول أويستر:

- «باركَ الله في ماما وكلماتها المُتقاطِعة. إنها في مكانٍ ما هنا بالداخِل، غاضبة كإعصار».

يقول أويستر بفم هيلين:

- «ألقِ التَّحِيَّة على ماما من أجلي».

التمثال الأزرق الهَش، الطِّفل المُجَمَّد، مُحَطَّمٌ تناثَرَت شظاياه بين شظايا الجواهر، إصبع هنا... ساق هناك... الرأس المفصول.

وأسأله: والآن هو ومونا سيقَتُلان الجميع ويُصبِحان آدم وحوَّاء الجديدين؟

كلُّ جيلٍ يريد أن يكون الأخير.

وتقول هيلين:

- «ليس الجميع. سوف نحتاج بعض العبيد».

ويَمُدُّ أويستر يديَّ هيلين الداميتين ويَرفَع تنُّورتها إلى أعلى، ويتحَسَّس فَرجها ويقول:

- «ألديك وقت لمرَّة على السريع مع ماما قبل أن تتحوَّل إلى قطعة عجين؟».

وأزيح جسد هيلين بعيدًا عني.

ويؤلمني جسدي كله أكثر مما آلمتني قدمي من قبل.

وتُطلِق هيلين صرخة قصيرة وهي تنزلِق إلى الأرض، ومن مكانها على المشمَّع البارد المكسو ببقايا الجواهر وبقايا پاتريك تقول:

- «كارل؟».

وتضع يدها على فمها وتتحسَّس الجواهر المغروسة فيه من الداخل، وتلتوي لتَنظُر لي وتَسألني بهلع:

- «كارل... كارل... أين أنا؟».

وترى الكابينة الفولاذيَّة والنافذة الرماديَّة المكسورة، ثم ترى الذراعين الصغيرتين أولًا، ثم الساقين، ثم الرأس، وتُتَمتِم:

- «لا!».

تَصرُخ هيلين: «لا! لا! لا!»، فيتناثَر الدَّم من بين شفتيها، وتحبو بين شظايا الألوان الحادَّة وتَصرُخ وقد صار صوتها ثقيلًا مكتومًا من جرَّاء أسنانها المكسورة، وتجمع كلَّ القِطع. تنتحب هيلين وهي مُغطَّاة بالدَّم والإفرازات، ورائحة الغُرفة لا تُطاق، وتقبض على القِطع الزرقاء المكسورة، وتَضُمُّ اليدين والقدمين الصغيرتين، والجِذع المسحوق والرأس المُنبَعِج، وتَصرُخ:

- «پاتريك! پاتي!».

تَصرُخ:

- «صغيري! پاتي-پات-پات! لا!».

وتلثم الرأس المُنبَعِج وتَدفِنه في صدرها وتتساءل:

- «ما الذي يَحدُث؟ كارل، سَاعِدني».

وتُحَملِق فيَّ إلى أن يُجبِرها التَّشَنُّج على الانثناء على نفسها، فترى زجاجة مُنَظِّف البالُوعات الفارغة.

وتقول وهي تُطبِق على بقايا طفلها وتَهتَزُّ بها:

- «كارل... ربَّاه... أرجوك أخبرني كيف جئتُ إلى هنا!».

وأذهبُ إليها، وآخُذها بين ذراعيَّ وأقولُ لها كيف أنه في البداية يتظاهَر المالك الجديد بأنه لم يُلقِ نظرةً على أرضيَّة غُرفة المعيشة، بأنه لم يفحصها ويتمعَّن فيها حقًّا عندما طاف بالمنزل للمرَّة الأولى في صُحبة مفتِّش العقارات. لقد أخذ قياسات الغُرف، وأشار لعُمَّال النَّقل أين يضعون الأريكة والپيانو، وأتى بجميع ممتلكاته، لكنه لم يتوقَّف كي يُلقي نظرةً على أرضيَّة غُرفة المعيشة. هذا هو ما يتظاهَر به.

يميل رأس هيلين فوق أشلاء پاتريك ويسيل اللعاب من فمها، وتَرتَخي ذراعاها لتُسقِط أصابع القدمين واليدين الصغيرة على الأرض.

بَعد لحظةٍ أخرى سأصير وحيدًا. هذه هي حياتي. وأقسمُ أنني سأعثُر على أويستر ومونا أينما ذهبا.

الشيء الجيِّد أن الأمر لا يستغرق أكثر من لحظة.

هي أغنيَّة قديمة عن خلود الحيوانات إلى النوم، فيها الكثير من الشَّجن والعاطفة، وأشعر بوجهي مُزرَقًّا ساخنًا مُشَبَّعًا بالأوكسچين وأنا أتلو القصيدة بصوتٍ عالٍ تحت المصابيح الفلورسنت وجُثَّة هيلين بين يديَّ تستند إلى الكابينة الفولاذيَّة وفمها مفغور بعض الشَّيء ليَكشِف عن أسنانها الماسيَّة اللامعة، وپاتريك مغطًّى بدمائها ودمائي.

كان اسمها هيلين هوڤر بويل، وكانت عيناها زرقاوين.

وظيفتي أن ألاحِظ التفاصيل، أن أكون شاهِدًا على الحياد. كلُّ شيءٍ ما هو إلَّا بحث، ووظيفتي ألَّا أشعُر بشيء.

إنها أغنية اجتباء. في عددٍ من الثقافات القديمة كانوا يُغنُّونها للأطفال في فترات المجاعة أو الجفاف، أو في أيِّ وقتٍ يصير فيه حجم القبيلة أكبر من الأرض التي تعيش عليها. كانوا يُغنُّونها للمرضى والمحاربين الذين أحالتهم المعارك إلى معاقين، ولكلٍّ من سيموت قريبًا كي يضعوا نهاية لآلامه.

إنها تهويدة.

أقولُ إن كلَّ شيءٍ سيكون على ما يرام. أحتَضِن هيلين وأهِزُّها وأقولُ لها استريحي الآن، كلُّ شيءٍ سيكون كما ينبغي.

الفصل الرابع والأربعون

عندما كُنتُ في العشرين من عُمري تزوَّجت امرأةً اسمها چينا دينچي، وكان من المُفترَض أن يكون ذلك ما تبقّى من حياتي. بعد عام رُزقنا بطِفلةٍ اسمها كاترين، وكان من المُفترَض أن تكون هي ما تبقّى من حياتي. ثم ماتت چينا وكاترين، وهربتُ أنا وأصبحتُ كارل ستريتور وأصبحتُ صحافيًّا، وطيلة عشرين سنةٍ أخرى كانت هذه حياتي.

وبَعد ذلك، أنت تعرف ما حدث.

لا أدري كم من الوقت ظللتُ مُحتَضِناً هيلين هوڤر بويل. بَعد فترةٍ لم يَعُد هناك منها إلَّا جُثّتها، ولقد مَرَّ وقت طويل قبل أن تَكُفَّ عن النزيف، وكانت أشلاء پاتريك بويل قد بدأت تذوب ويسيل الدَّم منها وهو لا يزال بين ذراعيَّ أُمِّه.

ثم سمعتُ خطوات أقدامٍ تتوقَّف أمام الغُرفة 131، وانفتح الباب.

أنا على الأرض، وهيلين وپاتريك بين ذراعيَّ، وينفتح الباب، ويَدخُل الضابط الأيرلندي العجوز الأشيب.

حضرة الرقيب...

ويقول حضرة الرقيب:

- «يجب أن نتحرَّك حالًا».

ويَخطو من باب الغُرفة إلى الكابينة الفولاذيَّة، وعلى ورقةٍ من مُفَكِّرة يُدَوِّن شيئًا ثم ينزعها ويُناوِلني إياها.

يده معروقة ذات جِلدٍ مُجَعَّد تكسوه الشُّعيراتِ الشائبة، وأظفاره صفراء سميكة.

تقول الرسالة المكتوبة: «سامحوني على قتلي نفسي. إنني مع ابني الآن».

إنه خَط يد هيلين، تمامًا كما أعرفه من دفتر تنظيمها اليومي، من «الجريموار».

والرسالة مُذَيَّلة بتوقيع هيلين هوفر بويل دون مجالٍ للخطأ.

وأنقل بصري من الجُثَّة بين ذراعيَّ وقيء الدَّم ومُنَظِّف البالُّوعات الأخضر إلى حضرة الرقيب الواقف أمامي، وأقولُ: هيلين؟

ويقول حضرة الرقيب، تقول هيلين:

- «بلحمها... أقصد ليس بلحمها بالضبط».

ويَنظُرُ إلى جُثَّة هيلين الميتة في حُضني، ثم إلى تجاعيد يده، ويقول:

- «كم أكره الملابس الجاهزة! لكن أيَّ ميناءٍ يَصلُح أثناء العاصفة، أليس كذلك؟».

وهكذا ها نحن على الطريق من جديد.

أحيانًا أقلق من أن يكون حضرة الرقيب في الحقيقة أويستر يتظاهَر

بأنه هيلين وقد احتلَّت جسد حضرة الرقيب. عندما أنام مع هذا الشخص أيًّا كان، فإنني أتظاهَر بأنه مونا، أو ڇينا، كي يَتَّسِق كلُّ شيء.

طِبقًا لمونا سابات، فمن يَأكُلون أو يَشرَبون بإفراط، من يُدمِنون المخدِّرات أو الجِنس أو السرقة، هُم في الحقيبة مسكونون بأرواحٍ كانت تَعشَق تلك الأشياء ولم تَستَطِع التَّخَلِّي عنها حتى بعد الموت.

السَّكارى ومُدمِنو السرقة تَحتَلُّهم أرواحٌ شِرِّيرة لا أكثر...

وأنت الوسيط الثقافي المعيل...

لا يزال البعض يَحسَب أنه مُسَيطِرٌ على حياته...

كلنا نَسكُن الأشياء، وكلنا الأشياء تَسكُننا...

ثمَّة كيان أجنبي يَستَمِدُّ حياته منك دائمًا. حياتك كلها ما هي إلَّا مركبة يَستَقِلُّها شيء آخَر إلى العالم... روح شِرِّيرة... نظريَّة... حملة إعلانيَّة... استراتيجيَّة سياسيَّة... مَذهَب ديني.

يَقودُني حضرة الرقيب من مركز نيو كونتينيوام الطِّبِّي في سيَّارة الدَّوريَّة، ويقول:

- «معهما تعويذة الاحتلال وتعويذة الطيران».

ويَحسِب كلَّ تعويذةٍ بأن يَرفَع إصبعًا، ويُتابِع:

- «ومعهما تعويذة بَعث، لكنها لا تعمل إلَّا مع الحيوانات، ولا تسألني عن السَّبب».

يقول، تقول:

- «معهما تعويذة مطر وتعويذة للشمس، وتعويذة خصوبة لجعل المحاصيل تنمو، وتعويذة للتواصُل مع الحيوانات».

ولا يَنظُرُ إليَّ حضرة الرقيب، بل إلى يديه المفرودتين على عجلة القيادة، ويُغَمغِم:

- «ولا يملكان تعويذة للحُب».

أنا واقِعٌ إذن في حُبِّ هيلين هوفر بويل، امرأة في جسد رجل. لم نَعُد نُمارِس الجِنس، لكن كما قد يقول ناش، هل يَختلِف هذا عن أيِّ علاقةٍ عاطفيَّةٍ بعد مرور فترةٍ كافية؟

«الجريموار» في حوزة مونا وأويستر، لكن ليس أغنيَّة المَهد. الصفحة التي أعطتني مونا إياها، الصفحة التي تَحمِل اسمي كهدفٍ للاغتيال، كانت الصفحة التي دُوِّنَت عليها الأغنيَّة بالحبر السِّرِّي، وفي نهايتها كُتِب: «أريدُ أن أُنقذ العالم أيضًا لكن ليس بطريقة أويستر، مونا».

يقول حضرة الرقيب، تقول هيلين:

- «أغنيَّة المَهد ليست معهما، لكنهما يملكان تعويذة تقيهما منها».

تعويذة واقية؟

تعويذة تحميهما من أثر أغنيَّة المَهد، يقول حضرة الرقيب.

- «لكن لا تَقلَق. إن لديَّ الآن مسدَّسا وشارةً وقضيبًا!».

لتَعثُر على مونا وأويستر، عليك فقط أن تَبحَث عن كلِّ ما هو مُذهِل، عن المعجزات، عن عناوين صُحف التابلويد المثيرة.

الشَّاب والشَّابة اللذان شوهدا يعبران مياه بحيرة متشيجن سيرًا على الأقدام في يوليو... الفتاة التي جعلت العُشب ينمو أخضر طويلًا في الثَّلج كي يقتات عليه الجاموس الجائع في كندا... الولد الذي يتكلَّم مع الكلاب الضائعة في ملجأ الحيوانات ويُساعِدها على العودة إلى أصحابها.

ابحث عن السحر، ابحث عن القِدِّيسين...

العذراء المُحَلِّقة... يسوع قَتلى الطريق... جحيم اللَّبلاب... بقرة يهوذا المُتَكَلِّمة...

واصِل السَّعي وراء الحقائق، مُطَارَدَة السَّاحرات.

لن ينصَحك المعالِج النَّفسي بهذا، لكنها طريقة تَصلُح.

سوف يصير هذا عالم مونا وأويستر عما قريب. لقد تغيَّر ميزان القوى. سأظلُّ وهيلين في أعقابهما إلى الأبد.

تخيَّل المسيح يُطارِدك محاولًا الإمساك بك كي يُنِقذ روحك، أنه ليس ربًّا صبورًا حليمًا فقط، بل صيَّادًا مجتهدًا مثابرًا يُلاحِق الفريسة.

يَفتَح حضرة الرقيب جرابه بالطريقة التي كانت تفتح بها هيلين حقيبة يدها، ويُخرِج مسدَّسه.

وتقول هيلين، يقول حضرة الرقيب، يقول هذا الذي في صُحبَتي أيًّا كان:

- «ما رأيك أن نَقتُلهما بالطريقة القديمة؟».

وهذه هي حياتي الآن.

تشاك پالانيك، روائي وكاتب صحافي أمريكي ذو أصولٍ فرنسيَّة وروسيَّة وأوكرانيَّة، وُلد عام 1962 في ولاية واشنطن الأمريكيَّة، ودرسَ الصحافة في جامعة أوريجون، قبل أن يلتحق بمحطة الإذاعة القوميَّة كمراسل، ويكتب المقالات للجريدة المحليَّة، كما عمل ميكانيكي سيَّارات فترةً كتب فيها دليلًا لإصلاح الشاحنات، وتنوَّع عمله التطوُّعي بين دور الأيتام ودور المسنِّين، إلَّا أنه تخلَّى عنه بعد وفاة أحد النُّزلاء المرضى المقرَّبين إليه.

كانت أولى رواياته المنشورة هي «نادي القتال» عام 1996، والتي فاز عنها بجائزتي Pacific Northwest Booksellers Association Award وOregon BookAward for Best Novel، كما حوَّلها المخرج ديڤيد فينشر إلى فيلم سينمائي شهير من بطولة براد پيت وإدوارد نورتون، وتوالت بعدها إصداراته التي تنوَّعت بين الرواية والقصة القصيرة والمقال، وفي عام 2003 فازت الرواية التي بين يديك الآن بجائزة Pacific Northwest Booksellers Association Award، بخلاف ترشيحها لجائزة Bram Stoker Award for Best Novel.

تُرجمَت أعمال پالانيك إلى مختلف اللُّغات، ومنها العربيَّة، حيث صدرت «نادي القتال» بترجمة أحمد خالد توفيق، و«النَّاجي الأخير» و«أغنيَّة المهد» بترجمة هشام فهمي، و«يوميَّات» بترجمة أحمد مختار عاشور.

المترجِم هشام فهمي، درسَ الأدب الإنجليزي والترجمة في جامعة الإسكندرية، وعملَ مترجمًا وكاتبًا في عدد من الصحف والمجلات، وترجم عددًا من الأعمال لكتاب عالميين، منها «الهوبيت» لتولكين، «فرانكنشتاين» لماري شِلي، «1408» لستيڤن كينج، «النَّاجي الأخير» لتشاك پولانِك، و«المحيط في نهاية الدَّرب» لنيل جايمان، كما صدرَ له كتابان من سلسلة «المترجِم»، ويعكف حاليًا على ترجمة الملحمة الرِّوائيَّة «أغنيَّة الجليد والنَّار» للأمريكي چورچ ر. ر. مارتن، والتي صدرَ منها «لُعبة العروش» و«صِدام الملوك».

مكتبة 188

أغنيةُ المهد

تصميم الغلاف نجاح طاهر

«تخيَّل عصر ظلام جديد. تخيَّل الكُتُب وهي تحترق، والشرائط والأفلام والملفَّات. تخيَّل التِّليفزيونات والراديوهات وهي تُغذِّي هذه المحرقة الكُبرى. تخيَّل كلَّ تلك المكتبات وقد تمسَّكت بها ألسنة اللهب في قلب الليل. سوف يُهاجِم الناس محطَّات موجات الميكروويف ويَبتُرون كابلات الألياف البصريَّة بالفؤوس. تخيَّل الناس وهُم يُردِّدون الصلوات والتراتيل طوال الوقت لإغراق أيِّ صوتٍ آخَرٍ قد يأتي حاملًا الموت. سوف يضغطون أيديهم على آذانهم وقد نأوا عن كلِّ أغنيَّةٍ أو كلامٍ يحوي الهلاكَ في طيَّاته كما يُسَمِّم المخبولون زجاجات الأسپرين. كلُّ كَلمةٍ جديدة، كلُّ شيءٍ لا يفهمونه بالفعل سوف يصير مُشتبَهًا به، خطيرًا، مُتَجَنَّبًا. حَجْرٌ صِحِّيٌّ ضد وسائل الاتِّصال. تخيَّل الرُّعب».

هي أغنيَّة إفريقيَّة قديمة فيها الكثير من الشَّجَن والعاطفة تُغَنَّى للأطفال قبل خلودهم إلى النوم، وهي أيضًا تعويذة فتَّاكة يُمكنك أن تَستَخدِمها لتَقتُل أيَّ شخصٍ بمجرَّد توجيه أفكارك نحوه وترديدها في عقلك. في هذه الرواية المثيرة المليئة بالكوميديا السوداء يحكي مؤلِّف «نادي القتال» و«النَّاجي الأخير» عن السِّحر والسَّحَرة، وعن القتلة المأجورين والقتلة المُتَسَلسِلين والقتلة الجماعيِّين، وعن الطبيعة غير الطبيعيَّة، وعن البيوت المسكونة وأشباحها، وعن خبايا عالم الصحافة وسمسرة العقارات، وعن رحلةٍ عبر أرجاء الولايات المتَّحدة يقوم بها راوي القِصَّة كارل ستريتور وبطلتها هيلين هوفر بويل من أجل تدمير كلِّ أثرٍ للأغنيَّة القاتلة قبل أن تتسبَّب في دمار العالم كله.

«حكاية رهيبة عن الأوبئة النفسيَّة والأسرار الدَّفينة يرويها تشاك پالانيك بمنتهى البراعة والحُنكة».
نيويورك تايمز

ISBN 978-977-6483-11-8

9 789776 483118

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - القاهرة - تونس